سوزانا كهالان

دماغ يشتعل

شهرٌ من الجنونِ

ترجمة: محمد نجيب
مراجعة: نوف الميموني

أثر

مكتبة ٩٨١

مكتبة | 981

سُر مَن قرأ

دماغ يشتعل

دماغ يشتعل- شهرٌ من الجنون

تأليف: سوزانا كهلان

ترجمة: محمد نجيب

مراجعة: نوف الميموني

الطبعة الأولى 1442 / 2021

ردمك: 978-1-947836-32-7

أثر

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

مكتبة 27 9 2022
t.me/t_pdf

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

دماغ يشتعل

شهرٌ من الجنون

سوزانا كهلان

ترجمة

محمد نجيب

مراجعة

نوف الميموني

مكتبة | 981
سُر مَن قرأ

أثر

مقدمة المترجم

وصمة المرض النادر

أتذكر جيدًا في مرحلة الدراسة الجامعية كيف كانت تُترك الصفحات الأخيرة من كل فصل يتناول أحد أجهزة الجسم البشري في مادة علم الأمراض دون شرح. كانت تتزاحم في تلك الصفحات أسماء أمراض غريبة وسطور قليلة (أحيانًا مجرد سطر واحد) عن كل مرض. كان عنوان الصفحة هو «الأمراض النادرة» أو الاسم الأكثر رومانسية «الأمراض غير الشائعة»، وكانت العادة أن تُلغى تلك الصفحات من الامتحانات النهائية. ولا أنسى العبارة اللعينة التي كان يكررها الأساتذة:

Common is common

كان هذا هو أول إدراكي بمدى الظلم الذي قد يقع على مجموعة من المرضى فقط لأنهم مصابون بمرض نادر، ومن هنا تزرع أولى بذور الجهل في عقول أطباء المستقبل التي قد تؤدي يومًا (وأدت فعلًا) لموت أرواح عديدة.

إصابتك بمرض نادر تعني أن تشخيصك سيتأخر أو قد يجري تشخيصك بمرض آخر. فكثير من الأطباء لا يعرفون أصلًا بوجود مرضك، وإذا كانوا يعرفون وجوده فهم غالبًا لم يروا في حياتهم المهنية حالة فعلية مصابة به، ولهذا لن يخطر في أذهانهم إلا بعد أن يستبعدوا الأمراض الشائعة كلها، وربما يدفعهم جهلهم إلى تشخيص المريض تشخيصًا خاطئًا. تأخر التشخيص

يعني شهورًا أو سنوات من القلق الدائم والخوف من المجهول للمريض وأسرته. ناهيك بأن التشخيص الصحيح في الوقت الصحيح قد يكون الخيط الرفيع الذي يفصل بين الحياة والموت، وهو شيء لا يحدث كثيرًا في حالة المرض النادر.

وحتى بعد التشخيص سيواجه المريض عقبة تلو الأخرى. فلأن المرض نادر، لا تُقدِم الحكومات على توفير الدعم المادي لإجراء أبحاث على المرض، وحتى إذا توافر الدعم المادي فقد لا يتوافر عدد كافٍ من المتطوعين لإجراء الدراسات عليهم. ولأن المرض نادر فبالتبعية يكون العلاج نادرًا، فشركات الأدوية بسياساتها الهادفة للربح في الأساس لن تنتج دواءً بكميات كبيرة لعلاج مرض نادر، وندرة هذه الأدوية تعني غلاؤها في أغلب الأحيان.

ولأن مرضك نادر، فستجد صعوبة في فهم مرضك. ستجد صعوبة في شرح مرضك لمن حولك وسيجد من حولك صعوبة في فهمه، وبالتالي لن يستطيعوا مساعدتك أو استيعاب مدى ألمك. ولأن مرضك نادر فقد تبدو ظاهريًا على ما يرام، ولكنك داخليًا تعاني من إعاقة أو خلل ما لا تستطيع التعبير عنه بالكلمات.

ولأن مرضك نادر، فلن تستطيع أن تجد سوى عدد قليل جدًا من المرضى المصابين بالمرض نفسه في بيئتك أو مجتمعك، فتشعر بأنك منبوذ وغريب. تجد نفسك تتمنى لو كنت قد أصبت بمرض معروف حتى لو كان أكثر حدةً وعنفًا كيلا تكون وحيدًا في معاناتك. فأحيانًا يمكن للمرء تحمل الألم لكن لا يمكنه تحمل وحشة الوحدة. ولهذا ربما كان لقب «المرض اليتيم» من أكثر أسماء المرض النادر واقعيةً.

أثبتت الدراسات أن التوتر الذي ينتاب مصابًا بمرضٍ نادرٍ وتدهورَ حالته النفسية تنبع من نقص المعلومات عن المرض، ومن شعوره بالعزلة داخل

مجتمعه وأسرته. يُشبّه الكثيرون المصابين بمرض نادر بالأقليات الدينية أو العرقية الموجودة في مجتمع ما، فكل ذنبهم أنهم ولدوا بجينات مختلفة نادرة. فالمريض عندما يشعر بأن مرضه نادر، أنه حين يتلفظ باسم مرضه أمام الآخرين، يجد وجوهًا خالية من أي تعبير أو على الأقل مستفهمة، يشعر بأنه ليس مريضًا بل غريبًا، ويتلاشى الحد الفاصل بين ذاته وبين المرض. يتولد عند المريض شعورٌ بالخوف، وأحيانًا بالخجل والعار والرفض. ولهذا ترتفع نسبة الانتحار بين المصابين بالمرض النادر، بسبب الاكتئاب لا بسبب قسوة المرض.

يعتبر المرض مرضًا نادرًا إذا كانت نسبة الإصابة به هي أقل من واحد في الألفين. ربما يبدو الرقم صغيرًا، أقل من واحد في كل ألفين. رغم أن دخول الإحصاءات والتحليلات الرقمية في الطب (وهنالك علوم مستقلة متخصصة في ذلك) قد خدم الطب خدمات جليلة، إلا أنه أحيانًا ما يسطّح الكثير من الأمور. ولا بد أن نتذكر أن الأرقام ليست أرقامًا، بل كل رقم هو إنسان له حياته المستقلة وقصته المختلفة. هنالك مقولة لباحث مشهور:

«لو عاش المصابون بالأمراض النادرة في دولة واحدة لكانت ثالث أكبر دولة من حيث عدد السكان».

لكن كيف يمكن أن «يعيشوا في دولة واحدة»؟

ربما هنا تكمن أهمية هذا الكتاب. فسوزانا كهالان صحفية وجدت نفسها تخوض معركة مع مرض عقلي نادر، فقررت توثيق مرضها بالكتابة. كتابتها عن هذا المرض وبصفة عامة تجربة الإصابة بمرض نادر ساعد الكثيرين في رحلة التشخيص والعلاج، والأهم في التأقلم النفسي مع تبعات الإصابة بمرض نادر، ومقاومة ما يسمى بوصمة المرض النادر.

أجمل ما في الكتاب هو قدرة كهالان على الجمع بين الحقائق العلمية وبين معاناتها الشخصية، والدور الذي أدّته عائلتها في مواجهة مرضها. فترى في فصول الكتاب الجمع بين فن التحقيق الصحفي للبحث عن تشخيص للمرض في البداية، ثم رحلة سوزانا لكشف اللثام عن حقيقة ما مرت به خلال شهر الجنون هذا، والأسلوب العلمي المُبسط لشرح التفاصيل الطبية المتعلقة بالمرض والعلاج. وتبحر بنا سوزانا بين الماضي والحاضر والمستقبل فيما يتعلق بالذاكرة وخباياها التي ما يزال الكثير منها عصيًا على فهم الطب. وأخيرًا الأسلوب الدرامي الذي يعطي للقصة بعدها الإنساني، سواءً في مرحلة ما قبل التشخيص أو التشخيص أو التعافي. فرغم أهمية المحتوى العلمي والمعرفي في هذا الكتاب - وهو ما كان دافعي الأول لترجمته - إلا أنني وجدت نفسي أسيرًا للكثير من المشاهد المفعمة بالمشاعر التي يمتلأ بها الكتاب. فالمرض رغم قسوته قد يكون اختبارًا صادقًا لعلاقة الإنسان بعائلته ومحيطه وقبل كل شيء ذاته، وقد يكون محفزًا لأسئلة عميقة عن الحياة والهوية والصداقة والحب.

إصابتك بمرض نادر لا يعني أنك شاذ أو منبوذ أو ملعون، بل يعني أنك تعاني ألمًا مختلفًا، وتمتلك قصة فريدة، وإذا بحثت جيدًا فستجد من يشاركك الألم وينصت إلى قصتك.

وهكذا يمكن لتلك الدولة المتخيلة أن تكبر شيئًا فشيئًا على أرض الواقع.

مكتبة
t.me/t_pdf

إهداء

إلى المرضى الذين لا يعرفون تشخيصهم بعد.

مقدمة المؤلفة

«لم يثبُت علميًا وجود النسيان بعد. نعرف فقط أن بعض الأشياء لا تخطر في أذهاننا حين نريدها أن تفعل».

فريدريك نيتشه

بسبب طبيعة مرضي وتأثيره على الدماغ، لا أتذكر سوى ومضات من الأحداث الحقيقية وهلاوس معدودة لكن مفعمة بالحيوية لما مررت به خلال الشهور التي تجري فيها أحداث هذه القصة. تظل الغالبية العظمى من تفاصيل ذلك الوقت معتمة أو ضبابية. كتابتي لهذا الكتاب كانت محاولة لفهم ما ضاع مني.

استخدمت المهارات التي اكتسبتها بصفتي صحفية لتحليل الأدلة المتاحة: مئات الحوارات مع أطباء وممرضات وأصدقاء وأفراد من العائلة، وآلاف التقارير الطبية، ويوميات والدي التي دوّنها خلال تلك المدة، ومدونة المستشفى التي كان يستخدمها والداي المطلقان للتواصل مع بعضهما البعض، ومقاطع فيديو التقطتها كاميرات المستشفى أثناء مدة إقامتي، ومفكرات كثيرة سجّلتُ فيها ذكريات واستشارات وانطباعات لتساعدني على إعادة خلق الماضي الذي لا يكف عن الهروب من ذاكرتي.

غيرت بعض الأسماء والسمات المميزة لبعض الأشخاص والأماكن لكن هذا عمل غير مُتخيل، خليط من فن المذكرات والتحقيق الصحفي «الربورتاج».

مع هذا على أن أعترف أنني مصدر غير موثوق فيه. مهما قمت من بحث، فإن الوعي الذي يحدد هويتي الإنسانية لم يكن حاضرًا وقتها. بالإضافة إلى أنني شخص غير حيادي في هذه القصة. ففي النهاية هذه حياتي، لذا في قلب هذه القصة، تكمن المشكلة القديمة للصحافة - الحيادية والمصداقية - مما يجعل حكايتي للقصة أكثر تعقيدًا بمئة مرة. بالتأكيد هنالك أشياء فهمتها خطأً، وألغاز لن أتمكن من كشف اللثام عنها أبدًا ولحظات عديدة ستظل منسية للأبد، وبالتالي غير مدونة.

ما بقي من القصة هو محاولة صحفية للوصول لأعمق أعماق ذاتها - الشخصية، الذاكرة، الهوية - في محاولة لتجميع القطع المتبقية وفهمها.

استهلال

في البداية، كان ظلام وصمت فقط.

«هل عيناي مفتوحتان؟»

لا يمكنني أن أميّز ما إذا كنت أحرك شفتيّ بالكلام أو هل ثمة شخص من حولي أوجّه إليه هذا السؤال. المكان مظلم للغاية فلا أستطيع أن أرى. أغمضت عينيّ وفتحتهما مرة، واثنتين وثلاثًا. أشعر بهاجسٍ ضعيف يكبر بداخلي. هذا شيء يمكنني إدراكه. تتحول أفكاري ببطء شديد إلى لغة، كما لو كانت تخرج من قِدر مليء بالمولاس، تتشكل الأسئلة كلمة فكلمة: أين أنا؟ لماذا أشعر بالحكة في فروة رأسي؟ أين الجميع؟ ثم يبدأ العالم حولي في الظهور تدريجيًا، يبدأ كثقب، قُطره يتزايد باطراد. تظهر الأشياء ضبابية ثم تزداد وضوحًا. بعد لحظة أتعرف على الأشياء: التلفاز، الستارة، السرير. أعرف فورًا أن علي الخروج من هنا.

حاولت التحرك للأمام لكن أوقفني شيء ما. عثرت أصابعي على صديري سميك يلفّ خصري ويقيدني بالسرير مثل - ما هي الكلمة الصحيحة؟ - سترة المجانين. يتصل الصديري بقضيبين معدنيين باردين. لففت يدي حول القضبان ودفعت للأعلى، لكن اصطدم صدري بالأشرطة التي تتطوق جسدي، ولم أتحرك سوى بضعة إنشات.

على يميني نافذة مغلقة تطل على الشارع. لمحت سيارات، سيارات صفراء. تاكسي. أنا في نيويورك. مدينتي. قبل أن يسيطر الارتياح عليّ،

رأيتها. المرأة الأرجوانية. كانت تحدق نحوي.

صرخت «ساعدوني!». لم تتغير ملامح وجهي أبدًا، كما لو أنني لم أقل شيئًا. حاولت أن أحرر نفسي من الشرائط مجددًا.

«توقفي عن فعل ذلك». دندنت المرأة الأرجوانية الكلمات بلكنة جاميكية مألوفة.

«سيبيل؟» لكن لا يمكن أن تكون هي. سيبيل هي مربية طفولتي. لم أرها منذ كنت طفلة. لماذا اختارت اليوم كي تعاود الظهور في حياتي؟

«سيبيل؟ أين أنا؟»

«أنت في المستشفى. من الأفضل أن تهدئي».

ليست سيبيل.

«أشعر بالألم».

اقتربت المرأة الأرجوانية مني، لامس ثدياها وجهي وهي تنحني لفك قيودي، بدأت بالقيد الأيمن ثم انتقلت للأيسر. حين تحررت ذراعاي رفعت يدي اليمنى غريزيًا لأهرش رأسي. لكن بدلًا من أن تلمس يدي الشعر والرأس، لمست قبعة قطنية. نزعتها بغضب مفاجئ انتابني، ورفعت كلتا يديّ لأتفحص رأسي. تحسست أسلاكًا بلاستيكية كثيرة. نزعت أحدها - مما جعلني أشعر بوخزة في فروة رأسي - وخفضته إلى مجال بصري. كان وردي اللون. حول معصمي سوار بلاستيكي برتقالي. ضيقت عينيّ، غير قادرة على قراءة الكلمات. لكن بعد ثوانٍ قليلة، اتضحت الحروف المطبوعة على الأسورة.

«Flight Risk»..

خطر الهروب.[1]

1- خطر الهروب: مصطلح في القانون الأمريكي يعني أن هنالك احتمال كبير أن يهرب المتهم من الولاية أو الدولة أثناء محاكمته، واتّسع المصطلح فتضمّن المرضى الذين قد تدفعهم حالتهم العقلية أو النفسية إلى الهروب من مركز الاستشفاء.

الجزء الأول

مجنونة

«شعرتُ بطنين الأجنحة الغريبِ داخل رأسي»

فرجينيا وولف «مذكرات كاتبة»

(1)

Bedbug Blues[1]

ربما بدأ كل شيء بعضة بق، عضة بق فراش وهمية.

في صباح أحد الأيام، استيقظت فوجدت نقطتين حمراوين على الوريد الرئيسي الأزرق الذي يجري بطول ذراعي اليسرى. كان هذا في أوائل 2009، وكانت نيويورك تتعرض لغزو رهيب من بق الفراش. اجتاح المكاتب، ومحال الملابس وقاعات السينما، ودكك الحدائق الخشبية. رغم أني لست إنسانة قلقة بطبيعتي، لكن لليلتين متتاليتين حلمت ببق فراش عملاق بطول الإصبع. سبّب لي ذلك قلقًا منطقيًا، لكن بعد أن نظفت الشقة بدقة، لم أعثر على حشرة بق واحدة ولا على أي دليل على وجودها، باستثناء تلك العضتين على ذراعي. حتى إنني استدعيت عامل شركة المبيدات ليفحص شقتي. كان عاملًا من أصول إسبانية يبدو عليه الإنهاك، مشّط المكان كله. رفع مخدات الأريكة وفحص بكشافٍ أماكن لم أفكر في تنظيفها من قبل. أعلن في النهاية أن شقتي خالية من البق. طلبت منه تحديد موعد آخر لرش الشقة. لا بد أن أعطي الرجل حقه فقد نصحني أن أنتظر قبل أن أدفع ثمنًا

1- يشير عنوان الفصل إلى أغنية لجاك إليوت وهو مغني أمريكي اشتهر في الستينيات. البلوز «Blues» هو نوع من الموسيقى التي اشتهر بها الأمريكيون الأفارقة في أوائل القرن العشرين، أما كلمة «Bedbug» فتعني بق الفراش وهي حشرة تتغذى على الدم وتفضل للعيش في الملاءات وحواف الأسرّة وفي الملابس. فضلنا الإبقاء على العنوان الإنجليزي. (المترجم).

خياليًا لأصارع ما أسماه هو «غزوًا وهميًا». لكني أصررت أن يقوم بذلك مقتنعة أن البق قد احتل شقتي وسريري وجسدي. وافق على العودة وتطهير الشقة بالمبيدات.

حاولت إخفاء قلقي عن زملائي في العمل. من المفهوم أن لا أحد يريد التعامل مع شخص يعاني من مشكلة بق في فراشه. لذا في اليوم التالي، سرت بلامبالاة مجتازة حجرة الأخبار إلى مكتبي. كنت حريصة على إخفاء علامات العض وحاولت أن أبدو طبيعية. رغم أن كلمة «طبيعية» لا تعني الكثير في ذا بوست، لأن ذا بوست جريدة مهووسة بشدة بكل شيء خارج عن المألوف.

عمر ذا بوست قريب من عمر أمريكا نفسها. أسسها ألكسندر هاملتن عام 1801م. هي أقدم صحيفة ما تزال تصدر في البلاد. في قرنها الأول، شاركت الصحيفة في حملة إلغاء العبودية وساعدت في الترويج لإنشاء حديقة سنترال بارك. اليوم حجرة الأخبار تشبه الكهف وتكاد تخلو من الهواء، تقسم إلى صفوف من مكاتب صغيرة مفتوحة على بعضها وعدد من الخزائن التي تمتلئ بمستندات منسية وغير مستخدمة تراكمت عبر العقود. يعلو الحوائط ساعات لا تعمل، وزهور معلقة بالمقلوب جافة وميتة، وصورة غريبة لقرد يمتطي ظهر كلب بوردور كولي، ومجسم كبير ليد، كلها تذكارات من صحفيين قدامى عملوا في الصحيفة عبر السنين. وهنالك أيضًا مستودع صغير كان يستخدمه الصحفيون في الماضي حجرة تدخين، ويُستخدم الآن لحفظ المعدات. تعلو بابه لافتة باهتة تحذر من أن حجرة التدخين لم تعد موجودة، كما لو أن أحدهم قد يدخل للحجرة بالخطأ بحثًا عن سيجارة بين أجهزة المراقبة ومعدات التصوير. كان هذا هو عالمي الصغير غريب الأطوار طوال السبع سنوات الماضية، منذ بدايتي هنا متدربةً في السابعة عشرة من عمري.

تضجّ حجرة الأخبار بالنشاط، خاصةً قرب موعد تسليم الصحيفة للمطبعة: ضغط الأصابع على لوحات المفاتيح، صراخ المحررين، ثرثرة المراسلين.. الصورة النمطية المثالية لحجرة أخبار صحيفة شعبية.

أين هي الصورة اللعينة التي سترافق هذا الخبر؟

كيف لم يكن يعرف أنها عاهرة؟

ما لون جوارب ذلك الرجل الذي قفز من فوق الكوبري؟

الأمر مثل التواجد في حانة لكن من دون كحوليات، تزدحم بمدمني أخبار تملأ عروقهم بالأدرينالين. لن تجد فريق العمل هذا في أي مكان آخر: أفضل كتّاب للعناوين في مجال الصحافة، وأشرس كلاب صيد لتقفي أثر الأخبار الحصرية، ومدمنو عمل من الدرجة الأولى لديهم قدرة حرباء على مصادقة أي شخص أو معاداته من أجل السبق الصحفي.

لكن في معظم الأيام، تكون حجرة الأخبار هادئة حيث ينهمك الجميع في بحث صامت عبر سجلات المحكمة ومصادر للحوارات أو يقرأون الصحف. عادة كما هو اليوم، يخيم السكون على الحجرة فتبدو كمشرحة. توجهت إلى مكتبي لأبدأ يومي. اخترقت الممر بين المكاتب المفتوحة التي تعلوها لافتات شوارع منهاتن الخضراء: شارع ليبرتي، شارع ناساو، شارع باين، شارع ويليم، في محاولةٍ من إدارة الجريدة للتذكير بالزمن الذي كانت فيه ذا بوست محاطة بشوارع وسط المدينة في مقرها السابق في الشارع الجنوبي. كان مكتبي يقع في شارع باين.

وسط هذا الصمت، جلست على مقعدي بجوار أنجيلا، صديقتي المقربة في الصحيفة، ومنحتها ابتسامة متوترة. سألتها محاولة ألا يتردد صدى سؤالي بين جدران الحجرة الصامتة. «تعرفين أي شيء عن عضات بق الفراش؟»

أمزح كثيرًا بشأن رغبتي في أن تكون ابنتي - إن رُزقت بابنة - مثل أنجيلا. هي بطلة حجرة الأخبار بالنسبة إليّ. عندما قابلتها أول مرة منذ ثلاثة أعوام، كانت امرأة شابة من كوينز لبقة في الحديث وخجولة، تكبرني بعدة سنوات. انتقلت للعمل في ذا بوست من صحيفة أسبوعية صغيرة، ومنذ ذلك الوقت نضجت تحت الضغط الذي يفرضه عليها العمل في صحيفة شعبية في مدينة كبيرة لتصبح من أكثر المراسلين الصحفيين الموهوبين في ذا بوست والمسئولة عن نسج خيوط أفضل القصص الصحفية. في معظم ليالي الجمعة، تجد أنجيلا تكتب أربع قصص صحفية في الوقت نفسه على شاشات كومبيوتر منفصلة. لم أستطع إلا أن آخذها مثالاً أحتذي به. الآن كنت أحتاج إلى نصيحتها حقًا. حين سمعتْ أنجيلا تلك الكلمة الرهيبة «بق الفراش»، أبعدت مقعدها عني.

قالت بابتسامة خبيثة:

«لا تقولي إن لديك عضة بق».

بدأتُ في كشف ذراعي لها. لكن قبل أن أحكي لها، رن الهاتف.

«أنت مستعدة؟»

أتى صوت ستيف، المحرر الجديد لعدد الأحد. كان في منتصف الثلاثينيات فقط لكن مع ذلك وقع الاختيار عليه ليكون رئيس محرري عدد الأحد، القسم الذي أعمل فيه. ورغم لطفه في معاملتي، كنت أهابه. كل ثلاثاء، يلتقي كل صحفي به ليعرض أفكاره من أجل عدد الأحد. من نبرة صوته، أدركت مذعورة أني أتيت اليوم للاجتماع الأسبوعي غير جاهزة على الإطلاق. عادة يكون لدي على الأقل ثلاث أفكار متماسكة لأعرضها. لم تكن دائمًا أفكارًا عظيمة لكن كان لدي دائمًا شيء أقوله. الآن لا أملك أي

شيء، ولا حتى شيء يمكّنني من تخطي الدقائق الخمسة التالية. كيف تركت ذلك يحدث؟! كان الاجتماع شيئًا لا يمكن نسيانه، طقس أسبوعي، نعمل له ألف حساب ونستعد له حتى في أيام إجازتنا. تلاشت أفكار البق من رأسي، بينما اتسعت عيناي ذعرًا وأنا أقف، متمنية أن أختلق شيئًا بمجرد أن أصل إلى مكتب ستيف. مشيت في شارع باين بتوتر ثم دلفت إلى مكتب ستيف. جلست بجوار بول، محرر أخبار عدد الأحد وهو صديق مقرب لي، دربني منذ سنتي الثانية في الجامعة. أومأت له متجنبة أن تلتقي عيوننا. عدّلت إطار نظارات آني هول، التي وصفها صديق يعمل في مجال النشر بأنها طريقتي الخاصة لمنع الإنجاب. كان يقول لي: «لن ينام أحدهم معك وأنت تضعين هذه النظارة».

جلسنا في صمت للحظة بينما أحاول أن أطمأن نفسي بوجود بول المألوف: بشعره الذي شاب قبل أوانه، ونزعته العفوية لإلقاء كلمة «Fuck» كما يستخدم المرء حروف الجر. هو تذكير دائم بالصحفي والمحرر العبقري في عصر الجريدة الذهبي. منحني فرصة أن أكون صحفية أثناء صيف عامي الثاني من الجامعة بعد أن عرّفني عليه صديق للعائلة. بعد عدة سنوات من عملي مراسلةً، أغطي الأخبار العاجلة وأعطي المعلومات التي أجدها إلى صحفي آخر كي يكتبها، عرض علي بول أول مهمة صحفية كبيرة؛ مقال عن الانحلال في أخوية جامعة في نيويورك. عندما عدت له بالقصة مع صوري وأنا ألعب «Beer Pong»[1] داخل الأخوية، كان معجبًا بجرأتي. رغم أن المقال لم ير النور، كلفني بقصص أخرى حتى عُينت بدوام كامل في 2008م. الآن بينما أجلس في مكتب ستيف غير مستعدة على الإطلاق،

1-إحدى ألعاب الشرب الشائعة بين شباب الجامعات الأمريكية. تعتمد على رمي كرات البينج بونج في كؤوس بيرة، وعندما ينجح المتباري في إدخال الكرة يكون لزامًا على الخصم أن يشرب محتواها.

لم أستطع التوقف عن التفكير أنني عمل غير مكتمل، لا يستحق ثقة بول واحترامه.

طال الصمت فرفعت رأسي. وجدت ستيف وبول يحدقان إليّ في ترقب، فبدأت بالكلام متمنية أن يأتني الإلهام.

«لقد عثرت على قصةٍ في مدونة....»، قلت وأنا أحاول بيأس التقاط خيوط أفكار غير مكتملة.

قاطعني ستيف: «هذا ليس كافيًا.. يجب أن تحضري قصصًا أفضل من ذلك، تمام؟ رجاءً لا تحضري إلى هنا ثانية دون شيء حقيقي».

أومأ بول موافقًا على كلامه بينما تلوّن وجهه بالأحمر. لأول مرة منذ أيام عملي في جريدة المدرسة الثانوية، تخذلني الصحافة. غادرت اللقاء غاضبة من نفسي وفي حيرة من عجزي وفشلي.

سألتني أنجيلا عندما عدت إلى المكتب: «أنت على ما يرام؟».

قلت بسخرية: «نعم، كما تعرفين، أنا فقط سيئة في عملي. ليس أمرًا مهمًا!».

ضحكت أنجيلا كاشفة عن أسنان معقوفة بشكل ساحر. «أوه، توقفي يا سوزانا، أخبريني ماذا حدث؟ لا تأخذي الأمور بجدية كبيرة. أنت صحفية محترفة».

قلت وأنا أشرب قهوتي الفاترة: «شكرًا، أنج. الأمور لا تسير كما أريد».

فكرت بمصائب اليوم في تلك الأمسية بينما كنت أمشي غرب مبنى الأخبار في الجادة السادسة، عابرةً ميدان تايمز المزدحم بالسياح نحو شقتي في كيتشن هيلز.

كما لو كنت أعيش متعمدةً كليشيه الكاتبة المكافحة في نيويورك، استأجرت شقة أستديو ضيقة مكونة من حجرة واحدة حيث أنام على أريكة تُسحب وتُطوى. كانت الشقة غارقة في الصمت، تطل على أفنية عدة مباني، وعادة ما أستيقظ في الليل ليس بسبب صفارات سيارات الشرطة وشاحنات جمع القمامة، بل بسبب صوت عزف جاري على الأكورديون في شرفته.

كنت ما أزال مهووسة بعضات البق على ذراعي رغم طمأنة عامل التطهير أن لا شيء يستدعي قلقي. شرعت في إعداد المكان له كي يرشه وقضيت الليل في التخلص من الأشياء التي قد تكون مترعًا للبق. اضطررت إلى رمي قصاصات ذا بوست العزيزة في القمامة. مئات من المقالات التي تذكرني بغرابة عملي: ضحايا ومشتبه بهم، وأحياء فقيرة تأوي العصابات، وسجون ومستشفيات، وورديات عمل تمتد لاثنتي عشرة ساعة كنت أقضيها مرتعشة من البرد داخل سيارة المصورين في انتظار التقاط صورة للمشاهير. لقد أحببت كل لحظة من عملي. لماذا صرت فجأة سيئة جدًا في أدائه؟

بينما كنت أرمي تلك الكنوز في سلة المهملات، توقفت أمام عدة عناوين، من بينها أكبر قصة صحفية في مشواري المهني حتى الآن: عندما تمكنت من إجراء حوار صحفي حصري مع مختطف الأطفال مايكل ديلفين[1]. شغلت القصة وسائل الإعلام في البلاد. كنت وقتها في السنة الأخيرة في جامعة واشنطن في سانت لويس، ورغم هذا تحدث ديلفين معي مرتين. لكن لم تنته القصة هنا. جُن جنون محامي ديلفين بعد نشر الحوار، وأطلقوا حملة تشهير بذا بوست وطالبوا المحكمة بإصدار قرار بمنع النشر في القضية، بينما بدأت تناقش وسائل الإعلام في الولاية والبلاد كلها في البرامج التلفزيونية

1- مايكل جي ديلفين: مجرم أمريكي اتهم بخطف طفلين والاعتداء الجنسي عليهما عام 2007.

أساليب الصحافة ومدى أخلاقية إجراء حوار داخل السجن. تلقى بول عدة مكالمات باكية مني خلال تلك المدة مما قوّى من أواصر صداقتنا، وفي النهاية وقفت الصحيفة ومحرروها في صفي. ورغم أن تلك التجربة هزتني وأفقدتني أعصابي، إلا أنها فتحت شهيتي أيضًا. ومنذ ذلك الحين صرت متعهدة الحوارات داخل السجون. حُكم على ديلفين بالسجن مدى الحياة.

ثم كانت هنالك قصة عمليات تكبير الأرداف. «المؤخرة والخطر الداهم»، عنوان ما يزال يضحكني. كان علي التخفي في صورة راقصة ملهى ليلي ترغب في عملية تكبير أرداف رخيصة والذهاب إلى سيدة تقيم في غرفة فندق في وسط المدينة تعرض القيام بتلك العمليات بشكل غير قانوني. وبينما أنا واقفة أمامها عارية، ولباسي الداخلي حول كاحلي، حاولت ألا أشعر بالإهانة حين قالت لي: «ألف دولار لتكبير كل ردف»، وكان هذا ضعف الثمن الذي طلبته من المرأة التي باحت بالمعلومات لذا بوست.

الصحافة مثيرة. أحببت دومًا أن أعيش واقعًا أكثر إثارة وغرابة من الخيال. مع ذلك لم أعرف أن حياتي على وشك أن تصير غريبة لدرجة تجعلها تستحق التغطية الصحفية في جريدتي العزيزة. رغم أن ذكرى مقالة تكبير الأرداف قد جعلتني أضحك إلا أني أضفتها إلى كومة القمامة التي تكبر - «إلى حيث تنتمي» قلت ساخرة - رغم أن هذه القصص المجنونة كانت تعني الدنيا بالنسبة إلي.

رغم شعوري بضرورة ما أفعل، فإن تخلصي القاسي من أعوام من العمل كان شيئًا لا يتماشى تمامًا مع شخصيتي. كنت شخصية نوستالجية، لا أتخلص بسهولة من أغراضي، وأحتفظ بقصائد الشعر التي كتبتها منذ الصف الرابع الابتدائي، وبمذكراتي التي تعود لأيام الثانوية.

لم أستطع الربط بين فزعي من بق الفراش، وإهمالي في العمل، ونزعتي المفاجئة للتخلص من الملفات القديمة في ذلك الوقت. ما لم أكن أعرفه حينها هو أن الهوس بالبق قد يكون علامة على الذُهان. هي مشكلة ليست مشهورة لأن من يعانون من العدوى الطفيلية الوهمية أو ما يسمى بمتلازمة أبكبوم، غالبًا ما يستشيرون عامل التطهير بالمبيدات أو طبيب جلدية بخصوص إصابتهم المتوهمة بدلًا من أطباء الأمراض النفسية والصحة العقلية، ونتيجة لذلك لا تُشخّص حالاتهم. فيما بعد اكتشفت أن مشكلتي أكبر من حكة في الذراع واجتماع منسي.

بعد ساعات قضيتها في التخلص من كل شيء كي أخلق منطقة خالية من بق الفراش، لم أشعر بأي تحسن. بينما أجلس منهكة بجوار أكياس القمامة السوداء، شعرت فجأة بألم رهيب في داخلي - هذا الألم الرهيب الذي يطفو بسرعة إلى السطح ويصاحب انفطار القلب أو الموت. حين وقفت على قدمي، اجتاح رأسي ألمٌ حاد، مثل الهبّة الساخنة التي تصاحب الصداع النصفي رغم أني لم أعاني من الصداع النصفي من قبل. بينما كنت أترنح في طريقي إلى الحمام، توقفت ساقاي وجسدي عن الاستجابة السريعة لأوامري كما لو كنت أمشي في الرمال. لا بد أني أصبت بالإنفلونزا، هكذا فكرت.

***

ربما لم تكن الإنفلونزا حقًا، وربما لم يكن هنالك بق فراش على الإطلاق. لكن غالبًا أصيب جسمي بميكروب من نوع ما، جرثومة صغيرة حفزت كل شيء. ربما مصدرها هو رجل الأعمال الذي عطس في وجهي في مترو الأنفاق منذ أيام قليلة، محررًا ملايين الفيروسات لتنقض علينا في عربة المترو، أو ربما شيء ما أكلته أو شيء تسلل إلى داخلي عبر خدش صغير في جلدي، أو

ربما عبر واحدة من عضات البق الغامضة. ها هو عقلي يغرق ثانية في دوامة الاحتمالات. لم يعرف الطبيب نفسه كيف بدأ كل هذا. الشيء الواضح هو لو أن هذا الرجل قد عطس في وجهك فإنك غالبًا ستصاب بإنفلونزا. أما أنا فقد قلب هذا الحدث عالمي رأسًا على عقب، وكاد أن يجعلني أعيش في دار رعاية لبقية حياتي.

***

مكتبة
t.me/t_pdf

(2)

حمالة صدر دانتيل سوداء

بعد عدة أيام، بدا الصداع النصفي والاجتماع الأسود وبق الفراش ذكرى بعيدة، بينما أستيقظ مسترخية ومطمئنة في فراش حبيبي.

في الليلة السابقة اصطحبت ستيفن لمقابلة والدي وزوجته جيزيل لأول مرة في بيتهما الرائع المبني من الحجر البني في بروكلين هايتس. كانت خطوة كبيرة في علاقتنا التي يبلغ عمرها أربعة شهور - انفصل والداي وأنا في السادسة عشرة وكنت دائمًا مقربة أكثر لأمي لذا نراها أكثر - فأبي قد يكون مخيفًا أحيانًا. لم نمتلك أنا وأبي علاقة مُنفتحة أبدًا. (رغم عقد قران أبي وجيزيل منذ أكثر من سنة، لم يخبراني وأخي بزواجهما سوى مؤخرًا) لكن في النهاية كان عشاء سارًا ودافئًا، مكونًا من نبيذ وطعام لذيذ. غادرت وستيفن ونحن مؤمنان أن الأمسية كانت ناجحة. رغم أن والدي سيعترف لي لاحقًا أنه خلال هذا اللقاء الأول قد أعتقد أن ستيفن حبيبٌ عابرٌ، وليس حبيبًا يرغب في علاقة جدية طويلة المدى.

صحيح أننا بدأنا في المواعدة منذ مدة قصيرة لكنني قابلت ستيفن منذ ست سنوات حين كنت في الثامنة عشرة، وعملنا سويًا في محل لبيع أسطوانات الموسيقى في مدينة سوميت في نيوجيرسي. وقتها كنا نقضي أيام العمل في مزاح بريء مهذب. لكن لم تأخذ علاقتنا منحنى أعمق أبدًا. كان العائق الأساسي

هو أنه أكبر مني بسبع سنوات (فارقٌ عمريّ غير معقول بالنسبة لمراهقة). ثم في ليلة في الخريف الماضي، تقابلنا صدفة في حفل صديق مشترك في حانة في إيست فيليج. وبينما نشرب زجاجات بيرة سيرا نيفادا، وثّقنا علاقتنا من خلال حديثنا عن كرهنا المشترك للسراويل القصيرة وعشقنا المشترك لألبوم بوب ديلن «Nashville Skyline». كان ستيفن جذابًا بأسلوبه الرائق الذي يغريك للسهر معه طوال الليل. وهو مُوسيقي ذو شعر طويل أشعث وجسد هزيل لمُدخن شره ويمتلك معرفة موسوعية بالموسيقى، لكن كانت عيناه اللتان تشعان بالثقة والصراحة أكثر شيء جذاب فيه. عينان لا تخفيان شيئًا، وتمنحاني إحساسًا كما لو كنت أعرفه طوال حياتي.

***

في ذلك الصباح، بينما أستلقي في سريره داخل شقته الضخمة (مقارنة بشقتي) في مدينة جيرسي، شعرت أن المكان صار ملكي. فقد خرج ستيفن لحضور تمارين الفرقة ولن يعود قبل نهاية اليوم، تاركًا الخيار لي لقضاء اليوم هنا أو العودة إلى شقتي. تبادلنا نسخًا من مفاتيح شقتينا منذ قرابة شهر. كانت هذه أول مرة أتخذ هذه الخطوة مع حبيب لي لكن لم يراودني الشك في أنه القرار الصحيح. شعرنا براحة عميقة معًا. شعرنا كذلك بالسعادة والطمأنينة والثقة المتبادلة. لكن بينما أستلقي في مكاني، خطرت ببالي فجأة فكرة غير متوقعة سرعان ما سيطرت علي؛ اقرأي بريده الإلكتروني.

تلك الغيرة غير العقلانية التي شعرت بها لم تكن من طبيعتي. لم أنجر أبدًا لمثل هذا الانتهاك الفاضح لخصوصيات الآخرين من قبل. لكن دون أن أفكر حقًا في أبعاد ما أفعله، فتحت جهاز الماك بوك الذي يملكه وبدأت أتجول في صندوق بريده. مررت على رسائل عادية تراكمت عبر الشهور حتى تمكنت

من اكتشاف رسالة حديثة مرسلة من حبيبته السابقة. عنوانها «هل أحببته؟» فتحت الرسالة وقلبي ينبض بالغضب. أرسلت له صورةً لها وهي تقف بطريقة مغرية وشفتاها مضمومتان وتتباهى بتصفيفة شعرها الكستنائي الجديدة. لا يبدو أن ستيفن قد رد على الرسالة لكن مع ذلك قاومت رغبة ملحة للكم الشاشة أو رمي الجهاز. بدلًا من التوقف عند هذا الحد، تركت العنان لغضبي، وواصلت النبش بعمق حتى وصلت إلى الرسائل التي تتزامن مع مدة علاقتهما. معظم تلك الرسائل كانت تنتهي بكلمة واحدة: أحبك. لم نتبادل أنا وستيفن تلك الكلمات بعد. صفعت شاشة الماك بوك وأنا أغلي غضبًا رغم عدم قدرتي على تحديد السبب. أعرف أنه لم يتحدث معها منذ أن بدأنا المواعدة، ولم يرتكب أي ذنب. لكن الآن أشعر أنني مجبرة على البحث في كل مكان عن دلائل خيانة.

مشيت بأطراف أصابعي نحو خزانة ملابسه، ثم فجأة تجمدت في مكاني. ماذا لو أنه يضع كاميرا في مكان ما هنا؟ لا، من يصور ما يحدث في بيته سرًا بينما هو في الخارج ما عدا الآباء والأمهات المفرطين في القلق الذين يراقبون المربيات الجديدات؟ مع ذلك لم تفارقني الفكرة: ماذا لو كان يراقبني الآن؟ ماذا لو كان هذا اختبارًا؟ كنت مرعوبة بسبب هذا الارتياب الغريب. لكن في النهاية لم تمنعني هواجسي من فتح الخزانة والبحث بين ملابسه، قاذفة كل قطعة ثياب على الأرض بمجرد الانتهاء منها حتى وجدت الجائزة الكبرى! صندوقًا من الكرتون مزينًا بملصقات الفرقة الموسيقية التي هو عضو فيها وممتلئًا بمئات الرسائل والصور معظمها من حبيباته السابقات. كان هنالك شريط طويل من الصور الملتقطة في كشك تصوير مع آخر حبيبة سابقة له (من قرأت رسالتها منذ لحظات): زما شفتيهما، تبادلا نظرات شوق وحب، وضحكا، ثم تبادلا القبلات. يمكنني رؤية ذلك يحدث أمام عينيّ

بالتتابع ككراسة طي خاصة بطفل، لقد كنت أشهد وقوعهما في الحب حرفيًا. الصورة التالية التي عثرت عليها هي صورة لنفس الفتاة ترتدي حمالة صدر دانتيل شفافة بينما يداه فوق خصرها النحيل، وكان شعرها مصبوغًا باللون الأشقر. كانت تبدو جذابة من دون أن تبدو كعاهرة. تحت الصور، وجدت الرسائل وكومة بسُمك قبضة اليد من المذكرات المكتوبة بخط اليد تعود لأيام مراهقة ستيفن. وجدت رسالة تتحدث فيها الحبيبة السابقة نفسها بمشاعر جياشة عن اشتياقها له أثناء رحلة قامت بها إلى فرنسا. أخطأت استخدام كلمة «their» وكتبت كلمة «بالتأكيد» بشكل غير صحيح مما أسعدني لدرجة أني ضحكت بصوت عالٍ يشبه نقنقة الدجاجة.

ثم بينما أمد يدي لألتقط الرسالة التالية، لمحت انعكاس وجهي في مرآة الخزانة، لا أرتدي سوى حمالة صدر ولباس داخلي، أعبث برسائل حب ستيفن الخاصة المكومة في حِجري. شخص غريب حدق نحوي من هذا الانعكاس، كان شعري مبعثرًا ووجهي مشوشًا وغريبًا. لم أتصرف هكذا قط. ماذا أصابني؟ لم أبحث خلسة في حاجيات عشيق لي طوال حياتي. اندفعت نحو السرير وفتحت هاتفي المحمول: لقد أضعت ساعتين في هذا العبث، مرت كخمس دقائق. بعد لحظات عاودني الصداع النصفي مصحوبًا بشعور بالغثيان. في تلك اللحظة شعرتُ بشيء غريب في يدي اليسرى. حالة عنيفة من التنميل كوخز الإبرة. أغلقت يدي ثم فردتها. كررتُ ذلك محاولةَ التخلص من شعور التنميل هذا لكن زاد الأمر سوءًا مع مرور الوقت. أسرعت نحو الخزانة لأعيد أغراض ستيفن إلى مكانها كي لا يلاحظ فعلتي الشنيعة متجاهلة هذا التنميل غير المريح.

لكن سرعان ما فقدت الإحساس بيدي تمامًا.

(3)

كاروتا

رغم إن شعوري بالتنميل قد استمر لأيام دون انقطاع، إلا أنه لم يشغلني كما شغلني شعور الذنب والذهول الذي انتابني بسبب تصرفي الغريب في حجرة ستيفن صباح الأحد. في اليوم التالي في العمل، كُلِفت بمساعدة ماكينزي، وهي محررة صديقة يمنحني منظرها وشكلها العام انطباعًا أنها شخصية خارجة من عالم «Mad Men».[1]

«لقد فعلتُ شيئًا سيئًا حقًا». اعترفت لها خارج مبنى الأخبار ونحن نحتمي من الجو العاصف بإفريز. كنت أرتدي معطفَ شتاء ضيقًا. «لقد بحثت خلسة في أشياء ستيفن. وجدت صورًا لحبيبته السابقة. لقد فتشت كل أشيائه. كان الأمر كما لو أنني ممسوسة. لم أستطع التحكم في نفسي».

منحتني ابتسامة جانبية خبيثة، وهي تبعد خصلات شعرها عن كتفيها.

«هذا كل شيء؟ الأمر ليس سيئًا لهذه الدرجة».

«ماكينزي، كان تصرفًا جنونيًا. هل تعتقدين أن أدوية منع الحمل تتلاعب بهرموناتي؟ لقد بدأت مؤخرًا في استخدام اللاصقة».

عارضتني: «أوه، كفي عن القلق. كل النساء يفعلن ذلك، خاصةً في

1- مسلسل أمريكي مشهور تدور أحداثه في حقبة الستينيات.

نيويورك. نحن نملك روح التنافس. لا تلومي نفسك هكذا. فقط حاولِي ألا تفعلِي ذلك مرة أخرى».

لاحقًا ستعترف لي ماكينزي أنها لم تكن قلقة بخصوص مسألة التطفل على حاجيات ستيفن بل من ردة فعلي المبالغ فيها.

لمحت بول يدخن قريبًا منا فطرحت عليه السؤال نفسه. يمكنني أن أعتمد عليه كي يمنحني جوابًا صادقًا.

طمأنني مفسرًا: «لا، لستِ مجنونة. ويجب ألا تقلقي. كل رجل يحتفظ بصور أو أشياء تتعلق بحبيباته السابقات. فهي غنائم الحرب!».

يمكن الاعتماد دائمًا على بول للحصول على وجهة نظر الرجل بخصوص أمر ما لأنه ذكوري بكل ما تعنيه الكلمة: يأكل بشراهة (يعشق برجر الجبن مع لحم خنزير مقدد مع صوص اللحم)، ويعشق المقامرة (خسر مرة اثني عشر ألف دولار في دور واحد على طاولة بلاك جاك في مدينة أتلانتا)، ويحتفل بصخب شديد (زجاجة جوني ووكر بلو في حالة الفوز، وماكالان 12 إذا لم يفز).

حين عدت إلى مكتبي، لاحظت أن فقدان الإحساس في يدي اليسرى قد عاد من جديد - أو ربما لم يختفي من الأساس - وامتد ليشمل جانب جسمي الأيسر نزولًا حتى أصابع قدمي. كان الأمر محيرًا. لم أستطع أن أقرر هل يجب عليّ القلق أم لا، لذا اتصلت بستيفن.

«لا يمكنني شرح الأمر لكني أشعر بخدر في يدي». قلت وأنا أحنى رأسي بشكل موازٍ لسطح المكتب لأن سلك التليفون متشابك.

سألني: «شعور كوخز الإبرة؟». سمعت صوت نقره على أوتار غيتاره في خلفية حديثه.

أجبته: «ربما، لا أعرف. الأمر غريب. لم أشعر بذلك من قبل».

«هل تشعرين بالبرد؟»

«لا».

«حسنًا إذا لم يختفِ هذا الشعور فربما عليك أن تذهبي للطبيب».

رفعت حاجبي مستنكرة. هذا الكلام صادر عن رجل لم يذهب لأي طبيب منذ سنين. أحتاج إلى رأي شخص آخر. عندما أغلقت الخط مع ستيفن، أدرت مقعدي لأواجه أنجيلا.

سألتني: «هل عطست أو انزلقت بشكل غريب؟» لديها عمة عطست بقوة مؤخرًا فتسبب ذلك في انزلاق قرص إحدى فقرات عمودها الفقري فسبب لها خدرًا في يديها.

«أعتقد أن عليك الذهاب للطبيب ليفحصك».

تدخّلت صحفية تجلس على مكتب قريب في الحديث: «ربما أكون قد شاهدت الكثير من حلقات «التشخيص الغامض»[1] لكن هنالك الكثير من الأمراض المخيفة في هذا العالم».

ضحكتُ من قولها هذا لكن تراقصت نيران الشك في رأسي. رغم أن زملائي في العمل كانوا ملوكًا في المبالغة والتضخيم، إلا أن سماعي نبرة القلق في صوتها جعلني أعيد التفكير في موقفي المتساهل.

في ذلك اليوم، أثناء استراحة الغداء، قررت الاتصال بطبيب النساء ألي روثيستين، الذي صار بمرور الوقت صديقًا أكثر منه طبيبًا بالنسبة إليّ. كان

1- التشخيص الغامض (2005 - 2011): برنامج وثائقي تلفزيوني عرض على شبكة ديسكفري يتتبع حالات طبية غريبة في رحلتها بحثًا عن تشخيص.

طبيب والدتي أثناء حملها وولادتها لي. في معظم الوقت كان روثيستين هادئًا في كلامه. ما أزال شابة وبصحة جيدة لذا تعودت على تعليقه المتكرر «إن كل شيء طبيعي». لكن عندما وصفت له أعراضي، اختفى الدفء المعتاد من صوته.

«أود منك أن تذهبي إلى طبيب أعصاب في أسرع وقت. ويجب أن تتوقفي عن استخدام أدوية منع الحمل فورًا».

رتب لي موعدًا مع طبيب أعصاب مرموق بعد الظهر. دفعني القلق من ردة فعله إلى أن أوقف تاكسي وأتجه مباشرة للطبيب. شق التاكسي طريقه عبر زحام بعد الظهر المبكر قبل أن أنزل أمام مبنى راقٍ في الجانب الشرقي من المدينة حيث يحتشد رجال أمن في بهو المبنى الرخامي الضخم. أشار لي أحدهم إلى باب خشبي لا تعلوه أي لافتة. كان التعارض بين المدخل الذي تضيئه نجفة كريستال ضخمة والمكتب خافت الإضاءة الذي دخلته كبيرًا، كما لو أني قد عدت بالزمن للسبعينيات. ثمة ثلاثة كراسي غير متماثلة من التويد وأريكة لونها بني فاتح في بهو الانتظار. جلست على الأريكة وحاولت ألا أغوص في منتصفها الرخو. كان معلقًا على الحوائط في حجرة الانتظار عدد من اللوحات: رسمة بالحبر لرجل مهيب له لحية بيضاء طويلة يمسك أداة تشبه إبرة جراحية، ومشهد طبيعي للريف، ولوحة لمهرج البلاط الملكي. الديكور العشوائي جعلني أتساءل إن كان كل شيء بما فيه الأثاث قد أُبتيع من مزاد جراجات[1] أو سِرُق من مهملات ملقاة على الأرصفة. ثمة عدة لافتات بارزة معلقة على مكتب موظف الاستقبال:

1- مزاد الجراجات: مزاد غير رسمي يجمع فيه الشخص أغراضه المستعملة في جراجه ويقوم ببيعها لمن يرغب في ذلك.

رجاء لا تقف في البهو من أجل الحديث في الهاتف المحمول أو انتظار المرضى!!!!

يجب تسديد ثمن الاستشارة بالكامل قبل مقابلة الطبيب!!

قلت: «أنا هنا للقاء د. بايلي».

دفع موظف الاستقبال استمارة في اتجاهي من دون أي ابتسامة ودون أن ينظر نحوي حتى. «املئيها ثم انتظري».

جريت بقلمي فوق الاستمارة. لم يكن ملأ استمارة التاريخ المرضي بمثل هذه البساطة.

أي أدوية؟ لا.

حساسية؟ لا.

جراحة سابقة أو مرض سابق؟ هنا توقفت. منذ خمس سنوات جرى تشخيصي بالميلانوما[1] في أسفل ظهري. اُكتشف الورم في مرحلة مبكرة وتطلب ذلك تدخلًا جراحيًا بسيطًا.

لا علاج كيماوي أو أي شيء آخر. دونت ذلك بسرعة. رغم الفزع الذي أصابني حين شُخّصت حالتي بالسرطان حتى لو كان في مراحل مبكرة، فإني بقيت مُهملة لصحتي، البعض قد يصفني بانعدام المسئولية. كنت أبعد ما أكون عن هؤلاء المهووسين بصحتهم. عادة لا أذهب إلى مواعيد الطبيب الروتينية إلا بعد تلقي عدة مكالمات من أمي ترجوني أن أفعل ذلك، لذا كان أمرًا عظيمًا أن أحضر إلى هنا بمفردي ودون أن يحثني أي أحد على فعل ذلك.

1- الميلانوما: ورم خبيث يصيب الخلايا المنتجة للميلانين في الجلد. ويعتبر من أكثر الأورام شراسة لذا فإن التشخيص المبكر مهم جدًا.

كانت الصدمة التي أصابتني جراء قلق طبيب النساء غير المفهوم محطمة لأعصابي. كنت في حاجة إلى أجوبة.

كي أهدئ نفسي، ركزت نظري على أغرب وأكثر اللوحات ألوانًا في البهو: وجه بشري مشوهة وتجريدي. إطار الرسمة محدد بالأسود والتفاصيل مرسومة بألوان أولية: مقلتا عين حمراوان، عيون صفراء، ذقن زرقاء، أنف سوداء تشبه السهم. يعلو الوجه ابتسامة رفيعة جدًا، وتكاد لا توجد شفاه، وتعلو العينين نظرة مشوشة ومرتبكة. ستُحفر صورة تلك اللوحة في ذهني وستتجسد أمامي عدة مرات في الشهور التالية. التشوه غير البشري في الصورة هو ما كان يطمئنني أحيانًا، ويثير غضبي أحيانًا أخرى. وكنت أتذكرها فجأة أثناء أكثر الساعات بؤسًا. اكتشفت فيما بعد أنها لوحة لميرو[1] تعود لعام 1978م اسمها كاروتا، أي جزرة بالإيطالية.

«كهاااالان».

1- خوان ميرو: رسام ونحات أسباني. من رواد مدرسة الرسم التجريدي.

صاحت الممرضة بصوت أقرب للنهيق مخطئة في هجاء اسمي. كان خطئًا شائعًا أتغاضى عنه. نهضت من مكاني وخطوت للأمام بينما تقودني الممرضة إلى حجرة الفحص الخالية، ثم ناولتني لباسًا طبيًا أخضر من القطن كي ألبسه. بعد عدة دقائق، تردد صوت رجل جهوري من خلف باب الحجرة: «هل بإمكاني الدخول؟»

كان السيد سول بايلي رجلًا كهلًا يذكرني بجدي. قدّم نفسه إلي، وهو يمد يده اليسرى الناعمة القوية. حين عانقت يده يدي الصغيرة، شعرت بسمكها الواضح. تحدث بسرعة: «إذا أنت مريضة ألي»، ثم تابع «أخبريني ماذا يحدث معك؟»

«لا أعرف حقًا. لدي هذا الخدر الغريب». هززت يدي اليسرى ليراها. «وفي قدمي أيضًا».

قال وهو يقرأ الاستمارة التي ملأتها: «همممم.. جرى تشخيصك بمرض اللايم؟».

«لا».

هنالك شيء ما في سلوكه يجعلني أريد أن أطمئنه قائلة: «انس الأمر، أنا على ما يرام». بطريقة ما أثارت رؤيته فيّ رغبة في ألا أكون عبئًا عليه.

أومأ قائلًا: «حسنًا إذًا. دعينا نلقي نظرة».

أجرى فحصًا عصبيًا روتينيًا. سيكون الأول من مئات الفحوص التي سأخضع لها. اختبر ردود أفعالي العصبية بمطرقة صغيرة، واستجابة عيني للضوء، وقيّم قوة عضلاتي عن طريق الضغط بيديه على ذراعيّ المفرودتين، وتأكد من تناسق حركاتي العضلية بأن طلب مني أن أغمض عينيّ ثم ألمس بأصابعي أنفي. ثم دون على الورق: «نتائج الاختبار طبيعية».

«أود منك أن تعطي عينة دم لنقوم باختبارات روتينية، وأود أن تجري رنينًا مغناطيسيًا. لا أرى أي شيء غير طبيعي لكن أود منك فعل ذلك للاحتياط فقط».

في الظروف العادية كنت سأؤجل الرنين ليوم آخر لكن اليوم قررت أن أجريه. حياني تقني شاب طويل ورفيع في أوائل الثلاثينيات في حجرة الانتظار في المعمل وأرشدني إلى منطقة تبديل الثياب. قادني إلى حجرة مغلقة، وقدم لي لباسًا طبيًا وهو يطلب مني التجرد من كل ملابسي والمجوهرات خشية أن تعوق عمل جهاز الرنين. بعد أن تركني بمفردي، خلعت ثيابي وطويتها ثم نزعت خاتمي الذهبي ووضعته في صندوق أمانات. هذا الخاتم كان هدية من زوج أمي بمناسبة تخرجي - كان ذهب عيار 14 بفص من حجر الهيامتيت الأسود على شكل عين قطة، تؤمن بعض الثقافات أنه يبعد الأرواح الشريرة. انتظرني التقني خارج المنطقة المخصصة للتبديل. ابتسم لي ثم أرشدني إلى حجرة الرنين حيث أعانني على الاستلقاء فوق لوح معدني، وثبت خوذة حول رأسي ثم غطى ساقيّ العاريتين بملاءة، ثم غادر الحجرة ليتابع إجراء الأشعة من حجرة مستقلة. بعد مرور نصف ساعة من تحمل طنين الجهاز المتكرر، سمعت صوت التقني قادمًا من بعيد: «عمل ممتاز، لقد انتهينا».

سحب اللوح خارج الآلة. خلعت الخوذة، وأزحت الملاءة ونهضت شاعرة بعدم الراحة في لباس المستشفى الذي يكشف الكثير من جسدي.

ابتسم التقني ابتسامة عريضة وهو يستند بجسده على الحائط.

«إذًا ماذا تعملين؟»

قلت: «أنا صحفية».

«أوه حقًا. في أي جريدة؟»

«ذا نيويورك بوست».

«حقًا! لم أقابل صحفيًا من قبل في حياتي». قال بينما نسير عائدين إلى حجرة تبديل الملابس. لم أرد عليه. ارتديت ثيابي بسرعة ثم هرولت نحو المصعد لأتجنب أي محادثة أخرى مع التقني الذي شعرت أنه يحاول مغازلتي بطريقة غريبة. رغم أن الرنين قد يكون تجربة غير سارة، إلا أنها تجربة عادية ومملة إلى حد بعيد. لكن شيء ما بشأنه، خاصة المحادثة البريئة مع التقني ظل معي لمدة طويلة، تمامًا مثل لوحة «الكاروتا». بمرور الوقت حوّر عقلي المضطرب مغازلة التقني البريئة لي إلى شعور حقد وكراهية غريبين.

مرت ساعة كاملة قبل أن أحاول برم خاتمي في يدي اليسرى التي ما أزال أشعر بالخدر فيها. حينها أدركت المصيبة الحقيقية في هذا اليوم الغريب. لقد نسيت الخاتم في صندوق الأمانات.

***

سألتُ أنجيلا في العمل في اليوم التالي: «هل هو أمر خطير إن كنت ما أزال أشعر بتنميل في يدي؟ أشعر بخدر شديد، لا أشعر أني على ما يرام».

«هل تعتقدين أنك مصابة بالإنفلونزا؟»

«أشعر بالتعب. أعتقد أني مصابة بالحمى». قلت وأنا أحدق في إصبع يدي اليسرى الخالي من الخاتم. انتابني شعور بالغثيان يماثل قلقي بخصوص الخاتم. كان غياب الخاتم يشغلني تمامًا لكن لم أجرؤ على الاتصال بالمعمل من المكتب وسماع أنه قد ضاع. بدلًا من ذلك، قررت التعلق بذلك الأمل الواهن أنني سأجده حين أذهب إلى المعمل لاحقًا. من الأفضل ألا تعرفي،

أقنعت نفسي. أدركت أنني مريضة جدًا ولن أستطيع الذهاب هذه الليلة لمشاهدة فرقة ستيفن «ذا مورج» وهي تعزف في بار في جرين بوينت في بروكلين، مما ضاعف شعوري بالسوء.

قالت أنجيلا وهي تنظر إلي: «لا تبدين بحالة جيدة. لماذا لا أسير معك إلى البيت؟»

في الظروف العادية، كنت سأرفض عرضها خاصةً أن موعد تسليم المقالات هو مساء الجمعة مما يعني أننا مجبرتان على البقاء في المكتب حتى العاشرة مساءً أو ربما بعد ذلك لننهي عملنا، لكن شعوري بالغثيان والمرض والغضب من نفسي، كل هذا جعلني أسمح لها بمرافقتي. الرحلة من الصحيفة إلى البيت، التي تستغرق عادة خمس دقائق، استغرقت اليوم نصف ساعة لأني كنت أضطر للتوقف بين الخطوة والأخرى لألتقط أنفاسي من الإجهاد. عندما وصلنا إلى شقتي، أصرت أنجيلا أن أتصل بالطبيب لأحصل على بعض الإجابات.

قالت: «ما تمرين به ليس طبيعيًا. أنت مريضة منذ مدة طويلة».

اتصلت بالخط الساخن وسرعان ما تلقيت مكالمة من طبيب النساء د. روثيستين.

«أود أن أخبرك ببعض الأخبار السارة. نتيجة أشعة الرنين الذي أجريته بالأمس طبيعية. لقد استبعدنا احتمالية إصابتك بسكتة دماغية أو جلطة. الشيئان اللذان كنت قلقًا منهما بسبب أدوية منع الحمل».

«هذا عظيم».

«نعم لكن أريدك أن تستمري في الامتناع عن تناول أدوية منع الحمل كاحتياط». ثم تابع: «الشيء الوحيد الذي أظهره الرنين هو تضخم في

عدد من الغدد الليمفاوية في رقبتك، مما يدفعني للاعتقاد بأنه فيروس. ربما التهاب عديد الوحيدات «mononucleosis»[1]، لكن ننتظر نتائج تحاليل الدم لتأكيد التشخيص».

كدت أضحك بصوت مرتفع. أصاب بالمونو في العشرينيات من عمري! حين أغلقت الخط، وجدت أنجيلا تنظر إليّ بترقب.

«مونو يا أنجيلا، مونو».

زال التوتر من وجهها قبل أن تضحك: «هل تمزحين؟ أنت مصابة بداء التقبيل. كم تبلغين من العمر، ثلاثة عشر؟»

---

1 - التهاب عديد الوحيدات «المونو»: التهاب فيروسي يسببه فيروس إيبشتاين بار يصاحبه حمى وتعب عام. غالبًا ما يُشفى منه بشكل تلقائي. يصيب غالبًا الأطفال والمراهقين. ويسمى بداء التقبيل لأنه ينتقل عبر اللعاب.

(4)

المصارع

مونو. شعرت بارتياح لامتلاكي كلمة للحالة التي أصابتني. قضيت ليلة السبت في الفراش وحيدةً أتحسر على قلقي المبالغ فيه، لكن في الليلة التالية لملمت شتات قوتي لأرافق ستيفن وأخته الكبرى شيلا وزوجها روي لحضور عرض لريان أدمز[1] في مونت كلير. التقينا قبل العرض في حانة إيرلندية حيث جلسنا في المنطقة المخصصة للأكل أسفل نجفة عتيقة تتدلى على ارتفاع قريب من رؤوسنا، وينبعث منها ضوء خافت. طلبت سمكًا ورقائق البطاطس ومع ذلك لم أستطع تحمل شكل الطبق عند تقديمه. تبادل ستيفن وشيلا وروي الحديث بينما كنت أجلس صامتة. كنت قد قابلت روي وشيلا مرات قليلة من قبل وكرهت أن أتخيل نوع الانطباع الذي أتركه عندهما، لكن لم أستطع دفع نفسي للانضمام إلى المحادثة. لا بد أنهما يفكران أنني لا أملك شخصية، فكرت. عندما أتى السمك ورقائق البطاطس، ندمت فورًا على طلبي ذلك. كان سمك القد المشوي في طبقة سميكة من الدقيق يلمع. تلألأ الدهن تحت ضوء النجفة الخافت. كانت رقائق البطاطس المقلية غارقة في الزيت. حرّكت الطعام في الطبق بالشوكة أملًا ألا يلاحظ أحد أنني لا آكل فعلًا.

---

1 - ريان أدمز: مغني وكاتب أغاني وعازف غيتار أمريكي.

وصلنا إلى العرض مبكرين ومع هذا كانت القاعة الموسيقية مزدحمة بالفعل. أراد ستيفن أن يكون قريبًا من المسرح لذا شق طريقه عبر الزحام. حاولت أن أتبعه لكنني بينما أتجاوز حشدًا من الرجال في الثلاثينيات من عمرهم، نما داخلي شعور بالغثيان والدوار. صحت كي يسمعني: «لن أستطيع فعل ذلك!» استسلم ستيفن عن محاولته الاقتراب من المسرح وانضم إليّ في الخلفية حيث وقفت مستندة إلى عمود لأحافظ على توازني. شعرت فجأة أن حقيبة يدي ثقيلة كما لو كانت تزن أربعين رطلاً، صارعت كي أوازنها على كتفي لأنه لم يكن هنالك مساحة كافية حولي لأنزلها على الأرض. علا صوت الموسيقى في الخلفية. أحب ريان أدمز وحاولت الاستمتاع والتصفيق لكن لم أستطع سوى التصفيق بوهن. تركز بصري على وردتين زرقاوين من النيلون طول الواحدة خمسة أقدام مثبتة خلف الفرقة على المسرح. شعرت بحماسة الجمهور. أشعل رجل على يساري لفافة ماريجوانا. جعلتني رائحة الدخان أشعر بالاختناق. لفحت رقبتي الأنفاس الحارة لرجل وامرأة يقفان خلفي. لم أستطع التركيز في الموسيقى. كان العرض جحيمًا. بعد انتهائه، ركبنا سيارة شيلا لتوصلنا إلى شقة ستيفن في مدينة جيرسي. تحدث الثلاثة عن مدى روعة أداء الفرقة، لكنني التزمت بالصمت. تفاجأ ستيفن من خجلي الغريب فلم أكن شخصًا يحتفظ بآرائه لنفسه أبدًا.

«ألم تحبي العرض؟» دفعني ستيفن بكتفه في رفق وهو يمد يده نحو يدي.

أجبت «لا أتذكر العرض حقًا».

***

بعد تلك العطلة، أخذت إجازة لثلاثة أيام. ثلاثة أيام تعتبر إجازة طويلة لأي عامل في الصحيفة، وخاصة لصحفية جديدة مثلي. حتى حين اضطررت

إلى العمل حتى ساعة تتجاوز الرابعة صباحًا من أجل تغطية قصص الملاهي الليلية في حي ميت باكينج، كنت أحضر إلى الجريدة بعد ساعات قليلة في اليوم التالي في وقت الدوام الصباحي. لم آخذ إجازة مرضية قط. قررت أخيرًا أن أطلع أمي على تشخيصي لأنها كانت قلقة حين أخبرتها بالخدر الذي شعرت به خاصة حين علمت أنه في جانب واحد فقط من جسمي. طمأنتها أن السبب في ذلك هو المونو. حين أخبرت والدي عبر الهاتف، بدا أقل قلقًا منها. لكن في ثالث أيام إجازتي، أصر أن أزوره في مانهاتن. تقابلنا في قاعة سينما شبه خالية في ميدان التايمز تقدم عرضًا لفيلم «The Wrestler» المصارع.

«حاولت كثيرًا أن أنساكِ». قال راندي لابنته، راندي مصارع محترف يحاول استعادة أمجاده بعد أن بات مغمورًا، ويؤدي دوره الممثل الذي أنهكه الزمن ميكي رورك. «حاولت أن أتظاهر بأنك غير موجودة لكني فشلت في ذلك. أنت فتاتي الصغيرة. والآن أنا مجرد قطعة لحم منهكة وعجوز... أنا وحيد. وأستحق أن أكون وحيدًا. كل ما أريده منك ألا تكرهينني».

انسابت دموع ساخنة ورطبة على خديّ. شعرت بالارتباك فحاولت التحكم في ذلك الثقل المتنامي داخل صدري لكن جعلني ذلك أشعر بسوء أكبر. دون أن أخبر أبي، هرولت من مقعدي إلى حمام السينما، حيث اختبئت في كابينة مغلقة وتركت العنان لدموعي حتى اختفى ذلك الشعور. بعد لحظة استعدت تماسكي وغادرت الكابينة لأغسل يديّ ووجهي متجاهلة نظرات القلق في عيون امرأة شقراء في منتصف العمر تقف أمام أحد الأحواض القريبة. عندما غادرت، نظرت لانعكاسي في المرآة. هل أثّر ميكي رورك فيّ حقًا؟ أم أنها مسألة العلاقة بين الأب والابنة؟ كان والدي أبعد ما يكون عن

الحنان وكان يتجنب استخدام عبارات مثل «أحبكِ» حتى مع أبنائه. كانت سمة مكتسبة فيه. المرة الوحيدة التي قبّل فيها والده عندما كان جدي على فراش الموت. والآن يقتطع جزءًا من جدول عمله المشغول ليجلس معي في قاعة سينما فارغة. لذا أجل، أربكني الأمر.

تمتمت لنفسي: تماسكي.. أنت تتصرفين بحماقة.

عدت إلى والدي الذي لم يبدُ أنه قد لاحظ انفجار عواطفي هذا. جلست أتابع الجزء المتبقي من الفيلم دون أي انهيار عاطفي أخر. بعد تتر النهاية، أصرّ والدي أن يتمشى معي حتى شقتي. عرض علي أن يتفقدها بعد أن أخبرته بمسألة بق الفراش، لكن كان من الواضح أنه قلق بشأن صحتي وأراد أن يقضي المزيد من الوقت معي.

«إذًا يقولون إنك مصابة بالمونو، ها؟»

على عكس والدتي التي تدقق بشدة في قائمة مجلة نيويورك لأفضل الأطباء، فإن والدي لا يثق في الأطباء تمامًا. أومأت وأنا أهز كتفي. حين اقتربنا من شقتي، بدأ ذلك الخوف الذي لا يمكنني تفسيره - والذي صار مألوفًا إلي بشدة - ينمو بداخلي. أدركت فجأة أنني لا أرغب في دخوله شقتي. مثل معظم الآباء، وبخني أبي حين كنت مراهقة على سماحي لحجرتي أن تصبح فوضوية وقذرة لذا كنت معتادة على ذلك. لكن اليوم شعرت بخجل كما لو أن غرفتي صارت مجازًا لفوضى حياتي ككل. أرعبتني فكرة اطلاعه على طريقة عيشي.

قال بينما أفتح باب الشقة: «ما هذه الرائحة اللعينة؟».

اللعنة! التقطت كيس القمامة من خلف الباب.

«لقد نسيت التخلص من القمامة».

«سوزانا، عليك أن تنظمي حياتك. لا يمكن أن تستمري في العيش هكذا. أنت شخص بالغ».

وقف كلانا عند المدخل ننظر إلى داخل الشقة. كان محقًا. كان المنظر مثيرًا للاشمئزاز. الثياب المتسخة مبعثرة على الأرض، وسلة المهملات ممتلئة عن آخرها. أكياس القمامة السوداء التي جمعتها خلال مدة رعبي من البق وقبل حضور عامل التطهير لرش البيت منذ ثلاثة أسابيع ما تزال تملأ الحجرة.

لم أعثر على أي بق في الشقة، ولم أتعرض لأي عضة جديدة. اقتنعت أن مسألة البق قد انتهت. وجزء صغير بداخلي بدأ يتساءل إذا كان ثمة بق من البداية على الإطلاق.

(5)

ورود باردة

عدت إلى العمل في اليوم التالي. كان يوم خميس مما منحني الفرصة لأنتهي من مقالة وأبدأ بمقالتين جديدتين. رفض ستيف نشر الاثنتين.

كتب ستيف تعليقًا على مقالاتي الجديدة: «رجاءً ابحثي في ليكسز نيكسز[1] أولًا». التشكيك في الذات جزء من العمل، قلت لنفسي. يعيش الصحفيون في حالة دائمة من الشك في قدراتهم: أحيانًا نمر بأسابيع مأساوية حيث لا يمكننا العثور على قصص أو لا نعثر على مصادر للأخبار، وفي أسابيع أخرى نعثر على قصص ممتازة تصيب في مقتل، وننجح في إنجاز حتى الأعمال التي تبدو مستحيلة. هنالك أوقات تشعر أنك الأفضل في مجال عملك، وأوقات أخرى تشعر أنك صحفي فاشل تمامًا ولا فائدة ترجى منك وأن عليك البدء في البحث عن عمل مكتبي. لكن في النهاية تتعادل الانتصارات والهزائم. إذًا لماذا بات كل شيء هزيمة بالنسبة إليّ؟ لقد مرت أسابيع منذ آخر مرة شعرت بالارتياح في عملي الصحفي وكان هذا يرعبني.

دفعني غضبي من أدائي المهزوز والرديء أن أطلب أذنًا بالمغادرة مبكرًا ثانية، راجية أن يكون السبب في كل ذلك هو المونو. ربما ليلة من النوم الجيد ستساعدني على العودة إلى حالتي الطبيعية.

1- ليكسز نيكسز: محرك بحث أكاديمي متخصص في الأخبار والقانون والأعمال.

تلك الليلة تقلبت في الفراش، تملأني الهواجس حول حياتي. عندما رن منبه الهاتف في الصباح التالي، أوقفته وقررت أن آخذ إجازة مرضية ثانية. بعد ساعات قليلة من النوم الإضافي، استيقظت شاعرة بالراحة والهدوء، كما لو أن أمر المونو برمته قد بات كابوسًا وراء ظهري.

كانت عطلة الأسبوع تلوح في الأفق. هاتفت ستيفن:

«سنذهب إلى فيرمنت». كان تقريرًا للواقع أكثر منه سؤالًا. منذ عدة أسابيع خططنا للذهاب إلى فيرمنت والبقاء في بيت أخي غير الشقيق. لكن تأجلت الرحلة لأجل غير مسمى بسبب مرضي. لكن يبدو أن ستيفن أحس أنني لم أعد بعد إلى حالتي الطبيعية وقدم الأعذار كي لا نتعجل القيام بتلك الرحلة حين وردت مكالمة عبر الخط الآخر للهاتف المحمول. كان د. روثيستين.

قال لي: «أتت نتائج تحاليل الدم. لست مصابة بالمونو. كيف تشعرين الآن؟»

«أفضل بكثير».

«حسنًا إذًا، لا بد أنه كان فيروسًا عاديًا والآن قد تخلص منه جسمك».

شعرت بالانتعاش والنشاط فعاودت الاتصال بستيفن، وأصررت أن نحزم أمتعتنا ونسافر في هذه العطلة. رضخ أخيرًا. استعرنا سيارة أمي السوبارو وقدناها لمدة أربع ساعات في اتجاه الشمال نحو أرلينغتون في فيرمنت. كانت عطلة نهاية أسبوع مثالية. في نهار السبت والأحد ذهبنا إلى مطعم محلي غريب الديكور اسمه «Up For Breakfast»، وتسوقنا من المجمعات التجارية وتزلجنا على الجليد أو - لأكون صادقة - تزحلق ستيفن على لوح التزلج بينما كنت أقرأ «الآمال العظيمة» في غرفة الفندق.

هبت عاصفة ثلجية يوم الأحد فاضطررنا بسعادة أن نقضي يومًا آخر وهو ما يعني مزيدًا من الراحة من العمل. أخيرًا، رضخت لطلبه أن أتزلج معه حيث قادني ستيفن إلى قمة جبل صغير. لقد جربت التزلج مرات قليلة ولم أجد صعوبة في التزحلق على المرتفعات المتوسطة الانحدار لكني لست خبيرة على الإطلاق. هذه المرة كان الأمر مختلفًا، ارتطمت الرياح في وجهي وأحرق الثلج خديّ وبدا لي الجبل فجأة أكثر انحدارًا مما تخيلته. يمتد أسفل مني، شاهقًا ضيقًا خطيرًا. شعرت بعدم قدرتي على فعل ذلك وأصابتني نوبة ذعر، مثل الخوف الشديد من الطيران الذي قرأت عنه ولم أمر به من قبل.

«جاهزة؟»

أتى صوت ستيفن من بعيد عبر الرياح العاصفة. أكاد أسمع نبضات قلبي في أذنيّ بينما تخطر في بالي أفظع السيناريوهات: ماذا لو لم أنجح في الوصول إلى أسفل؟ ماذا لو تركني ستيفن هنا؟ ماذا لو لم يعثروا على جثتي أبدًا إذا مت؟

هتفت: «لن أستطيع فعل ذلك. لا أريد. رجاء لا تجبرني على فعل ذلك».

«هيا!» قال قبل أن يتخلى عن نبرته المرحة حين لاحظ توتري. «لا بأس. أعدك أنك ستكونين بخير. سنهبط ببطء».

قدت الزلاجة بتوتر هابطة الجبل بينما يتبعني ستيفن. في منتصف المسافة، زدت السرعة شاعرة بالحماقة بسبب الرعب الذي انتابني منذ لحظات قليلة. بعد دقائق من وصولنا بأمان إلى الأسفل، أدركت أن رعبي يتجاوز بكثير مجرد الخوف من المرتفعات. لكن لم أصارح ستيفن بذلك.

في ليلة الاثنين في بيت أمي في نيوجيرسي، واجهت أيضًا صعوبة في النوم ليس بسبب التوتر بل بسبب النوستالجيا. تفقدت ثيابي القديمة واكتشفت أن بإمكاني ارتداء البنطال الذي كان لا يكاد يصل إلى نصف فخذيّ منذ السنة

الثانية في الثانوية. فكرت بابتهاج: لا بد أنني أفعل شيئًا صحيحًا فقد تمكنت من فقدان بعض الوزن.

سأعلم فيما بعد أن مرضي يمر بمراحل أشبه بالمد والجزر، القمة والقاع، مما يجعل المريض يشعر في فترات خمول المرض أن الأسوأ قد مضى، حتى وإن كان تراجع المرض وقتيًا فقط قبل أن يعاود اللكم من جديد.

(6)

أكثر المطلوبين في أمريكا[1]

رن هاتف المكتب في صباح الثلاثاء أثناء وجودي في العمل. كان ستيف. بدا أنه سامحني على غيابي المتكرر عن العمل في المدة الأخيرة وفشلي في إنجاز أي قصة مؤخرًا أو على الأقل قرر منحي فرصة أخرى.

«أريدك أن تجري مقابلة صحفية مع جون والاش في صباح الغد عندما يأتي إلى مبنى الأخبار من أجل حوار تلفزيوني في قناة فوكس الإخبارية. إنه يعمل على حلقة جديدة حول الغواصات التي تهرّب المخدرات. أعتقد أنها قد تكون قصة رئيسية ممتعة».

«بكل تأكيد». قلت متظاهرة بالحماس الذي كان يأتيني فيما مضى تلقائيًا. كان الأمر مثيرًا حقًا أن تجري حوارًا مع مقدم «أكثر المطلوبين في أمريكا»، لكني لم أستطع التركيز في أي شيء. كان أول شيء أحتاج إليه هو البحث في الأرشيف، لذا اتصلت بأمينة الأرشيف ليز. هي باحثة صحفية في النهار، وكاهنة ويكا[2] في الليل. لسبب لا أعرفه، لم أطلب منها البحث في الأرشيف

---

1 - أكثر المطلوبين في أمريكا (1988 - 2011): برنامج تلفزيوني أمريكي كان يعرض على قناة فوكس. يهتم بالجرائم التي تحدث ضجة كبيرة والتي لم يُقبض على مرتكبيها بعد. ساهم البرنامج فعلًا في القبض على عدد من المجرمين. ويعد أطول برنامج تلفزيوني في أمريكا حيث استمر لـ 25 موسمًا قبل أن يُوقف عرضه. كان يقدمه المذيع المخضرم والمحقق الجنائي جون والاش.

2 - الويكا: ديانة حديثة أعلن نشأتها جولد غاردنر عام 1954 وهي تعتمد على ممارسة طقوس=

بل طلبت جلسة قراءة التاروت!

قالت بتكاسل: «فلتأتي إلي».

تمارس ليز فنون السحر الحديث باستخدام الشموع والتعاويذ والوصفات. عُينت مؤخرًا كاهنة عليا من الدرجة الثالثة مما يعني أن بإمكانها تعليم فنون السحر للمنضمين الجدد للويكا. كانت ترتدي عقدًا مليئًا بالنجوم الخماسية وملابس فضفاضة تشبه أسلوب ستيفي نيكس[1] وتضع قبعة سوداء في هذا الشتاء القارس البرودة. تفوح منها رائحة البخور وعطر البتشول، ولها عينا جرو متوسلتان يمكن الوثوق بهما بسرعة. كان هنالك شيء جذاب في حيويتها الدائمة، ورغم شكوكي الفطرية بشأن أعمال السحر التي تقوم بها والدين الذي تعتنقه بصفة عامة، شعرت في تلك اللحظة برغبة دفينة في أن أومن بما تفعله.

قلت: «أحتاج إلى مساعدتك. لا تسير الأمور في حياتي على ما يرام. هلا قمت بقراءة طالعي؟»

«همم» قالت وهي تفرد أمامها مجموعة من أوراق التاروت. «همممم...» أطالت نطق كل حرف. «أنا أرى أشياء جيدة. سيشهد عملك تغيرًا ملموسًا... أمرًا مستقلًا بعيدًا عن ذا بوست. ماليًا، أرى أشياء جيدة في انتظارك».

سرت الطمأنينة في جسدي بينما أركز في كلماتها. كنت في حاجة ماسة إلى شخص يقول لي أن كل شيء سيكون على ما يرام، أن تلك الأزمات التي أمر بها هي مجرد نقطة ضوء شاذة ستختفي من رادار حياتي. منطقيًا، لم تكن ليز

= أشبه بالسحر. وهي تحاول الرجوع لطقوس الديانات الوثنية قبل ظهور المسيحية.

1- ستيفي نيكس: مغنية أمريكية.

هي الشخص الصحيح الذي يُفترض أن ألجأ إليه بحثًا عن الاطمئنان.

أضافت ليز: «أوه، أشعر أنني خفيفة، كأني طافية في الهواء».

قلت: «أجل، وأنا كذلك».

عندما عدت إلى المكتب، وجدت الاكتئاب يعلو وجه أنجيلا. لقد مات صحفي في الجريدة، زميل لنا، رجل مفعم بالنشاط والحركة كان يغطي كل الأحداث العاجلة من أجل الصحيفة، بسبب الميلانوما. كان الزملاء يتداولون رسالة عبر حجرة الأخبار تحدد ترتيبات الجنازة التي ستعقد يوم الجمعة. كان في الثالثة والخمسين فقط. جعلني ذلك أفكر في تشخيصي السابق بالميلانوما طوال اليوم. رغم أنه كان علي البحث عن جون والاش، إلا أنني لم أستطع إقصاء الأخبار الحزينة من عقلي.

في الصباح التالي، بعد ليلة مؤرقة، استغليت اللحظات القليلة المتاحة كي أحضّر نفسي للمقابلة في البحث من خلال جوجل عن معدلات الانتكاسة في حالات الميلانوما بعد إزالة الورم جراحيًا. كنت غير جاهزة تمامًا للمقابلة عندما دقت الساعة 9:50 صباحًا مع ذلك توجهت لمقابلة والاش في مكتب فارغ في ردهة مبنى الأخبار، متمنية أن أستطيع مجاراته في الحوار. بينما كنت أجتاز الردهة، مررت على صفحات ذا بوست الرئيسية الأشهر المعلقة في أطر على الحائط. كانت العناوين تنكمش وتتمدد بغرابة أمام عينيّ.

لقد خانني بيل![1]

انفجار سفينة فضاء في الهواء، مات طاقم السفينة السبعة كلهم![2]

1- العنوان على لسان هيلاري كلينتون ويشير لفضيحة بيل كلينتون الجنسية مع مونيكا لوينسكي. (المترجم).

2- الخبر عن انفجار سفينة الفضاء تشالنجر في يناير 1986 بعد 73 ثانية من إقلاعها وموت طاقمها بالكامل. (المترجم)

ديانا ماتت!

الكينك وأنا![1]

كانت الصفحات تتنفس، تشهق وتزفر من حولي. ضاق مجال بصري كما لو كنت أنظر من خلال عدسة كاميرا. اهتز ضوء الفلوريسنت وضاقت الحوائط بشكل خانق من حولي. بينما انكمشت الحوائط، ارتفع السقف إلى أعلى نحو السماء، حتى شعرت أنني داخل كاتدرائية. وضعت يدي على صدري لأتحسس ضربات قلبي المتسارعة وقلت لنفسي أن أتنفس. لم أكن خائفة. كان الأمر مثل شعور الاندفاع العقيم من نافذة في الطابق المائة لناطحة سحاب عالمًا أنك لن ترتطم بالأرض أبدًا. وصلت أخيرًا للمكتب حيث كان والاش ينتظرني. كان ما يزال يضع المكياج من مقابلته السابقة في قناة فوكس الإخبارية وقد ذابت المساحيق قليلًا تحت أضواء الاستديو.

«مرحبا، جون، اسمي سوزانا كهالان. أنا صحفية من ذا بوست».

بمجرد أن وقعت عيناي عليه، بدأت أتساءل بغرابة إذا كان والاش يفكر في هذه اللحظة في ابنه المقتول، آدم الذي أُختطف من مجمع تجاري في عام 1981م ثم عثر عليه مقطوع الرأس بعد عام من ذلك. وجدت عقلي يفكر في هذا الموضوع المروع بينما أرسم ابتسامة متملقة وأنا أقف أمامه وأمام وكيل أعماله.

قال الوكيل قاطعًا سلسلة أفكاري: «مرحبًا».

1- يشير الخبر للفضيحة الصحفية الكبيرة للصحفي بيتر برونسيتين في عام 2005 حيث أُتّهم بإغراء صحفيات وإجبارهن على القيام بتصرفات جنسية غريبة (تعرف مثل هذه التصرفات في اللهجة الدارجة الأمريكية Kink). (المترجم)

«أوه، مرحبًا! أجل. اسمي سوزانا كهالان. أنا الصحفية. صحفية ذا بوست التي ستجري الحوار حول القصة. كما تعرف عن تهريب المخدرات. تهريب المخدرات عبر...»

قاطعني والاش هنا: «غواصات تهريب المخدرات، أجل».

قال الوكيل بنبرة انزعاج واضحة في صوته: «ليس لدى جون سوى خمس دقائق فقط، لذا من الأفضل أن تبدأي الحوار».

بدأ والاش: «يبني العديد من مهربي المخدرات في أمريكا الجنوبية غواصاتهم بأنفسهم. في الحقيقة ليست غواصات بالمعنى الحقيقي بل مجرد مراكب غاطسة تبدو كالغواصات».

دونتُ ما يقول. مهربون. أمريكا الجنوبية. كولومبيون. (كذا وكذا)، مراكب، يجب أن نوقف المراكب.

لم أستطع أن ألاحق إيقاعه السريع لذا اكتفيت بتدوين كلمات متفرقة لأبدو كأني منتبهة لما يقول.

«شديد المكر!». قلت وأنا أضحك بهستيريا على عبارة قالها، رغم أني لم أعرف وقتها ولا أستطيع أن أعرف حتى الآن الشيء الذي بدا مضحكًا للغاية فيما قاله. رمقني الوكيل بنظرة مبهمة قبل أن يعلن:

«آسف على مقاطعة الحوار لكن يجب على جون الرحيل الآن».

«سأرافقكما للخارج». قلت بحماسة مصطنعة وأنا أقودهما نحو المصاعد. لكن أثناء سيري، لم أستطع المحافظة على توازني، ووجدتني أرتطم بجدران الردهة بين حين وآخر، حتى وصلنا أمام الباب. مددت يدي لأفتحه لهما لكنني أخطأت المقبض بمسافة قدم كامل.

«شكرًا على الحوار. شكرًا. أنا معجبة كبيرة بك. معجبة كبيرة». وجدت نفسي أقول بحماسة شديدة بينما ننتظر قدوم المصعد. ابتسم والاش بلطف، ربما هو معتاد على فيض المشاعر الغريبة الأطوار تلك لكن كان ذلك بعيدًا تمامًا عن أسلوبي الطبيعي في الحوار.

قال: «كان شرفًا لي».

لكن ما زلت لا أعرف - وربما لن أعرف أبدًا - ماذا ظن جون والاش بصحفية ذا بوست الغريبة الأطوار، خاصة وأن الحوار لم يُنشر قط.

كان ذلك هو آخر حوار أجريه لمدة سبعة شهور.

(7)

على الطريق من جديد

مكتبة
t.me/t_pdf

لا أتذكر كيف عدت إلى البيت بعد الحوار، أو كيف عشتُ الساعات التي تلت تلك الكارثة المهنية الجديدة، لكن بعد ليلة أخرى من الأرق - لقد مر أسبوع الآن منذ آخر مرة نمت فيها دون انقطاع - توجهت إلى المكتب. كان صباحًا بديعًا من أوائل مارس، الشمس مشرقة، وتقترب درجة الحرارة من الثلاثين. أجتاز ميدان التايمز مرتين كل يوم في الستة شهور الفائتة، لكن اليوم بمجرد مروري بالقرب من صف لافتات الإعلانات، وجدت نفسي منجذبة لألوانها الصاخبة. حاولت أن أبعد عينيّ عنها، أن أحمي عيني من الموجات الصادمة لانعكاساتها لكن لم أستطع. انبعثت دوامات كهربية من اللون الأزرق الممزوج بالأخضر من العمود الأزرق للافتة إعلان علكة «Eclipse» نحوي مما جعل شعر مؤخرة رأسي ينتصب. يمكنني الشعور بموجات الألوان تسري في جسدي حتى أصابع قدمي. كان هنالك شيء فاتن في مزيج الأضواء هذا: كان واهنًا لكن مثيرًا ونابضًا بالحياة في الوقت نفسه. لكن لم تستمر الإثارة سوى للحظة قبل أن تلفت انتباهي اللافتة المتحركة «مرحبًا بك في ميدان التايمز» وتجعلني أشعر برغبة في التقيؤ. تراقصت دعاية شوكولاتة «m&m's» على لافتة إعلانات متحركة أمام عينيّ وتسببت بصداع رهيب في صدغيّ. معدومة الحيلة أمام هذا الهجوم المباغت، غطيت عينيّ بيدي بينما أعبر شارع رقم ثمانية مترنحة كما لو أنني

نجوت للتو من موت وشيك، حتى وصلت إلى حجرة الأخبار، حيث كانت الأضواء ساطعة لكن أقل عدوانية.

«أنجيلا، لا بد أن أخبركِ بشيء غريب». همست قلقة من أن يسمعنا من حولنا ويظنوا أني مجنونة. «أرى ألوانًا ساطعة. الألوان تؤذي عينيّ».

سألتني: «ماذا تعنين؟» والقلق واضح في الابتسامة التي حاولت رسمها. كل يوم كان سلوكي يزداد غرابة. لكن اليوم فقط بدأ تشتت ذهني يرعبني.

«ميدان التايمز. الألوان، الإعلانات. بدت لي شديدة السطوع، أشد سطوعًا من أي وقت مضى».

ضحكت بعصبية: «لا بد أنك تعانين من آثار بعد الشرب».

«لم أشرب. أعتقد أني أفقد عقلي!»

«إذا كنت قلقة للغاية، أعتقد أنك يجب أن تذهبي للطبيب مرة ثانية».

هنالك خطب ما فيّ. أتصرف كما يتصرف المجنون. غاضبة من عجزي عن تفسير ما يحدث لي، خبطت يدي بقوة فوق لوحة المفاتيح. توهجت شاشة الكومبيوتر أمامي، ساطعة وغاضبة. نظرت إلى أنجيلا لأرى إذا أحست بذلك أيضًا، لكن كانت مشغولة بقراءة بريدها الإلكتروني.

صحتُ بأعلى صوتي: «لا يمكنني الاستمرار هكذا».

«سوزانا. سوزانا. ماذا بك؟» سألتني أنجيلا، مندهشة من انفجاري. لم أكن هستيرية هكذا، والآن تحدق نحوي كل العيون. شعرت بالإهانة والحرج. انسابت دموع حارة على وجهي وتساقطت على بلوزتي.

«لماذا تبكين؟»

هزت رأسي متجاهلة السؤال، ومُحرجة أيضًا من الدخول في التفاصيل

التي لا أفهمها حتى أنا.

«هل تريدين الخروج من هنا والمشي قليلًا؟ أو أي شيء آخر، نحتسي فنجان قهوة مثلًا؟»

«لا، لا. لا أعرف ماذا يحدث معي. أنا مشوشة وضائعة. أبكي دون سبب محدد».

قلت وسط نحيبي. بينما تسيطر تعويذة البكاء على جسدي كله حتى صرت سجينته. كلما أخبرت نفسي بالتوقف عن البكاء، زاد بكائي. ما الذي يسبب لي هذه الهستيريا؟ حاولت التركيز في أي شيء يخطر ببالي حاولت تشتيت انتباهي في تفاصيل حياتي الصغيرة وتجاهل أي شيء مثير للشك لكن فشلت.

أنا فاشلة في عملي. ستيفن لا يحبني. أنا منكسرة. أنا مجنونة. أنا غبية.

في هذه اللحظة بدأ الكثير من الزملاء في العودة للمكتب مرتدين ملابس سوداء من جنازة الصحفي التي لم أحضرها لانشغالي التام بمشاكلي. هل هذا السبب في بكائي؟ لم أكد أعرف الرجل. هل أبكي على نفسي؟ أبكي من احتمال أن أكون التالية؟

التفتت إليّ صحفية تجلس على المكتب المقابل مباشرة لمكتب أنجيلا.

«سوزانا، أنت بخير؟»

كرهت اهتمامها بي. رمقتها بنظرة متهكمة مُفعمة بالكراهية.

«توقفي!» قلت لنفسي. استمرت الدموع في الانسياب على وجهي لكن تفاجأت حين أدركت أنني لم أعد حزينة. كنت بخير. لست بخير فحسب بل كنت سعيدة. لا، لست سعيدة بل منتشية، أفضل مما شعرت من قبل

في حياتي كلها. استمرت الدموع في الانهمار لكن الآن بدأت في الضحك. سرت موجة من الدفء بطول عمودي الفقري. أردت أن أرقص أو أغني، أن أفعل شيئًا ما، أي شيء باستثناء الجلوس هنا والانغماس في بؤس وهمي. اندفعت إلى الحمام لأغسل وجهي بالماء. بينما يندفع الماء البارد من الصنبور، فجأة بدت مراحيض الحمام كائنات فضائية بالنسبة إليّ. كيف تطورت الحضارة لهذه الدرجة وما زلنا نتبرز بهذا القرب الشديد من بعضنا البعض؟ نظرت نحو المراحيض وسمعت صوت اندفاع الماء. لم أستطع تصديق أني استخدمتها من قبل.

عندما عدت إلى مكتبي، كانت مشاعري قد استقرت نسبيًا. اتصلت بماكينزي التي ساعدني رأيها في مشكلة اختلاسي النظر في أشياء ستيفن منذ عدة أسابيع، وطلبت منها أن تقابلني في الأسفل. أردت أن أستمع لرأيها بخصوص ما حدث لي منذ لحظات. وجدتها خلف مبنى الأخبار. لاحظت أنها كانت ترتدي ملابس سوداء أيضًا، لا بد أنها وصلت للتو من جنازة الصحفي. بدا عليها الحزن. فجأة اجتاحني شعور بالخجل من هوسي الشديد بنفسي.

قلت: «أنا آسفة جدًا لإزعاجك بينما تعانين. من الأنانية أن أتصرف هكذا».

سألتني: «لا تقلقي. ماذا يحدث معك؟».

«الأمر فقط. الأمر فقط... ألا ينتابك أحيانًا شعور أنك لست نفسك؟»

ضحكت.

«نادرًا ما أشعر أنني نفسي!»

«لكن ما أشعر به مختلفًا عن ذلك. شيء سيء حقًا. أرى ألوانًا شديدة

السطوع. أبكي فجأة ومن دون تحكم. لا أستطيع السيطرة على نفسي». كررت كلامي وأنا أمسح البلل المتبقي في عينيّ المنتفختين من البكاء. «هل تعتقدين أنني أعاني من انهيار عصبي؟ هل تعتقدين أنني أجن؟»

«اسمعيني سوزانا، هذا شيء لا تستطيعين أن تقرريه بنفسك. تحتاجين حقًا إلى استشارة طبيب. أقترح عليك كتابة كل أعراضك كما لو كنت تكتبين قصة صحفية عنها. لا تتركي أي شيء دون كتابة. فكما تعرفين، قد تكون التفاصيل الصغيرة هي الأكثر أهمية في النهاية».

كان اقتراحًا عبقريًا. اندفعت مبتعدة عنها وقفزت السلالم، وبدأت الكتابة في ذهني، لكن بمجرد بلوغي المكتب، لم أستطع كتابة سوى الآتي:

أرق/ فيروس

ثم بدأت في الخربشة على الورق لكن لا يمكنني تذكر رسمي لهذه الرسمة أو ما الذي دفعني لفعل ذلك:

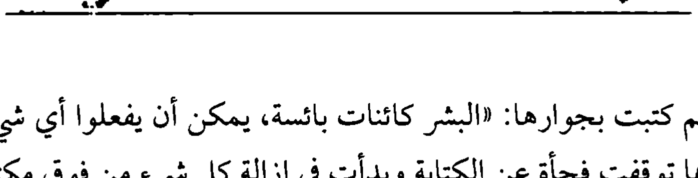

ثم كتبت بجوارها: «البشر كائنات بائسة، يمكن أن يفعلوا أي شيء». بعدها توقفت فجأة عن الكتابة وبدأت في إزالة كل شيء من فوق مكتبي؛ زجاجات المياه، فناجين القهوة النصف ممتلئة، المقالات القديمة التي لن أقرأها مرة أخرى أبدًا. حملت حفنة من الكتب التي لا أتذكر سبب حاجتي إليها وتخلصت منها في المخزن في الطابق الأرضي. فجأة شعرت بسيطرتي

على كل جزء من حياتي. استعدت شعور الخفة والسعادة. لكني أدركت أنها سعادة محفوفة بالخطر. شعرت بالخوف أنني لو لم أدع هذا الشعور يتحرر وأقدره بالشكل الكافي، فإن شعوري هذا سيشتعل حتى يحترق تمامًا ويصير رمادًا بنفس السرعة التي اجتاحتني بها. عندما عدت إلى مكتبي، ضربت سطح المكتب بيديّ.

«سيصبح كل شيء عظيمًا!» أعلنت للجميع متجاهلة ذهول أنجيلا. سرت نحو مكتب بول ثملة بنظريتي الجديدة شديدة البساطة عن الحياة.

قلت له: «دعنا نخرج لندخن سيجارة!».

بينما نستقل المصعد، قال بول: «تبدين أفضل بكثير».

«شكرًا بول، أشعر أنني أفضل بكثير حقًا. أشعر أنني نفسي مجددًا، ولدي الكثير مما أود أن أحدثك عنه». أشعلنا سيجارتين قبل أن أتابع الكلام: «أتعرف؟ لقد أدركت طبيعة الشيء الخاطئ الذي أصابني. أريد أن أكتب قصصًا أكثر، قصصًا أفضل. قصصًا أكبر. ليس هذا الهراء. الأشياء الحقيقية. التحقيقات الصحفية الحقيقية والمزلزلة».

قال بول وقد بدأت تعلو وجهه نظرة قلق: «حسنًا، ذلك رائع. هل أنت على ما يرام؟ تتحدثين بسرعة ميل في الدقيقة».

«آسفة. أنا متحمسة للغاية فحسب».

«أنا سعيد بسماع أنك متحمسة. فالبعض أخبرني أنك كنت غاضبة في مكتبك وأنك كنت مريضة للغاية خلال الشهر الماضي».

«لقد انتهى ذلك. لقد حللت المشكلة تمامًا».

سألني بول: «هيه، هل تحدثت مع أمك مؤخرًا؟»

«نعم، منذ أيام قليلة، لماذا تسأل؟»

«مجرد فضول».

كان بول مشغولًا برسم صورة ذهنية لحالتي. ما شعر به هو العلامات الأولى لانهيار عصبي. لقد شاهد بول من قبل صحفية يهتم بها كثيرًا تنهار أمامه. بدأت تلك الصحفية في وضع مكياج فاقع الألوان وغير مناسب للعمل والتصرف بغرابة، لاحقًا شُخصت بالشيزوفرينيا.

بعد عشر دقائق من كلامي الخرف، توجه بول إلى الداخل ثانية واستدعى أنجيلا: «يجب أن يتصل أحدهم بأمها أو أي شخص أخر. حالتها ليست مطمئنة».

بينما كان بول في الأعلى يتحدث مع أنجيلا، بقيت أنا خارج المبنى. إذا أراد أحدهم أن يجدني فعليه أن يخمن أني مستغرقة في التفكير، أو أنسج خيوط قصة في ذهني - لا شيء خارج عن المألوف. لكن في الحقيقة كنت أبعد ما أكون عن ذلك. لقد دار البندول ثانية. بدأت أشعر بالارتعاش ودوار المرتفعات، نفس الشعور الذي انتابني فوق قمة الجبل في فيرمنت لكن مجردٌ من الخوف.

شعرت أني أطفو فوق زحام موظفي مبنى الأخبار. رأيت قمة رأسي، قريبة جدًا لدرجة أن بإمكاني الاقتراب ولمس نفسي. رأيت ليز، أمينة الأرشيف التي تعتنق الويكا ثم شعرت بـ «نفسي» تدخل ثانية إلى جسدي الواقف على الأرض.

صحت: «ليز! ليز! أريد الحديث معك!»

توقفت. «أوه، مرحبًا، سوزانا، كيف حالك؟»

لا أملك وقتًا لتبادل المجاملات.

«ليز، هل شعرت من قبل أنك هنا لكنك لست هنا حقًا؟»

«بالتأكيد. طوال الوقت».

«لا، لا، أنت لا تفهمينني. يمكنني رؤية نفسي من أعلى، كما لو أنني أطفو فوق جسدي وأنظر لأسفل». قلت ذلك وأنا أعتصر يديّ.

«ذلك أمر طبيعي».

«لا، لا. كما لو أنك خارج ذاتك ويمكنك النظر لنفسك من أعلى».

«بالتأكيد، بالتأكيد».

«كما لو أنك في عالمك الخاص. كما لو أنك لست في هذا العالم».

«أعرف ما تقولين بالضبط. ربما ذلك بقايا أثر الإسقاط النجمي[1] الذي مررت به أثناء جلسة أوراق التاروت التي قمنا بها بالأمس. أعتقد أنني ربما قد أخذتك إلى بعد آخر. أعتذر لذلك. فقط حاولي أن تسترخي وتعيشي تلك اللحظة فهي لا تتكرر كثيرًا».

في تلك الأثناء كانت أنجيلا قلقة بخصوص سلوكي الغريب، فأخذت إذنًا من بول كي تأخذني للبار في فندق ماريوت القريب من أجل تناول شراب - ولكي تستخلص مني معلومات أكثر عن سبب تصرفاتي الغريبة وعن شخصيتي المختلفة مؤخرًا. لذا حين عدت إلى حجرة الأخبار، أقنعتني أنجيلا بجمع أغراضي والخروج معها. مشيت معها متجاوزتين عدة مبانٍ شمال ميدان تايمز وصولًا إلى الفندق. دخلنا إلى بهو الفندق عبر باب دوار ووقفنا بالقرب من مجموعة من السياح ننتظر وصول المصاعد الزجاجية

---

1 - محاولة الخروج من الجسد والسفر خارجه إلى مكان مُتخيل. لم تُثبت علميًا.

الشفافة لتحملنا للبار في الطابق الثامن لكن الزحام ضايقني. كان هنالك الكثير جدًا من البشر حولي. شعرت بالاختناق.

توسلت لأنجيلا: «هل يمكننا أخذ السلم المتحرك؟»

«بالتأكيد».

لكن كانت السلالم المتحركة مزدانة بعشرات المصابيح المتوهجة على كلا جانبيها، مما زاد من حدة اهتياجي. حاولت تجاهل نبض قلبي المتسارع والعرق المتصبب على جبهتي. كانت تسبقني أنجيلا بعدة درجات ويبدو عليها القلق. يمكنني الشعور بتضخم الخوف داخل صدري، ثم فجأة بدأت أبكي ثانية.

عندما بلغنا الطابق الثالث، اضطررت للتوقف عن الصعود لأستعيد رباطة جأشي لأني كنت أبكي بغزارة. وضعت أنجيلا ذراعها حول كتفي. اضطررت إلى النزول عن السلم المتحرك ثلاث مرات لأهدئ نفسي خلال تلك الرحلة إلى الطابق الثامن.

أخيرًا وصلنا إلى الطابق الذي يتواجد فيه البار. امتدت أمامي السجاجيد التي تبدو كما لو أنها تنتمي لمواقع تصوير «لورانس العرب» الخلابة. كلما دققت النظر فيها برزت أمامي أشكال ورسوم تجريدية. حاولت تجاهلها.

كان البار المطل على ميدان تايمز والمتسع لأكثر من مائة مقعد يكاد يكون خاليًا، باستثناء عدد من رجال الأعمال يجلسون فوق مقاعد قرب المدخل. كنت ما أزال أبكي فرفع عدد من الجالسين رؤوسهم من فوق كؤوسهم، وحدقوا ببلاهة نحوي مما جعلني أشعر بمزيد من السوء والبؤس. استمرت دموعي في الانهمار لكنني لم أفهم لماذا. جلسنا في مركز الحجرة فوق مقاعد عالية، بعيدًا عن الزبائن الآخرين. لم أعرف ماذا أريد أن أشرب. طلبت

أنجيلا لي كأسًا من نبيذ كابرنية بلان، وكأسًا من بيرة أنكور ستيم لها.

«إذًا ماذا يحدث معك حقًا؟» سألتني وهي تأخذ رشفة صغيرة من البيرة الكهرمانية اللون.

«أمور كثيرة جدًا. عملي، أنا فاشلة فيه، ستيفن، لا يحبني. كل شيء ينهار. لا شيء له معنى». قلت وأنا أحمل كأس النبيذ بين يديّ كعادة تبعث فيّ الطمأنينة دون أن أشرب منه.

«فهمت. أنت شابة. تمتلكين هذا العمل المرهق ولديك حبيب جديد. كل شيء معلق في الهواء. لا يوجد استقرار. هذا مخيف. لكن هل هذا كافٍ حقًا كي تشعري بكل هذا الانزعاج؟»

هي محقة. لقد كنت أفكر في كل ذلك، لكن كان من الصعب العثور على التفصيل الصغير الذي يمكنه حل مشكلتي. كنت كمن يحاول تجميع قطع بازل ناقصة.

وافقتها الرأي. «هنالك شيء آخر، لكن لا أعرف ما هو».

***

عندما عدت إلى البيت في الساعة السابعة مساءً، وجدت ستيفن ينتظرني. بدلًا من أن أخبره أني كنت مع أنجيلا، كذبت وأخبرته أني كنت في العمل، مقتنعة أنني يجب أن أخفي سلوكي المربك عنه، رغم إلحاح أنجيلا علي بأن أخبره الحقيقة. لكني حذرته من أنني لم أكن أتصرف بشكل طبيعي ولا أستطيع النوم جيدًا.

رد علي: «لا تقلقي. سأفتح زجاجة نبيذ. سيساعدك شرب النبيذ على النوم».

شعرت بالذنب بينما أشاهد ستيفن يقلب بمهارة صوص الجمبري فراديافولو[1] وقد حشر مئزر الطبخ داخل ثنايا بنطاله. كان ستيفن طباخًا ماهرًا ومبتكرًا بالفطرة لكن لم أستطع الاستمتاع بالجو الخاص الذي يخلقه أثناء الطبخ. بدلًا من ذلك وقفت متسمرة في مكاني. كانت الأفكار تنطلق بسرعة في ذهني، من الشعور بالذنب إلى الحب ثم الإحساس بالنفور قبل أن أعود لإحساس الذنب وهكذا في دائرة مفرغة. لم أستطع السيطرة على أفكاري لذا سرت في الشقة لأهدأ ذهني. لم أكن أرغب في أن يراني ستيفن في هذه الحالة.

أخبرته: «أتعرف؟ لم أنم حقًا منذ مدة». في الحقيقة لا يمكنني تذكر آخر مرة نمت فيها. لقد مرت علي الآن ثلاثة أيام على الأقل من دون نوم حقيقي. لقد أصابني الأرق كالطاعون لأسابيع الآن. «قد يصعب عليك النوم بجواري».

رفع رأسه عن الباستا وابتسم. «لا تقلقي. ستنامين أفضل وأنا بجوارك».

ناولني طبق من الباستا المطهية مع جبن البارميزان. انقلبت معدتي بمجرد وقوع عينيّ على الطبق، وعندما تذوقت الجمبري، كدت أتقيأ. قلبت الباستا في طبقي بينما هو يغرف الطعام لنفسه. شاهدته محاولة أن أخفي تقززي من الطعام.

سألني مجروحًا: «ماذا؟ لم يعجبك الأكل؟».

«لا، الأمر ليس هكذا. أنا لست جائعة فحسب. انظر إليك! كيف طهيت وجبة رائعة من بقايا الطعام؟!» قلت ببهجة مصطنعة بينما أحاول منع نفسي من المشي في الشقة. لم أستطع التركيز في فكرة واحدة، كان عقلي يعج برغبات

1- فراديافولو: طريقة إيطالية كلاسيكية لطبخ الجمبري.

مختلفة لكن أكثرها إلحاحًا هي الرغبة في الهرب. في النهاية استرخيت قليلًا فاستلقيت على الأريكة بجوار ستيفن. صب لي كأسًا من النبيذ لكني وضعته على حافة النافذة دون أن أشربه ربما أدركت في وعيي الباطن أن النبيذ سيء لحالتي الذهنية. بدلًا من ذلك، دخنت سيجارة تلو الأخرى حتى آخر نفس فيها.

قال وهو يطفئ سيجارته: «تدخنين بشراهة الليلة. ربما هذا هو السبب في عدم إحساسك بالجوع».

قلت: «أجل، يجب أن أتوقف. أشعر وكأن قلبي يكاد يقفز خارج صدري».

ناولت ستيفن ريموت التلفاز فغير القناة إلى «PBS». بينما يتحول تنفسه الثقيل إلى شخير، بدأ برنامج «إسبانيا: على الطريق مجددًا»، وهو برنامج واقعي يتتبع رحلة جوينيث بالترو[1] والشيف ماريو باتالي وناقد الطعام في صحيفة نيويورك تايمز مارك بيتمان. يا إلهي، لماذا جونيث بالترو الآن؟ لم أكن أستسيغها، لكن خمولي شديد فلم أغير القناة. بينما يأكل ماريو بيضًا ولحمًا شهيًا، كانت جونيث تعبث بزبادي من لبن الماعز، وعندما عرض عليها ماريو أن تأخذ قضمة من طعامه، رفضت.

قالت بتهكم: «شيء لطيف أن تأكل ذلك في السابعة صباحًا». يمكنك أن ترى كم هي مشمئزة من كِرشه. بينما أشاهدها تتناول لقيمات صغيرة من الزبادي، شعرت بالغثيان. فكرت أنني لم أكد آكل أي شيء طوال الأسبوع.

1- جونيث بالترو: ممثلة أمريكية حاصلة على الأوسكار عن فيلم شكسبير في الحب عام 1999. تمتلك الآن شركة خاصة بالموضة والصحة.

رد على تهكمها: «انتظري. لا يمكنني رؤيتك في برجك العالي».

ضحكتُ قبل أن يصير كل شيء حولي ضبابيًا.

جونيث بالترو... بيض ولحم... ظلام.

(8)

تجربة الخروج من الجسد

وصف لي ستيفن لاحقًا ذلك المشهد الكابوسي:

أيقظته وأنا أئنّ أنّات خافتة وغريبة، يتردد صداها مع الأصوات الصادرة من التلفاز. في البداية ظن أنه صوت صرير أسناني. لكن عندما تحولت أصوات الصرير إلى صياح مرتفع يشبه صوت احتكاك ورق الصنفرة بسطح معدني ثم صار خواءً عميقًا، عرف أن هنالك خطب ما. اعتقد أنني أعاني من مشكلة أثناء نومي لكن حين التفت بظهره ليواجهني، وجدني جالسة، وعيناي مفتوحتان ومتسعتان لكنهما لا تركزان على أي شيء.

«هاي، بماذا تشعرين؟»

لا إجابة...

عندما اقترح أن أحاول الاستلقاء، التفتُ بوجهي نحوه ونظرتُ بعيني خلفه كما لو كنت ممسوسة. فجأة امتدت ذراعاي أمامي مباشرة مثل مومياء وجحظت عيناي وتيبس جسدي. كنت ألهث طلبًا للهواء. استمر جسدي في تيبسه وأنا أستنشق الهواء بشكل مستمر من دون أن أزفره. بدأ الدم والرغوة ينسلان من فمي عبر أسنان مطبقة بإحكام. أصاب الرعب ستيفن فكتم صرخة ذعر داخله، وللحظة حدق مصعوقًا في جسدي المرتعش. أخيرًا، تحرك. ورغم أنه لم ير نوبة صرع من قبل، لكنه كان يعرف ما يجب فعله.

مدد جسدي على الأرض ثم أمال رأسي جانبًا حتى لا أختنق ثم أسرع نحو الهاتف واتصل بالطوارئ 911.

***

لم أتمكن من استعادة أية ذكرى متعلقة بهذه النوبة أو النوبات التي تبعتها. كانت هذه اللحظة هي أول فجوة حقيقية في ذاكرتي، وحددت الخط الفاصل بين سلامتي العقلية وجنوني. رغم أنني سأحظى بلحظات محدودة من صفاء الذهن في الأسابيع التالية، لكني لن أعود أبدًا نفس الشخص الذي كنته. كانت النوبة هي بداية مرحلة مظلمة من المرض بينما أبدأ في دخول برزخٍ بين عالم الواقع ومملكة خيالية وضبابية، قوامها الهلاوس والارتياب. منذ هذه اللحظة، سأجبر على الاعتماد على مصادر خارجية لأتمكن من تجميع تفاصيل هذا «الزمن المفقود» من ذاكرتي.

كما عرفت لاحقًا، فإن نوبتي هذه كانت الأكثر درامية ووضوحًا في سلسلة من النوبات التي مررت بها دون أن أعي خلال الأيام الماضية. كل شيء كان يحدث لي في الأسابيع السابقة هو جزء من معركة أكبر وأكثر ضراوة تحدث في مستوى بدائي داخل عقلي. المخ السليم هو سيمفونية من مئات البلايين من الخلايا العصبية، وظائف كل خلية عصبية تتناغم وتجتمع في كيان واحد يمُكّن المرء من التفكير والحركة وتخزين الذكريات، أو حتى مجرد التثاؤب. لكن يكفي نشاز آلة موسيقية واحدة للإخلال بتوازن السيمفونية. عندما تستمر الخلايا العصبية في العزف منفردة دون توقف بعيدًا عن اللحن الرئيسي بسبب مرض أو ورم أو كدمة أو أرق أو حتى التوقف المفاجئ عن تناول الكحول، قد تكون نتيجة هذا النشاز، هذا العزف خارج السرب، نوبة صرع.

في بعض الحالات قد تكون نوبة الصرع من نوع « Tonic-clonic» [توترية رمعية] وهذه هي النوبة التي أصابتني وشهدها ستيفن، وهي تتميز بفقدان الوعي، وتيبس العضلات وحركات غريبة لاإرادية، وأحيانًا متوافقة تشبه الرقص، أو كما سماها ستيفن حركات الزومبي المرعبة. في الحالات الأخرى قد تكون النوبة أقل وضوحًا، تتميز بفترات من التحديق في الفراغ وحركات لا إرادية متكررة يقوم بها الفم أو الجسم. النتائج طويلة المدى للنوبات التي لا تخضع للعلاج هي إعاقات ذهنية وربما حتى الموت.

يعتمد نوع وحدة النوبة على مكان الخلل العصبي في الدماغ: إذا كان في القشرة المخية البصرية، فسيعاني المرء من تشوش في الرؤية مثل الهلاوس البصرية. إذا كان في مناطق الحركة في الفص الأمامي فسيقوم المرء بحركات لاإرادية مثل حركات الزومبي الغريبة التي قمت بها وهكذا.

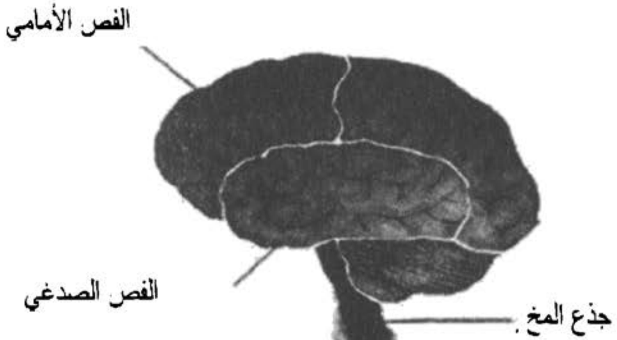

بالإضافة لنوبة « Tonic-clonic» العنيفة التي تعرضت لها، اكتشفت أنني كنت أعاني أيضًا من نوبات جزئية مركبة نتيجة لاستثارة زائدة في

الفص الصدغي، الذي يعد الجزء الأكثر «حساسية» في الدماغ. يحتضن الفص الصدغي للدماغ الحُصين «Hippocampus» واللوزة الدماغية «Amygdala»؛ وهي أجزاء المخ المسؤولة عن المشاعر والذاكرة. أعراض تلك النوبات قد تتراوح من شعور بالنشوة أقرب إلى سعادة صباح عيد الميلاد أو استثارة جنسية أو المشاعر المصاحبة لممارسة الطقوس الدينية. تعاني بعض الحالات من شعور بالديجافو أو عكسه «جيمافو»، عندما يبدو كل شيء من حولك غريبًا كما لو أنك لم تره من قبل، مثل شعوري بالعزلة كأنني كائن فضائي في حمام المكتب في الجريدة، ورؤية هالات من الضوء أو رؤية العالم بأحجام مختلفة عن الواقع (تعرف هذه الحالة علميًا بمتلازمة أليس في بلاد العجائب)[1] وهو ما حدث معي وأنا أعبر الردهة في طريقي لمقابلة جون والاش، بالإضافة للفوتوفوبيا وهي حساسية شديدة من الضوء، وهو ما شعرت به في ميدان تايمز. كل هذه أعراض شائعة في نوبات الفص الصدغي.

سُجلت في نسبة صغيرة من مرضى صرع الفص الصدغي - خمسة أو ستة في المئة من المرضى - حالة تسمى «تجربة الخروج من الجسد»، يصفها المرضى بأنهم يشعرون كأنهم يغادرون أجسادهم ويكون بإمكانهم النظر لأنفسهم من أعلى.

ها أنا فوق نقالة...

ها أنا أُحمل إلى داخل سيارة إسعاف بينما يمسك ستيفن بيديّ.

1- متلازمة عصبية غالبًا ما تصاحب الصداع النصفي حيث يفقد المريض إحساسه بالزمن والفراغ فيرى الأشياء غاية في الكبر أو غاية في الصغر وقد يرى أجزاء من جسده (يده مثلا) أكبر أو أصغر من بقية جسمه. سُميت المتلازمة على اسم رواية لويس كارل الفنتازية «أليس في بلاد العجائب».

ها أنا أدخل المستشفى.

ها أنا... أطفو فوق المشهد. أنظر إليه من أعلى. أنا هادئة... لا وجود للخوف.

(9)

لمسة جنون

عندما استعدت وعيي، كان أول شيء رأيته هو رجل متشرد يتقيأ على بعد قدم مني في عنبر مستشفى ساطع الإضاءة. في زاوية من الحجرة، رجل آخر مُدمى، مقيد إلى الفراش، ويحرسه رجلا شرطة.

هل أنا ميتة؟ نما غضبي تجاه المكان المحيط بي. كيف يجرؤن على وضعي هنا؟! كنت ساخطة جدًا لدرجة أنني تناسيت خوفي وانفجرت. لم أشعر أنني نفسي منذ أسابيع، لكن الدمار الحقيقي الذي طرأ على شخصيتي كان يطفو الآن على السطح بسرعة. عندما أنظر الآن إلى تلك اللحظة، أرى بداية استسلامي للمرض، وسماحي لكل خصالي التي أتميز بها - الصبر، الطيبة، ودماثة الخلق - بالتبخر والتلاشي. كنت عبدة للمؤامرة التي يحيكها عقلي المريض. في النهاية لسنا سوى مجموع الأجزاء التي تكوننا، وعندما ينهار الجسر الذي يربط بين تلك الأجزاء، تنهار القيم التي نتمسك بها - وتشكل هويتنا - معه.

لست ميتة بعد. أنا أحتضر بسببه، بسبب ذلك التقني في معمل الرنين. هكذا أقنعت نفسي أن التقني الذي ربما يكون قد غازلني في المعمل عندما أجريت الرنين هو السبب في كل الذي أمر به.

قلت بلهجة آمرة: «أخرجني من هذه الحجرة، الآن!!» أمسك ستيفن

بيدي ووجهه يعلوه الرعب من القسوة التي حملها صوتي.

«لن أبقى في هذه الحجرة».

لن أموت هنا. لن أموت مع هؤلاء المجانين!!

اقترب طبيب من سريري.

«لا تقلقي، سننقلك من هنا حالًا».

ملأتني نشوة الانتصار. كنت سعيدة بقوتي الجديدة. ينصت الناس إلي عندما أتحدث. بدلًا من القلق بشأن حياتي التي خرجت عن السيطرة، بدأت في التركيز على أي شيء يمنحني شعورًا - وهميا - بالقوة. جرّت ممرضة ومساعد لها سريري خارج الحجرة وأدخلاني إلى حجرة منفردة قريبة. بينما يتحرك السرير، تعلقت بيد ستيفن. شعرت بالأسى نحوه. هو لا يعرف أنني أموت.

قلت له برقة: «لا أريدك أن تنزعج. أنا أحتضر بسبب الميلانوما».

بدا ستيفن منهكًا وهو يقول: «توقفي يا سوزانا. لا تقولي هذا. أنت لا تعرفين ما بك».

لاحظت الدموع تتجمع في عينيه. ضعيف، لا يستطيع تحمل الموقف. فجأة عاد السخط الشديد إلي. صرخت: «لا أعرف ماذا بي! سوف أقاضيه! سأعامله كما يليق به. يعتقد أن بإمكانه التحرش بي ثم تركي أموت؟ لا يمكنه أن يفعل ذلك. سوف أحطمه في المحكمة!»

سحب ستيفن يده بلطف من يدي كما لو أن النار قد مستها. «سوزانا. رجاءً ابقي هادئة. لا أعرف عما تتحدثين».

«رجل الرنين! لقد حاول مغازلتي وأغفل رؤية الميلانوما. سأقاضيه!»

قاطع طبيب مقيم شاب ثورة غضبي. «هذا شيء قد تريدين النظر فيه عندما تعودين إلى البيت. إذا أردت استشارة طبيب جلدية سأكون سعيدًا بأن أرشح لك واحدًا. للأسف، لا شيء يمكننا فعله لك هنا».

كان المستشفى قد أجرى لي أشعة مقطعية وفحصًا عصبيًا وسحبت عينة من دمي. «سنكتب لك إذنًا بالخروج. يجب عليك الذهاب إلى طبيب أمراض عصبية صباح الغد».

تدخل ستيفن في الحديث: «خروج؟ ستسمح لها بالذهاب؟ لكنك لا تعرف ما هي علتها، وقد تتكرر النوبة. كيف ستسمح لها بالذهاب بهذه السهولة؟»

«أنا آسف. النوبات العصبية شائعة الحدوث أكثر مما تتصور. أحيانًا تحدث مرة واحدة ثم لا تحدث مرة أخرى أبدًا. هذه حجرة طوارئ، ولا نستطيع إبقائها تحت الملاحظة هنا. أنا آسف. نصيحتي هي أن تذهب لرؤية طبيب أمراض عصبية غداَ صباحاَ».

«ما زلت مصرة على مقاضاة ذلك الرجل!»

أومأ الطبيب بصبر ثم غادر ليتعامل مع حالات جروح الطلق الناري وجرعات المخدرات الزائدة التي تنتظره في حجرة الطوارئ.

قال ستيفن: «يجب أن أتصل بوالدتك».

«لا تتصل بها». أصررت، خرج الصوت مني لينًا وهادئًا بينما أعود لحظيًا لذاتي القديمة. يمكن لفترات جنوني أن تتلاشى فجأة وبسرعة كما تبدأ. «لا أريدها أن تقلق. فأمي إنسانة قلقة بطبعها، ولقد حاولت إخفاء القصة الكاملة لما يحدث معي عنها».

«يجب عليّ الاتصال بها». أصر بدوره قبل أن ينجح في انتزاع رقم بيتها

مني. خرج إلى الممر ليهاتفها. انتظر رنتين طويلتين قبل أن يرد عليه آلن زوج أمي.

«آلو» قال بصوت ناعس بلهجة برونكس الغليظة.

«آلن، أنا ستيفن. أنا في المستشفى. لقد تعرضت سوزانا لنوبة صرع لكنها على ما يرام الآن».

في الخلفية صرخت أمي: «آلن، ماذا هناك؟!»

تابع ستيفن: «ستكون بخير. سيسمحون لها بالخروج».

رغم ذعر أمي المتنامي، حافظ آلن على رباطة جأشه وأخبر ستيفن أن يعود إلى البيت وينال قسطًا من النوم، وأنه وأمي سيأتيان في الصباح. عندما أغلق آلن الخط، تبادل وأمي النظرات. كانت ليلة الجمعة، اليوم الثالث عشر في الشهر. شعرت أمي بهاجس مشئوم فبدأت في البكاء لا إراديًا، وهي متيقنة أنّ هنالك شيئًا سيئًا حقًا يحدث لي. كانت أول وآخر مرة تسمح لنفسها بالخضوع لمشاعرها خلال الشهور المرعبة التي تلت تلك الليلة.

***

في الصباح الباكر، وصلت أمي أمام باب شقتي حادة الذهن كما هي دائمًا بينما يبحث آلن عن مكان في الشارع ليركن السيارة. كان يمكنني الإحساس بذعرها وسعارها. كانت ترتعب دائمًا عندما تسمع عن السرطان في الراديو، والآن كان عليها التعامل مع نوبة صرع مبهمة السبب داهمت ابنتها. راقبتني وأنا أرقد في السرير بينما هي تعتصر يديها الجميلتين، الجزء الذي أحب تأمله كثيرًا فيها، بينما تلقي بالسؤال تلو الآخرعلى ستيفن حول ليلة الأمس في المستشفى.

هل أعطوك تفسيرًا؟ ما نوعية الطبيب الذي فحصها؟ هل أجروا رنينا مغناطيسيًا لها؟

دنا آلن منها وداعب شحمة أذنها. عادة ما يقوم بهذه الحركة لتهدئة الأشخاص الذين يحبهم. هدأت أمي في اللحظة التي لمسها فيها.

آلن هو زوجها الثالث، والثاني بعد أبي. زوجها الأول كان مهندسًا معماريًا ولم ينجح الزواج لأسباب كثيرة أهمها أن أمي المتيمة بالحركة النسوية في ذلك الوقت - السبعينيات - لم ترغب في الإنجاب. كانت ترغب في التركيز على مستقبلها المهني في مكتب مدعي عام منهاتن حيث كانت تعمل (وما تزال). عندما قابلت أبي، تركت زوجها الأول وأنجبا طفلين: أنا وأخي جيمس. رغم وجود الطفلين، إلا أن زواجهما كان مبنيًا على أساس هش من البداية. كلاهما كانا حادي المزاج عنيدين، ورغم هذا تمكنا من الاستمرار في زواجهما لقرابة العقدين قبل أن يتطلقا.

قابلت أمي آلن منذ ثلاثين عامًا في مكتب المدعي العام، قبل أن تتزوج أبي بوقت طويل وتمكن من نيل ثقتها صديقًا بفضل إخلاصه وتفانيه. صار الشخص الذي تعتمد عليه في مشاكل العمل والأمور الشخصية (وكان سندًا لها خلال إجراءات طلاقها من أبي).

كان شقيق آلن مصابًا بالشيزوفرينيا مما دفع آلن للتوحد مع ذاته وعائلته وعزل نفسه عن الجميع باستثناء عدد قليل من الصداقات المهمة. كان يعيش في عالمه الخاص. كان سخيًا في التعبير عن مشاعره نحو أحبائه المقربين، يستخدم يديه كثيرًا في تعامله معهم، ويضحك ضحكته العالية والمعدية لمن حوله. مع الغرباء، يكون غالبًا هادئًا وخجولًا ومنطويًا لدرجة قد يبدو وقحًا للآخرين. دفئه وهدوئه وخبرته مع المرض العقلي ستثبت مدى أهميتها البالغة في الأسابيع القادمة.

قبل تعرضي لنوبة الصرع، كوّن آلن وأمي نظرية بناءً على المعلومات القليلة التي عرفاها عن تفاصيل شهر تصرفاتي الغريبة. راودتهما الشكوك أنني أعاني من انهيار عصبي ولّده توتر العمل ومسئوليات حياتي بمفردي. لكن نوبة الصرع هدمت ذلك السيناريو فزاد قلقهما. بعد تبادل الآراء، قررا أن من الأحوط أن أرافقهما إلى بيتهما في سوميت في نيوجيرسي، حيث يمكنهما الاعتناء بي. حاول ستيفن وأمي وآلن بشتى الطرق أن يخرجوني من السرير لكنني رفضت التزحزح من مكاني. بالنسبة إليّ، كان أهم شيء هو البقاء في شقتي، مهما حدث: العودة إلى بيت والديّ سيجعلني أشعر كطفلة. رغم حاجتي الماسة للمساعدة، كانت المساعدة هي آخر شيء أردته. بطريقة ما، تمكنت قوتهم مجتمعة من إخراجي من شقتي وإدخالي للسيارة السوبارو.

***

تعتبر سوميت من أفضل الأماكن للعيش في أمريكا وفقًا لمجلة «المال». هي ضاحية تبعد عشرين ميلًا عن مانهاتن، مأوى للـ «WASPs»[1] ومصرفي الوول ستريت الذين يلتقون في عدد من النوادي الريفية داخل نطاق مساحتها التي تبلغ ستة أميال مربعة. انتقلنا إلى سوميت عام 1996 من بروكلين، ورغم أنها أنسب مكان لنشأة الأطفال، إلا أن عائلتنا لم تتأقلم أبدًا مع هذا المكان. في حي مكون من منازل مدهونة بالأبيض فقط، قررت أمي طلاء بيتنا بلون اللافندر، مما جعل إحدى زميلاتي في الفصل تعلق قائلة: «أمي تقول إنك ستستبدلين ربطة عنق المدرسة بربطة عنق منقطة!» في النهاية غيرت أمي لون طلاء البيت لرمادي مائل للأزرق أقل استفزازًا من اللافندر.

1- اختصار لمصطلح البروتستانت الأنجلوسكسونيين البيض. وهو يرمز للطبقة الراقية من البيض المسيطرة على المجتمع الأمريكي.

بعد استقراري في البيت في سوميت خلال الأيام القليلة التالية، وجدت نفسي بدلًا من الاسترخاء في نوستالجيا العودة للمكان الذي شهد طفولتي، أتعلق بشكل عنيف بحياتي في مانهاتن التي تركتها ورائي.

في عصر الأحد وجدت نفسي مهووسة بإتمام مقال قديم لم أنتهِ منه عن فرقة رقص ستقدم عرضها الأول في برادوي تسمى «Gimp» مكونة من راقصين ذوي إعاقة جسدية.

«ليسوا صنفًا تقليديًا من الراقصين...» بدأت المقال. لم تعجبني العبارة فمسحتها. طوال نصف ساعة، كتبت ومسحت ثم أعدت كتابة نفس العبارة قبل أن أستسلم. بدأت أدور في الحجرة، محاولةً إخراج نفسي من سدّة الكاتب. همت بلا هدف حتى وجدت نفسي في حجرة المعيشة حيث كانت أمي وآلن يشاهدان التلفاز، لكن بمجرد وصولي للحجرة، لم أعد أتذكر سبب قدومي إليها. انبعث من التلفاز موسيقى مقدمة مسلسلها المفضل الدراما الطبية «هاوس إم دي». بعد ثوانٍ، بدأ لون الأريكة الأخضر الفاتح يتحول إلى رمادي بشكل مزعج لعينيّ. ثم بدت الحجرة لي كأنها تنبض وتتنفس، مثل ردهة مبنى الأخبار. سمعت صياح أمي آتيًا من بعيد. «سوزانا... سوزانا. هل تستطيعين سماعي؟»

بعد ذلك وجدت أمي جالسة بجواري على الأريكة تدلك قدميّ اللتين تيبستا بشكل مؤلم. نظرت إليها مستفسرة. فقالت: «لا أعرف ماذا حدث. بدا أنك في حالة انتشاء كأنك لم تكوني هنا».

تبادلت نظرات قلقة مع آلن ثم اتصلت بالدكتور بايلي لترى إذا كان بالإمكان حجز موعد عاجل معه. كان أقرب موعد، كما قال، هو يوم الاثنين.

***

قضيت عطلة نهاية الأسبوع في سوميت، متجاهلة مكالمات زملائي في العمل وأصدقائي. كنت محرجة من سلوكي غير القابل للتفسير مما منعني من أن أتحدث معهم، وسيطر عليّ هذا الاضطراب الغريب في أفكاري لذا قررت الانعزال عن أقرب الناس إليّ وهو شيء لم أكن لأفعله في الظروف العادية.

لسبب ما، وجدت نفسي أرد مرة واحدة فقط حين رأيت اسم صديقتي جولي على شاشة الهاتف. جولي مصورة في ذا بوست وأكثر شخص مرح وطيب القلب أعرفه. بمجرد أن بدأنا في الحديث، أفضيت إليها بكل شيء: النوبات، الأفكار الغريبة والرؤى، ربما لأني أعرف أن والدتها طبيبة نفسية. عندما انتهيت من الحديث، أخبرتني أنها قد تحدثت مع والدتها عني.

«إنها تعتقد أنك ربما تمرين بنوبة جنون وأنك قد تكونين مصابة باضطراب ثنائي القطب. مهما كان ما تعانين منه، فلا بد أن تذهبي إلى طبيب نفسي». أنهت المكالمة بهذا الاقتراح.

اضطراب ثنائي القطب. رغم أن هذه الفكرة قد تبدو كئيبة في أي وقت آخر إلا أنها منحتني ارتياحًا نسبيًا. تبدو الفكرة معقولة. بحثي السريع في جوجل عن اضطراب ثنائي القطب أظهر لي أن المعهد القومي للصحة العقلية قد خصص كتيبًا كاملًا عن المرض: «اختلال في العقل يسبب تغيرات غير مألوفة في المزاج». ينطبق علي ذلك. «غالبًا ما تصيب الإنسان في أوآخر المراهقة أو في سني الشباب الأولى». ينطبق علي أيضًا. «يمر المريض بحالة من السعادة المبالغ فيها تسمى نوبة الجنون، وحالة من الحزن الشديد أو اليأس تسمى نوبة الاكتئاب. (ينطبق علي، وينطبق علي) مما يجعله يعيش في حالة من التشوش».

وجدت في موقع آخر قائمة طويلة للمشاهير الذين تحوم حولهم شكوك

الإصابة بالاضطراب ثنائي القطب: جيم كاري، تشرشل، مارك توين، فيفيان لي، لودفيج فان بيتهوفن، تيم برتون وغيرهم الكثيرين. كنت ضمن صحبة جيدة حقًا.

قال أرسطو: «لم يتواجد عقل عظيم من دون مسحة من الجنون».

قضيت الليلة في حالة من الابتهاج: لدي اسم للحالة التي أصابتني، وهاتان الكلمتان اللتان تخرجان من الفم بسلاسة شديدة كانت تفسر كل شيء. لم أشعر حتى برغبة في «الشفاء». أنا الآن أنتمي لنادٍ عضويته حصرية على المبدعين!

بالطبع لم تقتنع أمي وآلن بتشخيصي الذاتي. قدنا السيارة إلى عيادة د. بايلي يوم الاثنين 16 مارس. لم تعد تبدو لوحة ميرو غريبة أو مزعجة بالنسبة إليّ. تتوافق اللوحة مع تقلبات مزاجي. استدعانا د. بايلي إلى حجرته فور وصولنا. هذه المرة كان سلوكه أقل مرحًا ولم يمنحني الألفة التي تذكرني بجدي، لكن كان منظره مقبولًا في العموم. قام بالاختبارات العصبية الروتينية مرة أخرى ودوّن: «ردود الفعل طبيعية». وقتها كنت أشعر حقًا أنني طبيعية. دوّن ملاحظاته على الآي باد بينما يطرح الأسئلة. لاحقًا فقط حين حصلت على نسخة من ملاحظاته، اكتشفت أنه نسى تدوين بعض التفاصيل، وأنه قد كتب أني «كنت على متن طائرة» وقت حدوث نوبة الصرع الأولى (وهو ما لم يكن صحيحًا).

كانت نبرة صوته هادئة وهو يتحدث معي عن النوبة قبل أن يعدل من وضعية نظارته على أنفه ويتحدث فجأة بنبرة شديدة الجدية:

«هل عملك مُجهد ذهنيًا؟»

«نعم، أعتقد ذلك».

«هل تشعرين في بعض الأحيان أن العمل يستنزفك تمامًا؟»

«بالتأكيد».

«أخبريني بصراحة..» قال كما لو كان يتوقع سماع سر كبير. «لا أحكام مُسبقة هنا لذا أخبريني بصدق، ما كمية الكحول التي تشربينها في اليوم؟»

كان علي التفكير في الأمر. لم أشرب ولو قطرة من الكحول خلال الأسبوع السابق، لكن يساعدني النبيذ عادةً على الاسترخاء لذا أحتسي بعضًا منه في معظم الليالي قبل النوم.

«بصراحة، كأسين من النبيذ كل ليلة. عادة أقتسم زجاجة مع حبيبي، لكنه غالبًا ما يشرب أكثر مني».

دوّن ملاحظة في استمارة الكشف. لم أدرك وقتها أن الأطباء يضاعفون عادةً - بل يضربون في ثلاثة أحيانًا - أي عدد يذكره المريض لأن المرضى عادة يكذبون بخصوص «ذنوبهم». فبدلًا من أن يسجل إجابتي «كأسين في الليلة »، اعتقد د. بايلي أنّ الرقم الصحيح أقرب إلى ستة!

«أي تعاطي للمخدرات؟»

«لا، لم أتعاطَ مخدرات منذ سنين». قلت ثم أضفت بسرعة: «قمت ببعض البحث عن اضطراب ثنائي القطب، وأعتقد حقًا أنه المرض الذي أعاني منه».

ابتسم.

«لا أملك أي خبرة في هذا التخصص. لكنه احتمال. سيحولك الممرض في الاستقبال إلى طبيب نفسي متمكن جدًا يملك خبرة أوسع في هذا المجال».

«عظيم».

«تمام، حسنًا إذًا، باستثناء هذا، كل شيء يبدو طبيعيًا. سأكتب لك وصفة

بدواء الكيبرا وهو دواء مضاد للنوبات. تناوليه وكل شيء سيصبح على ما يرام. أراك بعد أسبوعين». قالها وهو يرافقني إلى حجرة الانتظار. «إذا لم تمانعي، أود الحديث قليلًا مع والدتك». لوح بيده لأمي يدعوها إلى دخول مكتبه. بعد أن أغلق الباب وراءه، التفت لأمي وقال لها:

«أعتقد أن الأمر بسيط جدًا. واضح وبسيط. تحضر ابنتك الكثير من الحفلات، وتشرب كثيرًا، ولا تنام بالقدر الكافي، وترهق نفسها في العمل. تأكدي أنها لا تشرب وأنها تأخذ الكيبرا، الدواء الذي كتبته لها بانتظام، وسيصبح كل شيء على ما يرام».

امتلأت أمي بارتياح كبير. فتلك كانت الإجابة التي كانت تريد سماعها.

(10)

نوبات مختلطة

قاد آلن السيارة إلى مبنى من الطوب البني يرجع إلى أيام ما قبل الحرب في الجانب الشرقي من مانهاتن حيث تعيش الطبيبة النفسية سارة ليفان وتزاول عملها. سرت وأمي نحو المدخل قبل أن نضغط زر جهاز النداء. أتى صوت عالي الطبقة (فلاسيتو) يشبه صوت كارول كين[1] عبر الجهاز. «تفضلوا بالدخول. يمكنكم الجلوس في حجرة الانتظار. سأوافيكم هناك حالًا».

بدت حجرة الانتظار بحيطانها البيضاء والمجلات المبعثرة في كل مكان وأرفف الكتب الممتلئة بكلاسيكيات الأدب، كأنها جزء من فيلم لوودي آلن. كنت متحمسة للقاء الطبيبة النفسية. أردت أن أتأكد تمامًا من تشخيصي بالاضطراب ثنائي القطب، بالإضافة إلى أنني أجد زيارة الأطباء النفسيين ممتعة إلى حد ما. لمدة بعد انفصالي عن حبيب سابق، كنت أذهب إلى ثلاثة أطباء نفسيين مختلفين، لأختبر أساليبهم في العلاج. كانت التجربة بدافع شخصي، ألهمني لإجرائها مشاهدتي للكثير من حلقات برنامج «In Treatment» المذاع على شبكة «HBO». الطبيب الأول كان شابًا مثلي الميول جذابًا للغاية، حاول أن يتصرف كصديق مقرب، يعرف كل شيء عني. الطبيب الثاني كان عبقريًا وغريب الأطوار (لكنه مصطنع ومتعالٍ في

1- كارولين كين: ممثلة أمريكية رُشحت للأوسكار كأفضل ممثلة عن فيلم شارع هستر عام 1975.

أسلوبه) ألقى نظرة على تأميني الصحي ثم سألني فورًا عن علاقتي بأبي. الثالث كان عجوزًا، سريع الغضب وكثير التذمر، حاول تنومي مغناطيسيًا باستخدام عصا بلاستيكية.

«تفضلي بالدخول». قالت د. ليفان وهي تقف عند باب حجرة المكتب. ابتسمت. كانت تشبه كارول كين أيضًا. أشارت لي كي أجلس على مقعد جلدي.

قالت، وهي تشير إلى كاميرا بولارويد في يدها: «إذا لم تمانعي فإني أحب التقاط صور لمرضاي كي أصنع سجلًا لهم». وقفت أمام الكاميرا، لا أعرف هل علي الابتسام أم الاحتفاظ بوجه جاد. تذكرت ما قاله لي صديقي زاك منذ سنوات قبل ظهوري لأول مرة في برنامج تلفزيوني على الهواء مباشرة أثناء قضية مايكل ديلفين: «ابتسمي بعينيك». وهذا ما حاولت فعله.

«حدثيني قليلًا عن سبب وجودك هنا؟»

«أنا مريضة بثنائي القطب».

قالت: «عفوًا؟ كرري ما قلته».

«أنا مريضة بثنائي القطب».

أومأت كما لو كانت توافقني الرأي. «هل تتناولين أي أدوية لعلاج ذلك؟»

«لا، فلم أُشخّص رسميًا بالمرض. لكني أعرف. أعني، أعرف نفسي أفضل من أي شخص آخر، أليس كذلك؟ لذا لا بد أن أعرف إذا كنت مصابة به. وأنا أعرف أني مصابة به». كان حديثي مشتّتًا. بدأ المرض يفرض نفسه على أسلوب حديثي.

أومأتْ ثانية. «أخبريني لماذا تعتقدين أنك مريضة بثنائي القطب».

بينما كنت أشرح لها حالتي باستخدام منطقي المتقلب، راحت هي تدون انطباعها في صفحتين من الورق الفولسكاب. كتبت:

«تقول إنها مريضة باضطراب ثنائي القطب. من الصعب تأكيد ذلك. بدأ كل شيء منذ أيام قليلة. لا تستطيع التركيز. تتشتت بسرعة. تعاني من أرق حاد لكن لا يبدو عليها التعب. تمتلك أفكارًا كثيرة. لا هلاوس. لا جنون ارتياب. مندفعة دائمًا».

سألتني د. ليفان إن كنت قد مررت بما أمر به الآن من قبل ثم كتبت:

«تعرضت لهجمات من الهوس الخفيف طوال حياتها. تمتلك دائمًا طاقة عالية. لكن تتملكها أفكار سلبية. لم تراودها نزعة انتحارية قط».

كان رأي د. ليفان أنني أمر بـ «نوبات مختلطة» مما يعني تناوب عنصري الجنون والاكتئاب، وهي الصورة النموذجية لاضطراب ثنائي القطب. حركت العديد من الكتب الضخمة من فوق مكتبها حتى عثرت على دفتر الوصفات الطبية، ثم وصفت لي أولانزابين، وهو دواء مضاد للذُهان يُوصف لعلاج اضطرابات المزاج والتفكير.

بينما أنا في مكتب د. ليفان، اتصلت أمي بأخي. كان في سنته الأولى في جامعة باتسبورغ. ورغم أن جيمس في التاسعة عشرة فقط، إلا أنه يمتلك شخصية حكيمة وروحًا أكبر من سنه وكان مصدر راحة ألجأ إليه دائمًا.

قالت أمي لجيمس محاولة التحكم في نبرة القلق في صوتها: «سوزانا تعرضت لنوبة صرع». صعقت المفاجأة جيمس. «يقول طبيب الأعصاب إنها تفرط بالشرب. هل تعتقد أن سوزانا مدمنة كحول؟»

قال جيمس بعناد: «من المستحيل أن تكون سوزانا مدمنة للكحول».

«سوزانا تصر أنها مصابة باضطراب ثنائي القطب. هل تعتقد أن هذا ممكن؟»

فكر جيمس في الأمر للحظة: «لا، دون أدنى شك. لا ينطبق هذا على سوزانا. طبعًا أحيانًا تكون سوزانا متحمسة للغاية ومتقلبة المزاج لكنها لا تكون مكتئبة أبدًا. سوزانا إنسانة قوية يا أمي. كلنا نعرف ذلك. تتعامل مع الكثير من الضغوط لكنها تنجح في تجاوزها أفضل من أي شخص أعرفه. اضطراب ثنائي القطب احتمال غير منطقي بالنسبة إليّ».

قالت أمي: «وإليّ أيضًا. وإليّ أيضًا».

(11)

كيبرا[1]

لاحقًا في مساء اليوم التالي، تجلت لي فكرة. انسي الاضطراب ثنائي القطب. كانت الفكرة بخصوص الدواء المضاد للصرع «كيبرا». لا بد أن كيبرا هو السبب في أرقي ونسياني وتوتري وعدوانيتي وتغير مزاجي، والتنميل وفقدان الشهية. لا يهم أنني بدأت تناول الدواء منذ يوم واحد فقط، كيبرا هو السبب في كل شيء. والبحث الذي أجريته على الإنترنت أثبت ذلك. كانت أعراضي كلها أعراضًا جانبية لهذا الدواء السام.

رجتني أمي أن أتناوله. قالت متوسلة: «افعلي ذلك من أجلي. رجاءً، خذي الحبة وحسب». لذا فعلت.

حتى خلال هذه المدة التي كنت لا أكاد أتعرف على نفسي فيها، كانت هنالك ظلال من سوزانا «الحقيقية»، الإنسانة التي تهتم برأي عائلتها وأصدقائها، والتي لا ترغب في أن تجرحهم. عندما أنظر للماضي الآن، أعتقد أن هذا السبب في أنني رغم كل الصراعات الداخلية كنت أستسلم لإلحاحات عائلتي دائمًا.

في تلك الليلة، عندما دقت ساعة المنبه معلنة منتصف الليل، رفعت رأسي من فوق الوسادة وأنا أفكر: الحبوب اللعينة. إنها تسيطر على جسدي. أنا

1 - الاسم التجاري لدواء ليفيتراسيتام وهو مضاد للصرع.

أجن. أحتاج إلى أن أطردها من جسمي. صاح صوت بداخلي: «تقيئيها! أخرجيها من جسدك!». دفعت الملاءات وقفزت من فوق السرير. كيبرا، كيبرا. ذهبت إلى حمام الردهة وفتحت الماء ثم ركعت على ركبتيّ، وانحنيت على المرحاض. حشرت أصابعي في حلقي، حركتها حتى تقيأت. لويتها أكثر. تقيأت سائلاً أبيض رفيعًا. لم تخرج أي مادة صلبة لأني لم آكل منذ... لا يمكنني تذكرآخرمرة أكلت فيها. كيبرا اللعين. ضغطت مفتاح السيفون فاندفع الماء في المرحاض. أغلقت الماء وغادرت الحمام.

الشيء التالي الذي أتذكره هو أنني وجدت نفسي في الطابق الثالث حيث تنام أمي وآلن. انتقلا للطابق الثالث عندما كنت وجيمس في سن المراهقة كي لا يزعجهما ضجيج وصولنا المتأخر ليلًا. الآن كنت أقف أمام سرير أمي وأراقبها وهي نائمة. ألقى القمر نصف المكتمل نوره عليها. بدت ملامحها بريئة مثل طفل وليد. انتابتني مشاعر حنان جارف فانحنيت ومسدت شعرها بيدي. استيقظت أمي مفزوعة.

«أوه... سوزانا! هل أنت بخير؟»

«لا أستطيع النوم».

عدلت من شعرها المنكوش بسبب النوم ثم تثاءبت قائلة: «لننزل». همست لي، ثم أمسكت بيدي وقادتني إلى حجرة نومي ثانية. استلقت بجواري على السرير وأخذت تسرح شعري المتشابك بيديها الجميلتين لساعة كاملة حتى.. نامت هي. أنصتُّ لصوت تنفسها الرقيق المنخفض، شهيق وزفير. حاولت أن أقلده. لكن لم أستطع النوم.

في اليوم التالي، 18 مارس 2009، في الساعة 2:30 بعد الظهر، كتبت أول مستند في سلسلة من مستندات الوورد التي ستصبح نوعًا مؤقتًا من

اليوميات خلال تلك المدة. تكشف تلك المستندات عن عملية تفكيري المفككة وغريبة الأطوار أثناء مرضي:

ببساطة، أنا مصابة باضطراب ثنائي القطب وهذا ما يجعل مني أنا. يجب أن أستعيد السيطرة على حياتي. أحب عملي. أحبه. يجب أن أقطع علاقتي بستيفن. عادة أستطيع قراءة الناس جيدًا لكني مشوشة جدًا. يجب أن أترك العمل فهو يحرمني من أشياء كثيرة جدًا في حياتي.

أثناء محادثة أجريتها مع والدي سابقًا في ذلك اليوم حيث ناقشنا مستقبلي،وجدت نفسي أخبره أني أود العودة إلى الجامعة، كلية لندن للاقتصاد تحديدًا، رغم أني لم أدرس إدارة الأعمال من قبل. اقترح علي أبي بحكمة ورقة أن أدوّن كل الأفكار التي تخطر ببالي. كان ذلك ما قمت به في الأيام القليلة التالية:

اقترح علي أبي أن أكتب يومياتي وهو شيء سيساعدني بكل تأكيد. أخبرني أن أجمع أجزاء قصتي كما لو كانت قطع بازل وهذا اقتراح ذكي لأنه يفكر أيضًا باستخدام أسلوب البازل. (يبحث عن الطريقة التي تتوافق بها الأشياء كقطع البازل للوصول إلى الصورة الكبيرة).

أحيانًا أكتب عبارات فوضوية وغير متماسكة، لكن أحيانًا أخرى أكتب عبارات صادقة وكاشفة بشكل غريب، عبارات تزودني الآن بمدخل عميق إلى أماكن من حياتي لم أتفحصها من قبل. كتبت عن عشقي للصحافة:

ترى أنجيلا شيئًا داخلي لأنها تعرف كم من الصعب أن تكون جيدًا في هذه المهنة لكن هذه هي الصحافة، مهنة المتاعب. وليس ذنبي أني أملك جرأة قوية لامتهانها.

كتبت عن حاجتي لوضع نظام لحياتي التي تنهار بسرعة:

الروتين مهم بالنسبة إلي وكذلك النظام. بدونه أصير حمقاء قليلًا، تسير بلا هدف.

بينما أكتب هذه الجمل وغيرها، شعرت أني أجمع قطع البازل، كلمة بجوار كلمة، مما سيفسر المشكلة التي أواجهها في النهاية. لكن كانت الأفكار داخل رأسي متداخلة مثل مجموعة من العقود المتشابكة داخل صندوق مجوهرات. كلما اعتقدت أنني تمكنت من فصل فكرة ما، سرعان ما أدرك أنها متصلة بشبكة معقدة من الأفكار الأخرى. الآن بعد مرور سنين، تطاردني مستندات الوورد تلك أكثر من أي ذكرى غير موثوق في حقيقتها لتذكرني بما مررت به. ربما ما قاله توماس مور صحيح حقًا:

«من خلال الغموض والجنون فقط، يمكن للإنسان اكتشاف حقيقة روحه».

***

تلك الليلة، توجهت إلى حجرة المعيشة وأعلنت لأمي وآلن: «لقد اكتشفت المشكلة. إنه ستيفن. علاقتي به تضع عليّ ضغوطًا كبيرة.. كبيرة جدًا.. أنا ما أزال صغيرة للغاية».

أومأ الاثنان تصديقًا على كلامي. غادرت الحجرة لكن بعد أن مشيت خطوات قليلة، برز حلٌ آخر في ذهني. عدت ثانية للحجرة. «في الحقيقة. المشكلة هي ذا بوست. لست سعيدة في الصحيفة، وهذا يجعلني أفقد عقلي. أريد العودة إلى الجامعة».

أومأ الاثنان مجددًا. غادرت لكن سرعان ما عدت من جديد. «لا، المشكلة هي أسلوب حياتي. إنها نيويورك. ضغوط الحياة أكبر مني. يجب أن

أعود إلى سانت لويس أو فيرمنت أو أي مكان أهدأ. نيويورك لا تناسبني».

هذه المرة، حدقا نحوي والقلق يعلو وجهيهما، مع ذلك استمرا في الإيماء آليًا. غادرت ثانية حيث ذهبت إلى المطبخ قبل أن أعود إلى حجرة المعيشة للمرة الألف. هذه المرة أعرف المشكلة حقًا. هذه المرة اكتشفت الحقيقة.

احتكت السجادة الشرقية بخدي. شوّهت قطرات دم بيضاوية نقوش السجادة. دوت صيحة أمي.

لقد انهار جسدي على الأرض، وعضضت لساني وبدأت في التشنج مثل سمكة وجدت نفسها خارج المياه فجأة. رقص جسدي في حركات مرتعشة. اندفع آلن، ووضع إصبعه في فمي ليمنع اختناقي لكن بفعل الانقباض العضلي لفكي، عضضت على إصبعه بقوة مضيفة دمه إلى دمائي المتساقطة.

استعدت وعيي بعد دقائق على صوت أمي تتحدث في الهاتف مع د. بايلي، تبحث بجنون عن بعض الإجابات. أصر على أن أستمر في تناول الدواء وأن أحضر يوم السبت لإجراء رسم كهربائي للمخ «EEG» لمعرفة النشاط الكهربائي في دماغي.

***

بعد يومين من تلك الحادثة، أي يوم الجمعة، جاء ستيفن إلى سوميت لزيارتي. اقترح عليّ الخروج من البيت لتناول العشاء. منحته أمي وآلن ملخصًا لسلوكي المتدهور فكان على درجة عالية من اليقظة، لكنه كان يعرف أيضًا أهمية الخروج من البيت بالنسبة إليّ (بسبب خطر إصابتي بنوبة أثناء القيادة، كنت ممنوعة من قيادة السيارة) والحفاظ على بعض من مظاهر الحياة التي تشعرني باستقلالي. اتجهنا إلى حانة إيرلندية في مابلوود في نيوجيرسي لم

أذهب لها من قبل. كان البار مزدحمًا بالعائلات والمراهقين. حام البشر حول منضدة مالكة البار من أجل الحجوزات. عرفت من اللحظة الأولى أن هنالك الكثير جدًا من الناس هنا. كانوا جميعًا يحدقون نحوي. يهمسون فيما بينهم: «سوزانا، سوزانا». يمكنني سماع ذلك. شعرت بالاختناق وبدأت أتعرق.

«سوزانا، سوزانا» كرر ستيفن ندائه. «تقول إن علينا الانتظار لأربعين دقيقة. هل تودين الانتظار أم الذهاب؟» أشار نحو مالكة الحانة التي كانت بدورها تنظر إليّ بفضول.

«اممم... اممم..» قلت بتردد. الرجل العجوز الذي يبدو أنه يرتدي باروكة ينظر إلي بسخرية. رفعت مالكة الحانة حاجبيها. «امم... امم..»

أمسك ستيفن بيدي وأخرجني من الحانة. الآن يمكنني التنفس ثانية. قاد ستيفن السيارة إلى ماديسن. أخذني إلى بار متواضع اسمه «هيربي المسكين» حيث لا يوجد انتظار. وقفت النادلة، سيدة في منتصف الستينيات بشعرها المتجعد المصبوغ باللون الأشقر، ولا يخلو من شعيرات رمادية، أمام طاولتنا منتظرة أخذ طلبنا. لكني حدقت في القائمة دون أن أنبس بكلمة.

«ستأخذ سندوتش دجاج». قال ستيفن بعد أن بدا واضحًا أنني غير قادرة على اتخاذ مثل هذا القرار اللحظي. «وأنا سأخذ سندوتش روبن».[1]

عندما أتى الطعام، لم أستطع التركيز سوى في الصلصلة الفرنسية المُشبعة بالدهون الموضوعة على سندوتش ستيفن. حدقت في سندوتش الدجاج بتقزز: لا شيء يمكنه إقناعي أن أضع هذا الشيء في فمي.

قلت لستيفن: «إنه... غير مطهي جيدًا».

1- سندوتش روبن: سندوتش مشهور في أمريكا يتكون من اللحم والجبن السويسري والكرنب المخلل وإضافات أخرى.

«لكنك لم تجربيه. إذا لم تأكلي هذا فلن تجدي في البيت سوى كبد الدجاج وسمك الجيفيلت». قال مازحًا مشيرًا إلى عادات آلن الغريبة في الأكل في محاولة منه لتلطيف الجو. أنهى ستيفن سندوتش الروبن بينما تركت أنا سندوتش الدجاج دون أن ألمسه.

بينما نسير نحو السيارة انتابتني رغبتان ملحتان تتصارعان داخلي: إما أن أنفصل عن ستيفن هنا والآن، أو أعترف له بحبي لأول مرة. كانت كلتا الرغبتين متساويتين في الشدة والإلحاح.

«ستيفن، أحتاج حقًا إلى الحديث معك».

نظر إليّ بغرابة. تلعثمت وتورد خداي قبل أن أستجمع الشجاعة للحديث معه رغم أني لم أكن أعي ما الذي سيخرج من فمي. بدا أن ستيفن يضع في ذهنه احتمال أن أنفصل عنه في تلك اللحظة أيضًا.

«أنا... أنا.. أنا أحبك حقًا. لا أعرف. أحبك وكفى».

أمسك يديّ برقة في يديه. «أحبك أيضًا. عليك أن تسترخي وحسب».

لم تكن تلك هي الطريقة التي تمناها كل منا لتبادل هذه الكلمات. لم تكن ذكرى جميلة يمكنك حكايتها لأحفادك، لكن لم يكن باليد حيلة. كنا نحب بعضنا.

لاحقًا في تلك الليلة، لاحظ ستيفن أنني بدأت أحرك شفتيّ بآلية كما لو كنت أمص حلوى. استمررت في لعق شفتيّ لدرجة أن أمي بدأت تدهنها بقطرات من الفازلين لتمنع تشققها وحدوث نزيف. أحيانًا أتوقف عن الحديث في منتصف عبارة ما، وأحدق في الفراغ لعدة دقائق قبل أن أتابع حديثي. في تلك اللحظات، ينحسر سلوكي العدواني المتسم بجنون الارتياب وتحل محله حالة أشبه بالطفل الذي يحتاج إلى رعاية من الجميع.

كانت تلك اللحظات هي الأكثر إثارةً لقلق الجميع لأني عادة إنسان عنيدة تحب الاعتماد على نفسها في كل شيء حتى أثناء طفولتي. لم نعرف وقتها لكن علمنا فيما بعد أنها كانت نوبات جزئية معقدة، أقل أنواع النوبات وضوحًا التي تتميز بحركة مستمرة بالفم وضبابية في الوعي.

كانت حالتي تسوء يومًا بعد يوم، ساعة بعد ساعة، لكن لم يكن يعرف أحد ما يجب فعله. في 21 مارس، في الساعة 3:38 صباحًا، بينما يتعالى شخير ستيفن في الطابق العلوي، كتبت مجددًا في يومياتي على الكومبيوتر:

حسنًا، ليس لديك نقطة بداية لكن عليك أن تبدأي، تمام؟ ولا تنشغلي بالتأكد من الهجاء الصحيح لكل كلمة.

تنتابني تلك الرغبة الملحة أن أعتني بستيفن كطفل بدلًا من أن أسمح له بمعاملتي كطفلة. لقد تركت والديّ يعاملاني كطفلة لمدة طويلة جدًا.

لديك غريزة الأمومة (أحيطيه بذراعك). تشعرين أن عقلك أكثر صفاء وأنت معه.

الحديث مع والدي يجعلني أدرك الحقيقة. أمي تعاملني كطفلة بشكل مبالغ فيه لأنها تلوم نفسها على حالتي. لكن يجب ألا تفعل ذلك. هي أم عظيمة. ويجب أن تعرف ذلك.

من يهتم بما يقوله الناس عني. سأذهب إلى...

ستيفن. هو من يبقيك عاقلة. هو ذكي جدًا أيضًا. لا تدعي تواضعه يخدعك، تمام؟ هو من أوصلك إلى مفترق الطرق هذا ويجب أن تكوني ممتنة له دائمًا. كوني طيبة معه.

عندما أقرأ ذلك الآن أشعر كأني أحدق داخل تيار وعي إنسان غريبة عني. لا أتعرف على المرأة على الجانب الآخرمن الشاشة، والتي كتبت تلك

الكلمات على أنها أنا. لكن يمكنني أن أفهم أنها حاولت بشدة أن تتواصل مع جزء مظلم وعميق داخلها من خلال الكتابة. ما تزال تلك المرأة غير مفهومة بالنسبة إليّ.

(12)

الخدعة

في صباح السبت، حاولت أمي أن تجعلني أذهب إلى د. بايلي من أجل الرسم الكهربائي للمخ. لقد مررت بنوبتي صرع واضحتين (وعدد كبير من النوبات اللحظية التي لا يمكن تمييزها)، وظهرت علي أعراض متزايدة تثير القلق في الأسبوع الفائت وحده، واحتاجت عائلتي إلى إجابات.

قلت متجهمة، وأنا أطرق الأرض بقدمي مثل طفلة في الثانية من عمرها: «لا.. أنا متأكدة. أنا على ما يرام. لا أحتاج إلى هذا».

خرج آلن ليدير محرك السيارة بينما يتوسل ستيفن وأمي إليّ.

أجبت: «لا، لن أذهب. لا».

«يجب أن نذهب. رجاءً فقط ارتدي ثيابك، ودعينا نذهب».

قال ستيفن لأمي وهو يقودني إلى خارج الحجرة: «دعيني أتحدث معها للحظة.. والدتك تحاول فقط أن تساعدك وأنت تثيري غضبها. رجاءً هل يمكنك أن تأتي وحسب؟»

فكرت في الأمر للحظة. أحب أمي. حسنًا. نعم، سأذهب. ثم في اللحظة التالية - لا! لا يمكنني المغادرة. أخيرًا بعد نصف ساعة أخرى من محاولة إقناعي، ركبت في المقعد الخلفي للسيارة بجوار ستيفن. بينما تتجاوز السيارة

مدخل البيت إلى الشارع، بدأ آلن في الكلام. يمكنني سماع صوته بوضوح، رغم أنه لا يحرك شفتيه.

أنت عاهرة. أعتقد أن على ستيفن معرفة ذلك.

اهتز جسدي غضبًا، وانحنيت باتجاه مقعد القيادة وقلت بنبرة مهددة: «ماذا قلت؟»

قال آلن بمزيج من الدهشة والتعب: «لا شيء». كانت هذه هي القشة الأخيرة. بهدوء، نزعت حزام الأمان، وفتحت باب السيارة، وأنا مستعدة للقفز خارجها على رأسي. جذبني ستيفن من ظهر قميصي وأنا في منتصف القفزة، وأنقذني من رمي نفسي خارج السيارة. ضغط آلن الفرامل بقوة.

صرخت أمي: «سوزانا، ماذا تفعلين بحق الجحيم؟»

«سوزانا!!» قال ستيفن بصوت عالٍ كدوي جرس. لم أسمعه يصرخ هكذا من قبل. «ما تفعلينه ليس صوابًا».

عدت الكائنة المطيعة ثانيةً. أغلقت الباب وعقدت ذراعيّ. لكن تكة قفل الأطفال[1] أدخلتني ثانية في حالة جنونية. ضربت بجسدي الباب المغلق في هستيريا، وصرخت: «دعوني أخرج! دعوني أخرج!» كررت صراخي حتى استنزفت طاقتي كلها قبل أن أستند برأسي على كتف ستيفن. غفوت للحظات.

عندما فتحت عينيّ ثانية، كنا قد خرجنا من نفق هولاند ودخلنا إلى تشاينا تاون، حيث حلقات السمك وأفواج السياح، وبائعي الحقائب المقلدة على جانبي الطريق. أثار المشهد المُنفر اشمئزازي.

1- زر بجوار قائد السيارة يغلق أقفال كل أبواب السيارة دفعة واحدة. يستخدم غالبًا لمنع الأطفال من فتح السيارة أثناء سيرها ومن هنا جاءت التسمية.

«أريد قهوة. أحضروا لي قهوة الآن.أنا جائعة، أطعموني». طالبت بنفاد صبر كأني طفلة.

سألت أمي: «ألا يمكنك الانتظار حتى نصل إلى المدينة؟».

«لا، الآن!» فجأة بدا ذلك أهم شيء في الكون.

انحرف آلن بالسيارة وكاد يصطدم بسيارة مركونة. سلك الطريق غرب برودواي إلى داينر سكوير[1] وهي إحدى أحدث حافلات الطعام في نيويورك وأفضلها خدمة. لم يتمكن آلن من معرفة كيفية إعادة فتح قفل الأطفال الذي لم يستخدمه من قبل أبدًا، فتسلقت فوق جسد ستيفن لأخرج من الباب المجاور له آملة أن أختفي قبل أن يدركوا هدفي. شك ستيفن في الأمر فتبعني. لم أستطع التملص منه. دلفت إلى الداينر بحثًا عن فنجان قهوة وسندوتش بيض. كان صباح أحد لذا كان طابور الطلب طويلًا. لكن من المحال أن أنتظر. دفعت سيدة عجوز من طريقي بوحشية. لمحت طاولة فارغة فجلست عليها. صحت بغضب دون أن أوجه كلامي إلى شخص معين: «أريد قهوة!!»

جلس ستيفن على الكرسي المقابل لي. «لا يمكننا البقاء. ألا يمكنكِ أن تحصلي على القهوة ثم نذهب؟»

تجاهلته. طقطقت أصابعي. وصل النادل.

«قهوة وسندوتش بيض».

أضاف ستيفن له: «سنأخذ الطلب معنا». كان مصعوقًا – و له الحق في ذلك – من سلوكي. قد أكون عنيدة أحيانًا لكن لم أكن وقحة أبدًا. من حسن

---

1 – داينر/ حافلة طعام: مطاعم تتخذ شكل حافلة تقدم وجبات ومشروبات سريعة تخدم الطرق السريعة بشكل أساسي وتعمل طوال الـ 24 ساعة.

الحظ، كان الرجل خلف منضدة الحساب قد استمع إلى محادثتنا فصاح منقذًا النادل: «لقد فهمت طلبك». أعطانا ظهره، وبدأ يطهو البيض. بعد دقيقة، سلّمنا كوب قهوة ساخنة وسندوتش بيض بالجبنة في كيس ورقي بني. خرجت من حافلة الطعام باختيال وتبجح. كان كوب القهوة الورقي ساخنًا للغاية لدرجة أنني أحرقت يدي لكن لم أبالِ. لقد جعلت أشياء تحدث. كنت قوية. حين طقطقت أصابعي، هرول الناس لتلبية طلبي. في النهاية إذا كنت غير قادرة على فهم السبب الذي يجعلني أتصرف بهذه الطريقة، على الأقل يمكنني استغلالها لأتحكم في الناس من حولي.

رميت ساندوتش البيض دون أن آكله في أرضية السيارة.

قال ستيفن: «ألم تقولي إنك جائعة».

«لم أعد جائعة».

في المقعد الأمامي، تبادلت أمي وآلن النظرات.

لم يكن الطريق مزدحمًا إلى المدينة لذا وصلنا بسرعة إلى عيادة د. بايلي. عندما دخلت إلى عيادته، شعرت باختلاف في المكان. شعور بوجود شيء غريب ودخيل. شعرت كأني جونزو وهو يدخل الكازينو بعد أن تناول المسكالين[1] في «الخوف و الكراهية في لاس فيجاس»[2]. لا شيء كان كما يبدو حقًا، وكل شيء كان مفعمًا بمعنى كابوسي. بدا المرضى الآخرون في حجرة الانتظار وكأنهم رسوم كاريكاتيرية ساخرة، كائنات دون البشر، بينما بدا الجدار الزجاجي الذي يفصلنا عن مكتب عامل الاستقبال بربريًا بشدة. ابتسم الوجه في لوحة ميرو لي بتكشيرته الملتوية غير الطبيعية. لا أدرى كم

1- مسكالين: مادة مهلوسة لها تأثير مشابه للـ «LSD».

2- فيلم أمريكي من إنتاج سنة 1998.

انتظرت. قد تكون دقائق أو عدة ساعات. لا وجود للزمن هنا. في النهاية استدعتني تقنيةٌ في منتصف العمر إلى حجرة الفحص. كانت تجلس أمام طاولة بعجلات. أخرجت صندوقًا مليئًا بالأقطاب الكهربائية، وألصقت الواحد وعشرين قطبًا كلها، قطبًا تلو الآخر فوق رأسي. كانت تمسد فروة رأسي الجافة أولًا ثم تثبت القطب على رأسي بمادة هلامية. أطفأت الأنوار.

قالت: «استرخي وأغلقي عينيك. لا تفتحيهما حتى أطلب منك ذلك. تنفسي بعمق وازفري الهواء بعمق. نفس كامل كل ثانيتين».

تولّت هي العد. واحد، اثنان.. زفير. واحد، اثنان.. زفير. ثم أسرع، واحد، زفير. واحد، زفير. استمر الأمر لمدة طويلة جدًا. احمر وجهي، وبدأت أشعر بالدوار. سمعت حركة شيء ما في يدها. فتحت عينيّ بدرجة تكفي أن أراها تمسك بكشاف صغير في يدها.

قالت: «افتحِي عينيك، وانظري مباشرة للضوء». كان الضوء يومض مثل الستروب[1] لكن دون نسق معين.

عندما أضاءت الحجرة ثانية لتزيل الأقطاب، بدأت تسألني:

«إذًا أنت طالبة؟»

مكتبة
t.me/t_pdf

«لا».

«ما وظيفتك؟»

«أنا محررة. أكتب في صحيفة».

«عمل موتر للأعصاب؟»

«بالتأكيد، أعتقد ذلك».

---

1 - جهاز لديه القدرة على الوميض لأكثر من مئة ومضة في الثانية الواحدة.

«لا تعانين من أي شيء». قالت وهي تعيد الأقطاب إلى الصندوق. «لقد رأيت حالتك هذه عشرات المرات، معظمهم مصرفيون وموظفون في وول ستريت. يأتون إلى هنا وهم يعانون من توتر عصبي. لم يكن هنالك أي شيء يدعو للقلق في حالتهم. كان الأمر كله في رؤوسهم».

الأمر كله في رأسي! عندما أغلقت الباب ورائي، ابتسمت. تحولت الابتسامة إلى ضحكة. قهقهة عالية تقطر بالمرارة والسخط. كان هذا كله خدعة حاكوها كي يعاقبوني على سلوكي السيء، وكي يوهموني أنني قد شفيت فجأة. لماذا يحاولون خداعي؟ لماذا يخططون لهذا الشيء المدروس بعناية؟ تلك التقنية لم تكن ممرضة بل كانت ممثلة مستأجرة.

كانت حجرة الانتظار خالية إلا من أمي. غادر آلن ليحضر السيارة بينما ستيفن وقد تملكه القلق بسبب سلوكي المخيف قد خرج ليتصل بأمه بحثًا عن السلوان والنصيحة. منحتُ أمي ابتسامة واسعة كاشفة عن أسناني.

«ما الشيء المضحك هكذا؟»

«أوه! ظننتِ أنني لن أكتشف الأمر. أين العقل المدبر؟»

«عما تتحدثين؟»

«أنت وآلن دبرتما كل هذا. لقد استأجرتما هذه السيدة. لقد استأجرتما كل شخص هنا. لقد أخبرتماها بما عليها قوله. أردتما أن تعاقباني. حسنًا، لقد فشل الأمر. أنا أذكى من خدعكم».

فغرت أمي فاهها من الذعر لكن جنون الارتياب المسيطر علي لم يقرأ في تعبير وجهها سوى تظاهرٍ مصطنع بالمفاجأة.

(13)

بوذا

طوال الوقت الذي قضيته في سوميت، كنت أتوسل كي أعود إلى شقتي في مانهاتن. شعرت أنني تحت مراقبة عائلتي باستمرار. لذا في يوم الأحد، اليوم التالي لرسم كهرباء المخ، وافقت أمي المجهدة - من ليالٍ دون نوم ومن متابعتي باستمرار طوال الأسبوع الذي قضيته معها - ضد نداء عقلها أن تسمح لي بالعودة لشقتي بشرط واحد: أن أقضي الليل في بيت أبي. رغم سلوكي المتدهور يومًا بعد الآخر، كانت ما تزال تواجه صعوبة في استبدال الصورة القديمة التي رسمتها لابنتها: ابنة جديرة بالثقة، مجتهدة في عملها، ومستقلة بحياتها، بالصورة الجديدة: الابنة المتهورة ذات التصرفات غير المتوقَعة. لم أتردد في الموافقة على قضاء الليل مع والدي. كنت سأقول أي شيء كي أعود إلى شقتي.

شعرت بأني صرت أكثر هدوءًا بمجرد وصولنا إلى كيتشن هيلز لأني كنت أقترب من حريتي مجددًا. بمجرد أن رأينا أبي وزوجته جيزيل ينتظران خارج المدخل الأمامي لعمارتي، ترجلت من السيارة. لم ينزل آلن وأمي من السيارة لكن انتظرا حتى تأكدا أنني دخلت بسلام للبناية معهما قبل أن يرحلا.

كنت مسرورة بالعودة إلى جنتي الآمنة. هنا حيث قطتي، داستي، قطة زرقاء الشعر عثرت عليها في الشارع. تولى صديقي زاك مهمة الاعتناء بها خلال الأسبوع الذي غبته. كنت سعيدة أيضًا لرؤية ثيابي غير المغسولة

والأكياس البلاستيكية السوداء المحشوة بالكتب والمقالات، وأكياس القمامة الممتلئة حتى آخرها ببقايا الطعام المتعفن. البيت، بيتي العزيز.

سأل أبي: «ما هذه الرائحة؟». لم أنظف البيت منذ آخر مرة زارني فيها، ولم يزدد الأمر إلا سوءًا. فاحت رائحة تعفن بقايا الجمبري الذي أعده ستيفن ليلة نوبة الصرع الأولى. بدون تردد، بدأ أبي وجيزيل في التنظيف. مسحا الأرضيات وطهرا كل إنش في الشقة الصغيرة، لكن لم أعرض عليهما المساعدة قط. فقط تجولت في الشقة أراقبهما وهما ينظفان بينما أتظاهر بلملمة الأشياء.

«أنا إنسانة في غاية الفوضوية!» قلت وأنا أربت على قطتي، وبداخلي شعور غامر بالانتصار. «فوضوية. فوضوية. فوضوية!»

بعد أن انتهيا، لوح أبي لي كي أتبعهما خارج الشقة.

قلت بعدم اكتراث: «لا.. أعتقد أنني سأبقى هنا وحسب».

«لا، بكل تأكيد».

«ما رأيك أن أقابلكما في بروكلين بعد أن أرتب بعض الأشياء؟»

«لا، بكل تأكيد».

صحت: «لن أغادر!».

تبادل أبي وجيزيل نظرات فهم كأنهما توقعا انفجارًا كهذا. بالطبع حذرتهما أمي. جمعت جيزيل أدوات التنظيف قبل أن تغادر البيت كي تتجنب مشاهدة المشاحنة غير السارة التي على وشك الحدوث.

«هيا يا سوزانا، سنحتسي بعض القهوة في مكان ما. سأطبخ لك العشاء. سيكون الأمر لطيفًا وهادئًا. فلتأتِ معي فقط».

«لا!»

«رجاءً، هلا فعلتِ ذلك من أجلي؟»

مرت نصف ساعة لكن في النهاية وافقت، أخذت معي بعض الملابس الداخلية وملابس أخرى نظيفة. بدا أن المرض قد خمد مؤقتًا، ليسمح لسوزانا القديمة العاقلة أن تطفو إلى السطح لمدة وجيزة. تبادل ثلاثتنا الحديث قليلًا بينما نسير نحو محطة المترو في شارع رقم 42. لكن كما هو متوقع لم يستمر هدوئي طويلًا. سرعان ما استولى علي جنون الارتياب ونحن نعبر الجادة التاسعة. لقد أخذ والدي مفاتيح شقتي. لا أملك أي وسيلة للعودة إلى شقتي. أنا سجينته.

«لا. لا. لا!!!» صرخت وأنا أتوقف في منتصف الشارع في لحظة تحول الإشارة للأخضر. «لن أذهب معكما. أريد العودة إلى البيت!»

شعرت بقبضة أبي القوية تطوق ذراعي بينما يدفعني بعيدًا عن السيارات العابرة. تابعت الصياح بينما يحاول إيقاف سيارة أجرة. حين توقفت سيارة، دفعني إلى الداخل، بينما ركبت جيزيل من الجانب الآخر، وهكذا صرت محاصرة بينهما. كانا مصممين على منع أية محاولة هروب أخرى.

صحت في وجه السائق ذي الملامح الشرق أوسطية: «إنهما يخطفاني! اتصل بالشرطة! اتصل بالشرطة! إنهما يجبراني على الذهاب معهما».

نظر إلينا في المرآة دون أن ينطلق بالسيارة.

«دعني أذهب. سأتصل بالشرطة!»

قال السائق: «اخرجوا. غادروا السيارة، الآن».

أزاح أبي الجدار العازل بيننا وبين السائق، وقال بغضب وهو يصرّ على أسنانه. «من الأفضل أن تقود السيارة اللعينة! لا تتوقف أبدًا»

لا أستطيع تخيل ما دار في ذهن السائق. لا بد أن الأمر كان مثيرًا للشك بشكل كبير لكنه امتثل لأوامر أبي في النهاية. ثم سرعان ما زاد من السرعة، محاولًا الخروج من الزحام فوق جسر بروكلين. صحت في وجه أبي: «سأتصل بالشرطة عندما أخرج من هنا. سترى. سيقبضون عليك بتهمة الاختطاف!». حدق السائق بريبة نحونا.

قال أبي بصرامة: «أنتِ من أجبرتني على فعل ذلك». حافظت جيزيل على هدوئها، وأشاحت بوجهها نحو النافذة كما لو كانت تريد محو المشهد من ذهنها. ثم خفّف أبي من حدة صوته قائلًا: «لماذا تفعلين هذا بي؟»

بصراحة لا أدري. لكن كنت مقتنعة تمامًا أني لست آمنة تحت رعايته.

حين وصلنا إلى بيتهما في بروكلين هايتس، كنت منهكة تمامًا وليست لدي القوة كي أدخل في صراع جديد. كنت خائرة القوى، وهو أمر غير مفاجئ فلم آكل أو أنام منذ أسبوع.

عندما دخلنا إلى البيت، توجهت جيزيل وأبي للمطبخ. بدأ كلاهما في إعداد وجبتي المفضلة باستا بيني أرابياتا. جلست على الأريكة في حجرة المعيشة أحدق بانبهار في تماثيل أبي النصفية لإبراهام لينكولن وجورج واشنطن. بيت أبي بمثابة قصيدة تبجيل واعتزاز بالحروب الأمريكية، فهو يعج بالتحف والتذكارات التي تمتد من حرب الاستقلال حتى الحرب العالمية الثانية. يطلق على إحدى الحجرات الفاصلة بين حجرة المكتب وحجرة المعيشة اسم «حجرة الحرب». تحتوي الحجرة على بنادق قديمة من الحرب الأهلية، بنادق أم 1 التي استخدمت في العديد من الحروب بدءًا من الحرب العالمية الأولى حتى حرب فيتنام، ومسدسات كولت من القرن التاسع عشر، وسيف وخوذة جندي تعود لحرب الاستقلال.

قبل طلاقه من أمي، كان أبي يبقي معظم هذه الأشياء في حجرة العائلة في منزل سوميت. كان ذلك يخيف الكثير من الفتيان الذين كنت أواعدهم في الثانوية.

أعدّا الطاولة الخشبية الطويلة، ووضعا عليها أطباق مكدسة بالألوان الصارخة - أحمر، أخضر، وأصفر - طماطم وريحان وجبن، ومكرونة في حلة زرقاء. لمعت البانشيتا[1] بشكل غير طبيعي في صوص الطماطم الأحمر كالدم. قاومت رغبة ملحة في التقيؤ أو رمي حلة المكرونة نحو الحائط. اكتفيت بالمشاهدة بينما يأكل أبي وجيزيل الباستا في صمت.

بعد العشاء، ذهبت إلى المطبخ كي أشرب. وجدت جيزيل تنظف. وبينما هي تمر بجواري كي تضع الصحون في الحوض، سمعتها تقول: «أنتِ طفلة مزعجة ومدللة».

ظلت الكلمات عالقة في الهواء حولي، كسحابة دخان. لم أر فمها يتحرك لكني كنت واثقة أنها تفوهت بتلك الكلمات.

«ماذا قلتِ لي؟!»

قالت بدهشة: «لا شيء».

انتظرني أبي في مكتبه وهو يجلس على كرسيه الهزاز العتيق الذي ورثه عن عمته. قررت ألا أخبره بما اعتقدت أن جيزيل قد نعتني به.

«ابقَ معي هنا». طلبت منه وأنا جالسة على أريكة جلدية بجوار كرسيه. كان التلفاز مغلقًا، لذا كان يتخلل حديثنا القصير فترات غير مريحة من الصمت المطبق. أضفت: «أنا خائفة من البقاء وحدي».

---

1 - البانشيتا هي طبخ لحم الخنزير المقدد على الطريقة الإيطالية حيث يضاف إليه الفلفل الأسود والكثير من التوابل.

قال لي: «بكل تأكيد».

وجدتني بعدها أقول في غضب: «اتركني وحدي! اخرج من الحجرة!» ثم بعد دقائق: «آسفة، هلا بقيت معي رجاء؟»

استمر هذا الشد والجذب لعدة ساعات، تنقّلت من الهستيريا وتوجيه الاتهامات إلى الاعتذار. باستثناء ذلك، لا أستطيع تذكر الكثير عن تلك الليلة، وربما هذه هي الطريقة التي حاول بها عقلي أن يحافظ على شيء من احترام الذات.

لا أحد يريد أن يفكر في نفسه على أنه وحش هادر (وهذا يتضمنني أنا أيضًا). لا يتذكر أبي ماذا حدث أيضًا لكن السبب في ذلك غالبًا أنه اختار نسيان ذلك بإرادته. أعرف أنني قلت له كلامًا جارحًا - شيئًا سيئًا جدًا جعل أبي يبكي، كانت تلك هي أول مرة أراه فيها يبكي في حياتي. لكن بدلًا من أن يثير ذلك عاطفتي نحوه، زاد من حاجتي المريضة إلى التحكم في الآخرين. أمرته أن يغادر الحجرة، وأن يصعد إلى حجرة نومه.

بعد لحظات أتى صوت ارتطام مدوٍ من الأعلى. بوم. بوم. بوم. قررت أن أتجاهله. مشيت إلى حجرة الحرب، والتقطت سيف حرب الاستقلال. نزعته من غمده، وتأملت نصله الحاد بانبهار قبل أن أعيده إلى مكانه. ثم سمعت صوت جيزيل. سمعتها تتوسل أبي:

«رجاءً لا تؤذني. رجاء لا تؤذني بسببها».

ثم سمعت الارتطام الوهمي ثانية.. بوم. بوم. بوم.

عدت إلى حجرة المكتب وجلست ثانية على الأريكة الجلدية. تأملت الحجرة.

ثمة لوحة تصور جنود حرب الاستقلال مفعمين بالنشاط استعدادًا

للحرب. فوق المدفأة، توجد لوحة زيتية تصور مشهد قضبان السكة الحديدية. ينبعث من مدخنة القطار دخان مغطى بسواد الفحم. بدا تمثال لينكولن النصفي كأنه يراقبني بعينيه الضامرتين. بدا بيت الدمى الذي صنعه أبي لي وأنا صغيرة مسكونًا بالأرواح الشريرة.

بوم... بوم... بوم.

كان صوت قبضة يد ترتطم بجسم صلب، جمجمة مثلًا. يمكنني أن أرى الأمر برمته بوضوح تام. أبي يضرب جيزيل لأنه غاضب مني. لا بد أن أجد وسيلة للهروب. لا بد من وجود مخرج ما.

هرولت نحو باب الشقة وأمسكت بمقبض الباب بجنون لكن الباب مغلق. هل يحبسني هنا كي يقتلني بعد أن يتخلص من جيزيل؟ ارتطمت بالباب بكل ثقلي متجاهلة الألم الحاد في كتفي الأيمن. لا بد أن أخرج. لا بد أن أهرب.

صرخت وأنا أضرب الباب بكلتا يديّ: «أخرجوني من هنا! أخرجوني من هنا! ساعدوني!». سمعت صوت خطوات أبي الثقيلة وهو يهبط السلالم فوقي. ركضت. أين؟ الحمام. أغلقت الباب ورائي، وحاولت أن أحرك الخزانة الثقيلة كي أسد الباب. كانت نافذة الحمام على ارتفاع طابقين. خمنت أن بإمكاني النجاة من قفزة كهذه.

«سوزانا، هل أنت بخير؟ رجاءً، افتحي الباب».

نعم، يمكنني أن أنجح في القفز. لكني لمحت تمثال بوذا تضعه جيزيل على حافة النافذة. ابتسم بوذا لي. فابتسمت له.

همس لي: كل شيء سيكون على ما يرام.

(14)

بحث ونوبة صرع

مبكرًا في صباح اليوم التالي، حضرت أمي وآلن كي يأخذاني. بمجرد أن لمحت السيارة السوبارو، أسرعت بمغادرة بيت أبي.

أمرتهما: «لقد اختطفاني. لقد أجبراني على البقاء ضد إرادتي. تحدث أشياء فظيعة في الداخل. قد السيارة بسرعة».

كان أبي قد أطلعهما على ما جرى ليلًا. بعد أن قلت له تلك الكلمات الجارحة التي لا أذكرها، وأصررت أن يتركني وحدي، ذهب إلى حجرة في الأعلى يمكنه منها مراقبتي دون علمي. رغم محاولته البقاء مستيقظًا، غلبه النوم. بمجرد أن سمع صوت خبطاتي على باب البيت، هرول نازلًا السلم ليجدني وقد حبست نفسي في الحمام. تطلّب الأمر منه أكثر من ساعة كي يقنعني أن أخرج، ويجلسني على الأريكة في مكتبه حيث ظل معي حتى الفجر. اتصل بأمي واتفقا على حاجتي إلى دخول المستشفى، لكن ظلا مصممين على عدم وضعي في عنبر المرضى النفسيين.

قاد آلن السيارة إلى عيادة د. بايلي بينما جلست أنا في المقعد الخلفي مستسلمة لمصيري.

احتج بايلي وهو يتصفح ملفي الطبي بسرعة: «كان رسم المخ طبيعيًا جدًا. الرنين طبيعي. الفحص طبيعي. تحاليل الدم طبيعية. كل شيء طبيعي».

«لكنها ليست طبيعية». انفعلت أمي بينما أجلس هناك في غاية الهدوء والأدب ويداي مطويتان فوق حِجري.

تعاهدت أمي وآلن على ألا يغادرا عيادة د. بايلي من دون إدخالي إلى المستشفى.

قال الطبيب: «دعيني أوضح الأمر بأبسط طريقة ممكنة. إنها تفرط كثيرًا في الشرب. لديها الأعراض النموذجية لحالة انسحاب من إدمان الكحول». توافقت أعراضي فعلًا مع حالة انسحاب من إدمان الكحول: التوتر، الاكتئاب، التعب، العصبية، تغير المزاج، الكوابيس، الصداع، الأرق، فقدان الشهية، الغثيان والقيء، الارتباك، الهلاوس ونوبات الصرع. «أعلم أنه من الصعب سماع ذلك عن ابنتك. لكن الحقيقة لا أملك شيئًا آخرًا أقوله. عليها أن تتناول الدواء وتتوقف عن السهر والحفلات». قال وهو يغمز بعينه بخبث نحوي.

«انسحاب كحول؟!» لوحت أمي في وجهه بورقة مكتوبة بيدها بخط أحمر. «هذه هي أعراضها: نوبات صرع، أرق، جنون ارتياب. والأمر يزداد سوءًا، ولم أرها تشرب منذ أسبوع أو أكثر. يجب أن تُحتجز في المستشفى. الآن. ليس غدًا بل الآن».

نظر إليّ ثم إليها مجددًا. لم يكن لديه شك في صحة تشخيصه لكنه عرف أن من الأفضل ألا يجادل الأم.

«سأجرى بعض الاتصالات لأرى ما يمكنني فعله. لكن يجب أن أكرر: حدسي الطبي أنه ردة فعل للإفراط في شرب الكحول».

غادر مكتبه للحظات وجيزة قبل أن يعود حاملاً الأخبار.

«يوجد في مستشفى نيويورك الجامعي جناح يتابع رسم كهرباء المخ

للمرضى لمدة أربع وعشرين ساعة. يناسبك ذلك؟»

قالت أمي: «نعم».

«لديهم سرير جاهز في هذه اللحظة. لا أعرف إلى متى سيظل متاحًا. لذا أنصحك بالذهاب فورًا إلى المستشفى».

قالت وهي تمسك بحقيبة يدها وتطوي ورقتها: «عظيم. سنذهب حالًا».

***

دخلنا عبر باب دوار إلى البهو المُجدَّد حديثًا في المركز الطبي لجامعة نيويورك. تهرول الممرضات في أرديتهن الخضراء يتبعهن مُساعِدات بأردية وردية. يثرثر الأطباء بمعاطفهم البيضاء في الممرات. يتناثر المرضى في المكان، البعض يضع ضمادات، والبعض يمسك بعكازات، والبعض يجلس على كراسي متحركة والبعض نائم على أسرة متحركة. عيون جامدة وألسنة لا تنطق. لا يمكن أن أنتمي إلى هذا المكان.

وجدنا طريقنا إلى منطقة استقبال المرضى. كانت مجموعة من المقاعد تحيط بمكتب صغير تجلس عليه امرأة توزع المرضى على الطوابق والأجنحة المختلفة في هذا المستشفى ضخم المساحة.

قلت: «أريد قهوة».

علا وجه أمي الضيق. «حقًا؟ الآن؟ حسنًا. اذهبي لكن عودي بسرعة».

ما زال جزء في قرارة نفس أمي يؤمن بأن ذاتي القديمة المسؤولة موجودة هناك في مكان ما داخلي. وثقتْ ببساطة أنني لن أهرب. لحسن الحظ، هذه المرة كانت محقة. كان هنالك كشك صغير قريب يبيع القهوة والمخبوزات. اشتريت كابتشينو والحليب رائب.

سألتني أمي عند عودتي: «ما هذا الذي يعلو فمك؟ ولماذا تبتسمين هكذا؟»

المذاق الغريب للرغوة، مزيج من اللعاب والحليب الساخن فوق شفتي العليا. معاطف الأطباء البيضاء. الجو البارد للمستشفى.

«لقد أصابتها نوبة صرع!!!» تردد صدى صياح أمي في البهو الشاسع بينما يحيط ثلاثة أطباء بجسدي الذي لا يتوقف عن الارتعاش.

***

بعد تلك اللحظة، لا أتذكر سوى صور خاطفة ولمحات سريعة من المدة التي قضيتها في المستشفى، ومعظمها هلوسات. على عكس السابق، لم يعد هنالك تواجد ولو بمقدار ضئيل لـ «أنا» الموثوق فيها، لسوزانا التي كنتها طوال سنيّ عمري الأربعة والعشرين. رغم أنني كنت أفقد نفسي شيئًا فشيئًا طوال الأسابيع القليلة السابقة، فإن الانفصال التام بين وعيي وجسدي المادي اكتمل تمامًا في لحظة نوبة الصرع تلك التي أصابتني في بهو المستشفى. في الجوهر، كنت قد رحلت. لم أعد «أنا». أتمنى لو كان بإمكاني فهم تصرفاتي ودوافعي خلال هذه المدة، لكن لم يكن هنالك إدراك عقلي يعمل وقتها. كنت بلا ذاكرة وما زلت لا أملك ذاكرة لما حدث وقتها.

كانت هذه هي بداية شهر الضياع، شهر الجنون.

الجزء الثاني

الساعة

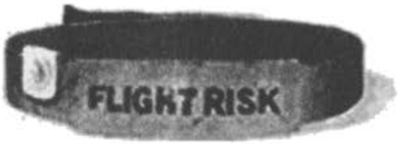

ما تاريخ اليوم؟

من هو الرئيس؟

ما مدى الخطر الذي تمثّله على مقياس من واحد إلى عشرة؟

ماذا تعني «الناس الذين يعيشون في البيوت الزجاجية»؟

كل سيمفونية هي انتحار مؤجل، صح أم خطأ؟

هل يجب أن تُحاسب كل ندفة ثلج على حدوث انهيار جليدي؟

سَم خمسة أنهار.

كيف تتخيل نفسك بعد... عشر دقائق؟

ما رأيك في بعض من موسيقى الكلوروبرومازين[1] الهادئة؟

لو كان بإمكانك قضاء نصف ساعة أخيرة مع والدك، ماذا ستقول له؟

ماذا يجب أن تفعل إذا نمت أنا؟

هل ما زلت تتبع خطواته الأشبه بخطوات الماستدون[2]؟

ما المغزى الأخلاقي لأغنية «ماري لديها حَمَلٌ صغير»؟

ماذا عن ظله الذي يشبه قمة إيفرست؟

هل تقارن تعليمك بمرض نادر جدًا لم يصب به أحد غيرك، أم بالإبادة المتعمدة للشعوب الأصلية؟

1- دواء شهير. يعمل مهدئًا عصبيًا ومضادًا للذهان. يستخدم في علاج الأمراض النفسية كالفصام واضطراب ثنائي القطب وغيرها.

2- من الفيلة العملاقة التي عاشت في العصر الجليدي وانقرضت.

أيهما أكثر غموضًا: وجود المعاناة أم غيابها المتكرر؟

هل يجب أن يُضحى برقم فردي من أجل آلهة السماء وبرقم زوجي من أجل الآلهة تحت الأرض أم العكس؟

هل ستوافق على زيارة بلد لا يتحدث فيها أحد؟

ماذا كنت ستفعل بشكل مختلف لو قُدّرت لك الحياة ثانيةً؟

لماذا أنت هنا؟!

فرانز رايت، قصيدة «حوار مبدئي»، من ديوان الفندق الدوار[1]

1- فرانز رايت (1953 - 2013): شاعر أمريكي شهير فاز بجائزة البولتيزر في فئة الشعر. **الحوار المبدئي أو التحضيري** «intake interview» طبيًا اسم يطلق على المحادثة الأولى بين الطبيب النفسي والمريض يحاول الطبيب فيها من خلال توجيه الأسئلة التعرف على النقاط الأساسية في حالة مريضه. ومن الواضح أن قصيدة فرانز رايت تتخذ منحنى فلسفيًا عبثيًا.

(15)

وهم كابجراس[1]

حُجزت في المستشفى في منتصف ظهر يوم 23 مارس، بعد عشرة أيام من نوبتي الأولى أثناء مشاهدة برنامج جونيث بالترو. يمتلك المركز الطبي في جامعة نيويورك أحدى أكبر الوحدات المتخصصة في علاج الصرع في العالم. لكن السرير الوحيد المتاح في هذا الجناح الذي يتسع لثمانية عشر مريضًا كان في وحدة المراقبة الفائقة، عنبر من أربع أسرّة مخصص لـ «مرضى الشبكة الدماغية»، وهي حالات صرع عنيفة تستلزم غرز أقطاب كهربية في رؤوسهم على شكل شبكة أو قبعة لتسجيل النشاط الكهربائي اللازم قبل إجراء بعض عمليات الصرع الجراحية. من وقت لآخر يستقبل العنبر مرضى آخرين مثلي نتيجةً لنقص الأسرّة في العنابر الأخرى. للعنبر حجرة مستقلة للممرضات حيث يخضع المرضى للمراقبة طوال الأربع والعشرين ساعة. يعلو كل سرير كاميراتان تنقلان بثًا مباشرًا لكل مريض كي يتمكن المستشفى من امتلاك دليل مادي (بالإضافة للدليل الكهربي الذي يوفّره رسم المخ) على حدوث نوبة صرع. (يتخلّص المستشفى من شرائط الفيديو حين يخرج المريض، ما عدا المقاطع التي تظهر نوبات الصرع وأي تصرف غريب من

1- وهم كابجراس: اضطراب نفسي يعتقد فيه المريض أن أقرب الأشخاص له قد انتحل شخصيته شخص آخر مطابق له في الشكل. وهو نوع معقد من جنون الارتياب. يصيب هذا الاضطراب مرضى الفصام أو الجنون أو بعض الأمراض العقلية الأخرى.

المريض). سيصبح نظام المراقبة هذا ضروريًا لي لاحقًا حين أحاول إعادة رسم تفاصيل ما مررت به خلال أسابيع التيه تلك.

بعد النوبة التي تعرضت لها في بهو المستشفى، تبعت أمي وزوجها السرير المتحرك الذي أنام فوقه، والذي يجره الفريق الطبي نحو وحدة الصرع. ثم نقلتني ممرضتان إلى وحدة المراقبة الفائقة. جذبت المريضة الجديدة - أنا - انتباه المرضى الثلاثة الآخرين الذين خيّم عليهم الصمت لحظة دخولي. دوّنت الممرضة المناوبة تاريخي المرضي. كتبت أنني متعاونة وإن كانت ردودي متأخرة قليلًا. عزت ذلك إلى تشوش عقلي بعد نوبة الصرع. عندما كنت أعجز عن الإجابة، كانت أمي الممسكة بملف مكتظ بالأوراق تجيب بالنيابة عني. أرقدتني الممرضات فوق سرير له حاجزان جانبيان لحمايتي من السقوط أثناء النوبة. كان السرير في مستوى منخفض، وقريبًا جدًا من الأرض للغرض نفسه. كل ساعة كانت تأتي إليّ ممرضة لتقيس مؤشراتي الحيوية مثل ضغط الدم ونبض القلب، وتجري اختبارًا عصبيًا بسيطًا. كان وزني قد بلغ الحد الأدنى من الطبيعي. كان ضغطي عاليًا وإن لم يتخطَّ الحد الطبيعي بعد. وكانت نبضات قلبي أسرع قليلًا لكن لا تبعث على القلق إذا أُخِذ في الاعتبار كل ما مررت به. نتائج الكشف الذي غطى كل شيء بدءًا من حركة قناتي الهضمية إلى مستوى وعيي كانت طبيعية كلها. قاطع تقني رسم كهرباء المخ الكشف وهو يجر عربة ورائه. بدأ يخرج حفنة من الأقطاب الكهربية متعددة الألوان - حمراء وصفراء وبنفسجية وزرقاء - مثل التي كانت في عيادة د. بايلي. تتصل الأسلاك بصندوق رسم مخ رمادي صغير يشبه راوتر الإنترنت اللاسلكي، وبدوره يتصل الصندوق بكومبيوتر يسجل موجاتي الدماغية. تقيس تلك الأقطاب النشاط الكهربائي بطول فروة الرأس حيث تتبع النشاط الكهربائي للخلايا العصبية، وتترجمه في صورة موجات.

بمجرد أن بدأ التقني بوضع المادة اللاصقة، توقفت عن التعاون. استغرق الأمر منه نصف ساعة كي يثبت الواحد وعشرين قطبًا وأنا لا أكفُّ عن الحركة والمقاومة.

صرخت في عناد: «رجاءً، توقف!» وأنا أهز كتفيّ، بينما أمي تربت على يديّ محاولة تهدئتي دون جدوى. بتُّ متقلبة المزاج أكثر حتى من وضعي في الأيام الماضية. بدا أن حالتي تتدهور بسرعة مخيفة. في النهاية هدأت ثورتي لكني واصلت البكاء بينما تصل رائحة الصمغ العالقة في الجو إلى أنفي. بعد أن انتهى التقني من تثبيت الأسلاك وقبل أن يذهب، ناولني جهازًا لاسلكيًا صغيرًا يسمح لي بالحركة دون أن ينقطع اتصالي بنظام رسم المخ.

عرف الجميع أنني مريضة صعبة المراس من الطريقة التي كنت أصرخ بها في وجوه الزائرين، وأوبّخ الممرضات في الساعات الأولى لإقامتي في العنبر. عندما وصل آلن أشرت إليه وصحت في وجهه. أمرت الممرضات أن «يطردنّ هذا الرجل خارج الحجرة». بطريقة مشابهة اتهمت أبي صارخةً بأنه مجرم يحاول اختطافي حين أتى لزيارتي، وطلبت منهم أن يحتجزوه. ولأني كنت في حالة من الذُهان، كان من المستحيل إجراء الكثير من الاختبارات.

في مساء ذلك اليوم، أتت طبيبة مخ وأعصاب لتجري فحصًا روتينيًا آخر. لاحظت فورًا أنني «غير مستقرة عقليًا» مما يعني أنني عرضة لتقلبات سريعة في المزاج و «مشوشة التفكير» فقد كنت أقفز من موضوع إلى آخر دون أن أعي ذلك. مع ذلك تمكنت من وصف مرضي السابق بالميلانوما قبل أن يتحول كلامي إلى محض ترهات غير منطقية، فأجّلت المحادثة.

«ما السنة التي شُخِّص فيها مرضك بالميلانوما؟»

«يحاول أن يخدعني».

«من؟»

«أبي!!»

«ماذا تعنين؟»

«يمكنه التحول إلى شخصيات. يتقمص شخصيات مختلفة كي يخدعني».

دوّنت الطبيبة في ورقتها: «لا يمكن الجزم إن كانت تهلوس أم لا». ثم وصفت لي جرعة صغيرة من دواء مضاد للذُهان اسمه زيبراسيدون، يُستخدم عادةً لعلاج أعراض الشيزوفرينيا. طلبت أيضًا استدعاء أحد الأطباء من قسم الأمراض النفسية ليقوم بفحص دقيق.

لم أكفّ عن الاعتقاد أن أفراد عائلتي يتحولون إلى أشخاص غرباء، وهو أحد جوانب هلاوس جنون الارتياب، بل صممت على أن أبي محتال يدّعي أنه أبي. لهذا النوع من الوهم اسم خاص به: متلازمة كابجراس. وصفها الطبيب النفسي الفرنسي جوزيف بوصفها لأول مرة عام 1923م، عندما قابل مريضة تعتقد أن زوجها قد حلّ محله شخص آخر. اعتقد الأطباء النفسيون أن هذه المتلازمة من مضاعفات الشيزوفرينيا أو أمراض عقلية أخرى، لكن أضاف الأطباء متلازمة كابجراس مؤخرًا بصفتها ناتجة لأمراض بيولوجية عصبية مثل إصابات المخ. كشفت دراسة عن أن أوهام كابجراس قد تنبع من خلل في تركيب المخ أو كهربائه، مثل الحالات التي يختل فيها الاتصال بين أجزاء المخ المسؤولة عن الترجمة المنطقية لما نراه (هذا الرجل: شعره أسود وطوله يبلغ5.1 قدمًا، ووزنه 150 رطلاً، إذًا هو والدي)، والأجزاء المسؤولة عن فهمنا العاطفي لما نراه (هذا أبي الذي رباني وأرتبط به وجدانيًا). يشبه الأمر قليلاً فكرة الديجافو، حين نشعر بألفةٍ وحميمية تجاه شيء ما لكن لا يمكننا ربط هذا الشعور بشيء مررنا به من قبل. حين تحدث مثل هذه الاختلالات، يحاول المخ حل هذا التعارض عن طريق

خلق عالم خيالي من جنون الارتياب. (إنه يشبه أبي لكنني لا أشعر عاطفيًا أنه أبي، إذًا هو شخص محتال متنكر في صورة أبي). يبدو ذلك لي كأنه مقتبس بالنص من فيلم «Invasion of the Body Snatchers»[1].

مقطع فيديو مسجل بتاريخ 24 مارس، الواحدة صباحًا، مدته ست دقائق:

كنت نائمة في السرير، أرتدي بلوزة مخططة بالأخضر والبني وقبعة قطنية بيضاء. ملاءات السرير العاجية تغطي جسدي حتى الرقبة، وحواجز السرير المعدنية مرفوعة لأعلى مستوى لها، مما يجعل السرير يبدو من أعلى كمهد طفل كبير الحجم. أنام متخذة وضعية الجنين، ومتشبثة بمخدتي. بعد لحظة أو أكثر، أستيقظ، أعبث بعصبية في القبعة فوق رأسي، أبدو منزعجة. أحاول نزع السوار الذي يحمل اسمي من معصمي الأيمن، أطوي ذراعيّ فوق صدري. أحاول الوصول إلى هاتفي المحمول.

نهاية الشريط

أشعر برغبة في التبول. حملت حقيبة ظهري الوردية ونزعت سلك جهاز رسم المخ عن رأسي، وتوجهت إلى حمام العنبر. خلعت بنطالي الأسود ثم لباسي الداخلي حتى ركبتيّ. لا يمكنني أن أبعد عن تفكيري فكرة أنني مراقبة. نظرت إلى يميني، فوقعت عيناي على عين بنية ضخمة تنظر إليّ من ثقب الباب.

«ابتعد عني!!»

ارتديت ملابسي وهرولت عائدةً إلى سريري. رفعت الملاءة حتى عينيّ. اتصلت بأمي.

1- فيلم رعب خيالي من إنتاج 1978.

«يحاولون إيذائي. يسخرون مني. يحقنون ذراعي بمواد غريبة». همست محاولةً أن أبقي صوتي منخفضًا كيلا يسمعني أحد من المرضى الثلاثة والممرضة في حجرة المراقبة.

قالت أمي: «سوزانا، حاولي أن تهدئي. أعدك أن لا أحد سيؤذيك».

«إنهم يتجسسون علي. يراقبوني حين أدخل الحمام».

صمتت أمي لبرهة قبل أن تتكلم من جديد: «هل هذا حقيقي؟»

«كيف تسألينني هذا السؤال؟ لماذا أختلق ذلك؟»

قالت وقد بدأ الغضب يتسلل إلى صوتها: «سأتحدث معهم بخصوص ذلك».

«هل تعتقدين أنهم سيخبرونك بالحقيقة؟ أجل، نحن نتجسس على ابنتك!! هل تتصورين أنهم سيعترفون؟!»

«هل أنت واثقة أن ذلك يحدث فعلًا، سوزانا؟»

«نعم».

أغلقتُ الخط لأني سمعت صوت حفيف أقدام تقترب. عبرت الممرضة بجوار سريري.

«رجاءً لا تستخدمي الهاتف المحمول بالقرب من جهاز رسم المخ فهو يشوش على عمله والوقت متأخر. الجميع نيام». ثم همست بصوت ناعم يحمل نبرة توبيخ ودون أن تحرك شفتيها. «لقد رأيتك في الأخبار».

«ماذا تقولين؟»

قالت الممرضة: «لماذا لم تسمحي لوالدك بزيارتك؟ إنه رجل طيب».

أحاطني صوتها مثل البخار حتى اختفت خلف الستارة.

الجميع يحاول إيقاعي في المصيدة. لست آمنة هنا. نظرت إلى الكاميرات. إنهم يراقبونني!! إذا لم أهرب الآن، فلن أتمكن أبدًا من الخروج من هنا على قيد الحياة. أمسكت بحفنة من الأقطاب في قبضة يدي وشددتها. نزعتها، ونزعت معها كتلة من الشعر لكن لم أشعر بأي ألم. بذهول حدقت في الجذور السوداء لشعري المصبوغ باللون الأشقر ثم مددت يدي لأنزع المزيد.

***

تلك الليلة، تسللت من العنبر إلى الردهة حيث لحقت بي مجموعة من الممرضات، وقمنّ بإعادتي إلى سريري ثانية بينما أصارعهنّ بشراسة، وأركل وأصرخ. كانت أولى محاولاتي للهروب لكن ليست آخرها.

(16)

غضب ما بعد نوبة الصرع

أتت ديبرا روسو، أخصائية الأمراض العصبية في وحدة الصرع، لزيارتي في اليوم التالي لتجري فحصًا آخر. أتت خلال المدة الصباحية مصحوبة بأطباء وممرضات وعدد من طلاب الطب. كانوا «الفريق» الذي أحبط محاولة هروبي ليلة أمس. بعد أن فحصتْ المكان، وتأكدت من توافر كل الاحتياطات اللازمة للسيطرة على نوبات الصرع، بدأت في إجراء الفحص العصبي.

«المسي أنفك بإصبعك. أخرجي لسانك إلى آخره...». قاطعتها في منتصف الفحص.

«يجب أن تدعوني أخرج من هنا. لا أنتمي إلى هذا المكان». أفضيت لها عما بداخلي والتوتر يعلو وجهي. «الجميع هنا يقولون كلامًا قبيحًا عني».

«من يتحدث إليك؟»

«الناس في شاشة التلفاز».

تركتني د. روسو أثرثر لعدة دقائق قبل أن تغيّر دفة الحديث. «هل يمكنكِ أن تحدثيني قليلًا عما كنتِ تشعرين به قبل دخولك إلى المستشفى؟»

«شعرت كما لو أنني اختفيت من الوجود».

«هل يمكنك أن تشرحي معنى ذلك؟»

«شعرت أنني متعبة. كنت وما زلت متعبة حتى اليوم».

كتبت روسو: «مشوشة للغاية، وأفكارها غير منظمة لدرجة لا تسمح لها بإعطائنا تاريخها المرضي الكامل». ثم تابعت الفحص. «سأسألك بعض الأسئلة البسيطة. حاولي أن تجيبي عنها بقدر الإمكان، تمام؟ ما اسمك؟»

قلت: «سوزانا» وأنا أمد عنقي كي أستطيع رؤية شاشة التلفاز.

«في أي عام نحن؟»

«سمعتِ ذلك؟ إنهم يتحدثون عني. انظري! انظري! يتحدثون عني الآن».

«سوزانا، هلا حاولتِ الإجابة عن أسئلتي؟» قالت د. روسو وهي تشير للممرضة كي تطفئ جهاز التلفاز قبل أن تكرر السؤال «في أي عام نحن؟»

«2009».

«من الرئيس؟»

«أوباما».

«أين أنت الآن؟»

«أريد أن أخرج من هنا. أريد أن أغادر، دعوني أذهب».

«أفهم ذلك. لكن أين أنت الآن؟»

أجبت بعدائية: «المستشفى».

تجاهلت د. روسو نبرة صوتي وتابعت الفحص. وجهّت كشاف ضوء رفيعًا نحو حدقتي عينيّ، لتتأكد من ردة فعل العينين للضوء وحركتهما. كل شيء طبيعي.

«سوزانا، رجاءً ابتسمي لي».

«لا،لا أريد فعل ذلك بعد الآن».

«لم يتبق سوى القليل».

صرخت و أنا أنهض من السرير: «أريد الخروج الآن!!».

انتظر الفريق انتهاء ثورة غضبي. واصلت التحرك ساحبةً معي أقطاب رسم المخ ومندفعة نحو الباب.

زمجرت في وجوههم وأنا أحاول شق طريقي خارج الحجرة: «اتركوني أخرج من هنا. دعوني أعود إلى البيت!»

أعادتني روسو إلى سريري عدة مرات وهي تنادي طالبة مساعدة الممرضة بينما لا أكف أنا على المقاومة. أعطت الإذن بمنحي جرعة من الهالدول[1]. توجهت إلى حجرة التمريض كي تكتب انطباعها عن حالتي: «تعاني من هوس جنوني وأعراض ذُهان». كانت تفكر في تشخيصين: الأول هو اضطراب ثنائي القطب، والثاني هو ذُهان ما بعد نوبة الصرع، وهو سلوك مضطرب عقليًا يتبع سلسلة من نوبات الصرع. ويمكن لهذا السلوك أن يستمر لمدة أقلها اثنتي عشرة ساعة لكن يمكن أن يدوم لمدة تصل إلى ثلاثة شهور، لكن في أغلب الحالات يستمر لحوالي عشرة أيام. في عام 1838 وصف طبيب نفسي فرنسي الحالة باسم «غضب ما بعد نوبة صرع». يعاني نصف مرضى الذُهان الذين يعالجون في عنابر الصرع من هذه الحالة.

لاحقًا في ذلك اليوم، أتى طبيب ثالث يدعى وليام سيغيل بمفرده. قدّم نفسه لي ولأمي التي كانت على دراية بسمعته المرموقة في مجال تخصصه.

1- هالدول: دواء مضاد للذُهان. يستخدم في حالات الصرع والهياج الشديد.

بالأمس ذكرت اسمه لطبيبها فرد عليها: «تواصلتِ مع سيغيل؟ كيف تمكنت من فعل ذلك؟»

يتمتع سيغيل بكريزما طاغية وسلاسة في التعامل. بعد أنهى فحصه لي، مد يده ليصافح أمي قائلًا: «ستتمكن من معرفة التشخيص وستصبح سوزانا بخير».

تشبثت أمي بتلك الكلمات كطوق نجاة، وأطلقت على الطبيب لقب «الدكتور بغزي»[1] تشبيهًا برجل العصابات الذي هامت به في شبابها.

1- بغزي: الاسم الذي كان يطلق على بنجامين سيغيل. أحد أخطر رجال العصابات في تاريخ الجريمة في أمريكا. كان الجميع يهابونه. كان له دور في تشكيل التنظيمات العصابية في لاس فيجاس وتشكيل ما يعرف بالمافيا الأمريكية. وبالإضافة لخطورته فقد كان شديد الوسامة وكان يتصدر الصفحات الرئيسية للكثير من الصحف. اُغتيل في ظروف غامضة ولم يعرف أبدًا هوية قاتله.

(17)

اضطراب تعدد الشخصيات
ازدواج الشخصية

المخ مثل الدائرة الكهربية التي تصل بين مصابيح شجرة عيد الميلاد. عندما يعمل الدماغ بشكل سليم، تتوهج كل المصابيح بضوء ساطع. المخ قابل للتأقلم السريع، لذا في حالة تعطل أحد المصابيح، غالبًا ما تستمر البقية في الإضاءة. لكن أحيانًا المصباح المعطل قد يتسبب في إظلام تام حسب مكان الإصابة.

اليوم التالي للقائي د. «بغزي»، أتت د. سابرينا خان من قسم الأمراض النفسية لرؤيتي. قدّمت نفسها لي ولستيفن. كانت الطبيبة الرابعة التي تنضم إلى الفريق الطبي المسؤول عن حالتي وكانت على علم بمحاولتيّ هروبي. الأولى في الصباح الباكر بعد مكالمتي لأمي، والثانية عصر أمس في وجود د. روسو. في دفتر المتابعة الخاص بها، وصفتني د. خان بالكلمات التالية: «مظهرها غير مرتب قليلًا ومتوترة. ترتدي بيجاما كاشفة لجسمها (بنطلوني الضيق وقميصي الأبيض الشفاف) وتعبث بأسلاك رسم المخ باستمرار».

كان من المهم لها أن ترسم صورة مرئية لحالتي كي تحاول أن توفق بينها وبين الصورة النفسية، لأن مظهري المهمل وغير المبالي قد يكون دليلاً على الجنون. إهمال المظهر العام وفقدان السيطرة على الرغبات الملحّة، والانخراط

في أنشطة تدميرية مثل الممارسة المفرطة للجنس، كل هذه إشارات على الجنون.

رغم أنني لم أعانِ من قبل من أي مرض عقلي إلا أنني كنت في السن الذي تظهر فيه أعراض الأمراض العصبية الكامنة، وغالبًا ما تبدأ في الظهور في نهاية سنوات المراهقة أو أواخر العشرينيات، لكن لا يمنع هذا من حدوثها أيضًا في وقت لاحق من الحياة بالنسبة للإناث.

بينما كانت تكتب، أعلنتُ فجأة دون سابق إنذار: «لدي ازدواج في الشخصية».

أومأت د. خان بصبر. لقد وقع اختياري على تشخيصٍ من أكثر التشخيصات إثارة للجدل في مجال الأمراض النفسية. الآن أصبح اسم ازدواج الشخصية «اضطراب الهوية التفارقي DID». وهو حالة يتقمص المريض فيها عدة شخصيات مختلفة ومنفصلة جدًا عن بعضها لدرجة أن المريض غالبًا ما ينسى وجود «ذواته الأخرى» أثناء تقمص شخصية ما. بعض الأطباء يؤمنون بوجوده، لكن الآخرين (وهم يشكّلون النسبة الأعلى) لا يؤمنون بوجوده (خاصةً أن سيبيل[1] وهي الحالة المتدارسة للمرض كانت محتالة). يخلط الكثير من المرضى بين اضطراب تعدد الشخصيات وبين أمراض عقلية أخرى كالشيزوفرينيا. على أية حال، من الواضح أنني كنت مشوشة حين قلت ذلك.

«هل شخّصك أي طبيب أمراض عصبية أو نفسية في السابق؟»

1- سيبيل: هو اسم كتاب نشرته الصحفية فلورا ريتا شكريبر يتناول علاج الطبيبة النفسية كورنيليا بي ويلبر لحالة سيبيل (الاسم المستعار لشيرلي أردل مايسن: مدرسة رسم ورسامة). حقق الكتاب نجاحًا كبيرًا واعتبر طفرة في تشخيص وعلاج اضطراب تعدد الشخصيات. لكن كشفت شيرلي فيما بعد أن القصة كانت مختلقة مما تسبب في ضجة كبيرة.

«نعم، قالت لي طبيبة نفسية إني مصابة باضطراب ثنائي القطب».

«وهل كنت تتناولين أي دواء للعلاج منه؟»

«لقد رفضت تناوله. لقد تقيأت بعد أن أرغمتني أمي على تناوله. أحتاج إلى الخروج من هنا. لا أنتمي لهذا المكان. مكاني هو عنبر الأمراض العقلية. أنتمي إلى بلفيو[1]. لا أشعر بالأمان هنا».

«لماذا لا تشعرين بالأمان هنا؟»

«الجميع يتحدثون عني. يتحدثون عني ويسخرون مني من وراء ظهري. أنتمي إلى بلفيو حيث يمكنهم الاهتمام بمرضي العقلي. لا أعرف لماذا أنا هنا. يمكنني سماع ما تهمس به الممرضات عني. يمكنني سماع أفكارهن، وهن لا يقلنّ كلامًا طيبًا عني».

دوّنت د. خان: «تهيؤات - جنون ارتياب».

كررتْ كلماتي: «يمكنك سماع أفكارهن؟»

«نعم، العالم بأكمله يسخر مني».

«ماذا تسمعين أيضًا؟»

«الناس في التلفاز يتكلمون عني أيضًا».

دوّنتْ: «أفكار منسوبة»، وهذا يعني إيمان المريض أن مقالات الجرائد أو الأغاني أو برامج التلفزيون تشير إليه مباشرةً.

«هل يعاني أي من أفراد عائلتك من أمراض عقلية؟»

«لا أعرف. ربما عانت جدتي من اضطراب ثنائي القطب. لكن أؤكد لكِ

---

1 - مستشفى بلفيو: أقدم مستشفى للأمراض النفسية في أمريكا، تأسست عام 1736.

أن كل أفراد عائلتي مجانين». ضحكت ثم ثُرت عليها. «تعرفين أنّ من حقي أن أبدي رغبتي في الخروج، أليس كذلك؟ يمكنني أن أغادر هذا المكان. قانونيًا، لا يمكنكم احتجازي هنا ضد إرادتي. من هذه اللحظة أمتنع عن الحديث مع أي شخص».

دوّنت د. خان التشخيصات المحتملة: «اضطراب مزاجي غير محدد الأسباب أو اضطراب عقلي غير محدد الأسباب». كانت تفكر أن في ضوء تعرضي لنوبات الصرع وإصابتي السابقة بالميلانوما، من المهم البحث عن أسباب عصبية عضوية. وإذا لم يُعثر على هذا المسبب الذي يمكنه تفسير الذُهان (الخلل العقلي) المفاجئ الذي ألمّ بي، اقترحت اعتماد اضطراب ثنائي القطب تفسيرًا ممكنًا لحالتي. اضطراب ثنائي القطب هو اعتلال في مزاج المريض، يتميز بنوبات جنون أو تناوب بين نوبات الجنون والاكتئاب. على مقياس من واحد (واحد يمثل حالةً مؤكدةً بأعراض واضحة تمامًا) إلى مئة (مئة تمثّل حالة خاملة دون أي أعراض) منحتني درجة خمسة وأربعين، وهو يعني وجود أعراض جادة لا يمكن إهمالها. أوصت د. خان الإدارة بتخصيص حارس أمن لي ليمنع أي محاولات هروب مستقبلية.

***

لا يمكنني سماع الأصوات بعد الآن. جلدها ناعم جدًا. حدقت في عظام وجنتي الطبيبة وبشرتها الزيتونية الناعمة. أمعنت النظر أكثر وأكثر. تلوى وجهها أمامي. تحولت خصلات من شعرها للرمادي. أحاطت التجعيدات عينيها أولًا ثم شفتيها ثم خديها. في النهاية غطت وجهها كله. بات خداها ضامرين واكتست أسنانها باللون الأصفر. غارت عيناها وفقدت شفتاها شكلها المنتظم. لقد شاخت الطبيبة المفعمة بالشباب أمام عينيّ. أشحت

بوجهي عن وجهها المخيف ونظرت إلى ستيفن الذي كان ينظر إليّ. تحولتْ لحية ستيفن البنية لرمادي باهت. تحول شعره لأبيض ثلجي. ألقيت نظرة على الطبيبة من طرف عيني. الآن بدأت تصغر مع كل ثانية تمر. اختفت كل التجعيدات، واستطالت عيناها واستعادت حيويتها، وتورد خداها وامتلأ وتلون شعرها بلون بني داكن. صارت في سن الثلاثين ثم العشرين ثم الثالثة عشرة.

أمتلك موهبة. يمكنني أن أتحكم في عمر البشر أمامي بقدراتي الذهنية. هذه هي أنا. لا يمكنهم أن ينتزعوا ذلك مني. أنا قوية. أقوى من أي وقت سابق في حياتي.

(18)

أخبار عاجلة

لاحقًا في نفس اليوم، انضم طبيب خامس إلى فريق الأطباء المسؤول عن حالتي. جذبت حالتي اهتمام د. إيان أرسلان، أخصائي علم النفس الدوائي[1]. طوله يتجاوز الستة أقدام، وبدا أنه ينتمي للهيبز أكثر منه إلى الطب. بسبب ولعه بكُتّاب جيل البِيت[2]، وطريقته المعقدة في استخدام الاختصارات الطبية، أطلق عليه زميل له اسم «قاموس البيتنكس[3] المتحرك». كان قد سمع عن محاولات هروبي المتكررة وأوهام جنون الارتياب التي تجتاحني، لذا اجتمع بأمي أولًا، وطلب منها أن تخبره بتفاصيل سلوكي الغريب خلال الأسابيع القليلة الماضية. ثم أجرى حوارًا مع أبي. بعد محادثة قصيرة أجراها معي، أظهرت صورة حية وواضحة لحالتي المرضية، جمع معلومات من فريق التمريض واتصل حتى بالدكتور بايلي الذي أخبره –

1- علم يجمع في دراسته بين علم الأدوية وعلم الأمراض النفسية. يدرس تأثير العقاقير على الحالة النفسية والمزاجية للمريض، والعقاقير التي تعالج الأمراض العقلية ويهتم بحالات الإدمان وعلاجها.

2- جيل البِيت: جيل أمريكي نشأ في الخمسينيات بعد الحرب العالمية الثانية وهو جيل بوهيمي اهتم بتجربة العقاقير المهلوسة وأشكال جديدة للجنس والأفكار المتحررة والروحانيات ورفض الرأسمالية. من أهم كتّابه جان كيروك وألن غينسبرغ ومن الموسيقيين بوب ديلان والبيتلز.

3- البيتنكس: تعني حرفيًا الشاذ. وهو المصطلح السطحي الذي كانت تنتقد وسائل الإعلام به جماعة البِيت.

وفقًا لملاحظات د. أرسلان - «أنني مدمنة كحول وأنني أعاقر الخمر، وقد أشرب زجاجتي نبيذ في الليلة الواحدة». بدا أن يقين د. بايلي من خطاياي قد تضخم كثيرًا.

بعد أن لخّص د. أرسلان كل هذا، دوّن التشخيصين اللذين يريد استبعادهما: ذهان «غضب» ما بعد نوبة الصرع والاضطراب الفصامي العاطفي، وهو اضطراب وُصف لأول مرة عام 1933م في ورقة بحثية بعنوان **الذُهان الفصامي العاطفي**: «كبرق يخرج من سماء صافية، تنفجر الأوهام فجأة فتخل بتوازن العقل السليم، وتصل إلى ذروتها بدون أي مقدمات تحذيرية».

الوصف الأحدث يصفه بأنه تشخيص الحالة التي يتداخل فيها تغير المزاج المميز لاضطراب ثنائي القطب مع أعراض الذُهان المميز للأمراض العقلية مثل الفصام (الشيزوفرينيا). طبعة الدليل التشخيصي والإحصائي الصادر عن المؤسسة الأمريكية للأمراض العصبية والنفسية التي كانت تُستخدم في مدة وجودي في المستشفى تصف هذا المرض بأنه «مدة غير منقطعة من المرض يعاني أثنائها المريض من نوبة اكتئاب شديدة أو نوبة جنون أو نوبة مختلطة (مزيج بين النوعين). كي يُشخّص مريض بهذا المرض، يجب أن يمر بعرضين أو أكثر من الأعراض الآتية: أعراض إيجابية مثل الأوهام والهلاوس والكلام غير المرتب، أو أعراض سلبية مثل الخرس أو اللامبالاة التامة.

***

مقطع فيديو مسجل بتاريخ 24 مارس، الحادية عشرة مساءً، مدته 11 دقيقة:

قال الصوت المسجل مسبقًا: «تم ضغط زر الاستدعاء في حجرة 1279. تم ضغط زر الاستدعاء في حجرة 1279».

ثوب المستشفى يبرز من خلال الأغطية التي سحبتها حتى رقبتي بينما أمسك بهاتفي المحمول أمام أذني. أتحدث بصوت خافت. لا يمكن الجزم إذا كان هنالك فعلاً شخص أتحدث معه على الطرف الآخر أم لا. ثم أمسكت بريموت التلفاز، وتحدثت عبره. هذه المرة يمكن الجزم أنني لا أتحدث مع أحد. أشرت بإصبعي للكاميرا باتهام، ورأسي تعج بالأسئلة. وضعت يديّ على رأسي في غضب.

صرخت: «يا إلهي!» ثم ضغطت زر استدعاء الممرضة.

أتى صوت ممرضة عبر جهاز الاستدعاء: «هل يمكنني مساعدتكِ؟»

«لا، لا، كل شيء على ما يرام».

«سيدتي؟ مدام؟ آنسة؟ أنا قادمة حالًا». تدخلت ممرضة أخرى في المحادثة. غمغمت متحدثة إلى نفسي: «لا أعرف ماذا يحدث. سأغلق هاتفي الآن». قذفت الهاتف تجاه قدم السرير.

أتت ممرضة حاملة بعض الحبوب. بلعتها دون تردد، كما لو كنت أشرب كؤوس تكيلا بشكل متتابع. «لا يمكنني تحمل الأمر. يتحدثون عني في الأخبار».

أجابت الممرضة لكن بصوت منخفض لا يمكن سماعه في الفيديو.

بدأت أصرخ وأركل بساقي وأضغط زر استدعاء الممرضة دون توقف. «رجاء، رجاء، رجاء، سوف أجن. سوف أجن».

«تم ضغط زر الاستدعاء في حجرة 1279. تم ضغط زر الاستدعاء في حجرة 1279».

«رجاء، شغلي التلفاز ثانية. رجاء شغلي التلفاز ثانية!!»

تجاهلت الممرضة ثورتي وتأكدت أن حاجزي السرير مثبتان بإحكام.

صرخت بصوت عاصف: «ألا ترين؟! أنا في التلفاز. أنا في الأخبار».. التقطت الريموت وتحدثت إليه ثانية ثم أحطت رأسي بيديّ، وهززت جسدي للأمام والخلف. «رجاء، رجاء، رجاء، يا إلهي! يا إلهي! رجاءً استدعي طبيبًا. استدعي طبيبًا. رجاء، رجاء، رجاء».

ابتعدت الممرضة. سمعت صوت اندفاع ماء في مرحاض. حدقت مباشرة لأعلى تجاه السقف كما لو كنت أصلي.

نهاية الشريط

***

أعلنت مذيعة الأخبار: «**سوف نتحرى ما يحدث مع محررة الأخبار سوزانا كهالان، الطالبة في جامعة نيويورك**». أنا أتصدر نشرة الأخبار.

«أنا في الأخبار!» أصيح دون مجيب.

«**قُبض على والدها مؤخرًا بتهمة قتل زوجته**». تابعت المذيعة بينما انتقلت الكاميرا لتعرض مشهد والدي وهو يسير مكبل اليدين شاقًا طريقه بين بحر من المصورين، وفلاشات الكاميرات ومراسلين يحملون دفاترهم مستعدين للانقضاض عليه بأسئلتهم.

كم كنت غبية للغاية. لم يكن من المفترض أن أجيب على اتصالات

زملائي في الجريدة. إنهم يدونون ما أقوله لهم. سيكتبون هذا في قصة صحفية عني.

«حقيقة محررة ذا بوست نيويورك تنكشف بعد قتل والدها لزوجته».

«أنا في الاخبار!» ضغطت زر استدعاء الطوارئ. يجب أن يعرفوا المكيدة التي تحاك ضدي. يجب ألا يسمحوا لأحد بالدخول لرؤيتي.

«سيحاولون جميعًا إجراء حوار صحفي معي». صرخت في هاتفي المحمول. تكونت حبات العرق على جبهتي. مسحتها. سمعت قهقة المريضة على السرير بجواري، امرأة من أمريكا الجنوبية تقضي النهار كله متحدثة مع زائريها بالإسبانية - الإسبانية أم البرتغالية؟ الآن هي تضحك عليّ. ربما كانت تضحك عليّ طوال الوقت. سمعت صوت أظافرها الصناعية تضغط مفاتيح هاتفها المحمول. ما زالت تتحدث بالإسبانية أو مهما كانت تلك اللغة، لكن الآن بطريقة ما أفهم ما تقوله.

«هنالك فتاة من ذا بوست نيويورك تشغل السرير المجاور لي. سأصوّرها بهاتفي المحمول وسأعطيك كافة المعلومات وعليك أنت أن تأخذيها لذا بوست. قولي لهم إنها معلومات حصرية من شخص داخل المستشفى». انفجرت ضاحكة مرة ثانية. «هذه الفتاة «لوكا» [مجنونة]... ثقي بي. ثقي بي. إنها قصة جيدة، أعدك. يمكننا أن نكسب الكثير من المال من خلال تسريب هذه الأخبار. هاهاها.. اتصلي بكل محطات الأخبار المحلية. سأخبرهم بكل شيء. فقط تأكدي أننا نحصل على مال جيد من هذا الأمر. هاهاها».

بسسسسسس

ما هذا الصوت بحق الجحيم؟

بسسسسسسسسسسس

سمعت الصوت من جديد.

بسسسسسسس

التفت برأسي لليسار. كانت المرأة الأمريكية الجنوبية قد انتهت من حديثها الجنوني، وأبعدت الستارة بيدها كي أستطيع رؤية وجهها.

«الممرضات هنا سيئات».

«ماذا؟» سألتها غير متأكدة إن كنت قد سمعتها جيدًا أو أنها تكلمت على الإطلاق.

همستْ وهي تشير إلى الكاميرا: «ششش، يمكنهن سماعك. الممرضات هنا لسن طيبات. لا أثق في أي منهن».

نعم! نعم أيتها السيدة الإسبانية الغريبة.. هذا صحيح. لكن لماذا تخبرني بذلك هذه الجاسوسة التي تحاول نقل أخباري؟

أعادت الستارة إلى مكانها لتتركني وحدي. يجب أن أغادر. الآن. مرة أخرى انتزعت الأقطاب من رأسي، حفنة تلو الأخرى، نازعة خصلات من شعري في كل مرة ثم رميتها على الأرض. في لحظة كنت أمام الباب. ثم عبرته. تسارعت ضربات قلبي. يمكنني الشعور بقلبي يقفز إلى داخل رئتيّ. لم يلمحني حارس الأمن. ركضت نحو لافتة «الخروج» الحمراء. ركضت ممرضة محاولة اللحاق بي. فكري، فكري يا سوزانا. انحرفتُ فجأة إلى ممر، وتابعت الركض، عدوت وعدوت.. حتى وجدت نفسي بين ذراعي ممرضة أخرى.

«دعيني أعود إلى البيت! دعيني أغادر!»

أمسكتني من ذراعي وقادتني إلى العنبر. ركلتها. صرخت وحاولت

عضها. يجب أن أغادر. يجب أن أذهب. دعيني أذهب! الجناح البارد ثانية. السيدة الأرجوانية أمسكتني من قدميّ بينما تقبض الممرضة الأخرى على ذراعيّ.

«رجاء، رجاء».. حاولت أن أقول من خلال أسناني المطبقة. «رجاء، دعوني أذهب».

ثم ظلام...

Interval History

<u>Interval History:</u>

Patient became very agitated last evening. She ripped off her electrodes, and ran past 1:1 up and down hallways. This occurred despite receiving Seroquel. She was then given Ativan for agitation, and placed temporarily in a chest posey for safety by on call resident. She also received 25 mg Lopressor yesterday early evening for elevated BP and tachycardia. Vitals were ordered Q4h.

تقرير المناوبة الليلية

مرت المريضة بحالة هياج شديد. نزعت أقطاب رسم المخ وركضت في الممرات. حدث ذلك رغم تناولها كويتياين [دواء مهدئ]. أُعطيت لورازيبام لعلاج هيجانها ثم قُيّدت في الفراش مؤقتًا كإجراء احترازي تحت إشراف الطبيب المقيم. كذلك أُعطيت المريضة 25 مليجرام من ميتوبرولول في ساعة مبكرة من مساء الأمس بسبب ارتفاع ضغطها وزيادة ضربات القلب. يجري التأكد من مؤشراتها الحيوية كل أربع ساعات.

(19)

الرجل الضخم

محاولتا الهروب كفلتا تعيين حارس شخصي لي. الآن، بعد محاولتي الثالثة للهرب، ألمحت الممرضة لأبي أنني إذا استمررت في نزع الأسلاك ومحاولة الهرب، فلن يسمح المستشفى ببقائي.

أخبرتْ أبي: «إذا لم تتوقف عن ذلك التصرف، سوف تُنقل إلى مكان لا يتمتع بنفس مستوى الرعاية، ولن يعجبها ذلك المكان كثيرًا. يمكنني أن أؤكد لك ذلك».

سمع أبي هذا التهديد بوضوح تام. إذا اتّبعتُ نفس الأسلوب فسوف أُنقل إلى عنبر الأمراض العقلية. قرر أنه مهما حدث سيكون دائمًا إلى جانبي. لم نقضِ أنا وهو الكثير من الوقت سويًا منذ طلاقه من أمي، وكان يحاول أن يعوضني عن ذلك الآن. كان قد ترك عمله المصرفي منذ مدة وجيزة، ولذا فكان يتمتع بالحرية والمرونة اللازمة لقضاء الوقت معي، وأراد أن تعلم إدارة المستشفى أن هنالك شخصًا يهتم بي. يعرف انطباع الرهبة الذي يتركه لدى الناس، رغم أن طوله متوسط، وبنيته الجسدية عادية، كانت مربيتي سيبيل تناديه بالرجل الضخم. وكان عازمًا على استغلال ذلك التأثير إذا كان يعني مساعدتي. ولأني لا أسمح له بدخول العنبر لأني ما زلت مقتنعة أنه قتل جيزيل، كان ينتظر في الممر ويقرأ كتابًا.

خلال هذه المدة، غيّرت د. روسو العلة الرئيسية في دفتر الملاحظة اليومي من «ذهان ما بعد نوبات الصرع» إلى «ذُهان ونوبات صرع محتملة» ثم في النهاية إلى «ذُهان» فقط. لم يعد ذُهان ما بعد الصرع تشخيصًا أساسيًا، لأني لم أتعرض لأي نوبة صرع منذ دخولي إلى العنبر. في حالات ذُهان ما بعد نوبة الصرع لا يستمر الذُهان دون انقطاع أو يزداد في حدته من دون حدوث نوبات صرع.

أتت نتائج اختبارات زيادة إفراز الغدة الدرقية التي من الممكن أن تسبّب الذُهان سلبية، لكنهم انتظروا إجراء المزيد من الاختبارات. كنت في حالة اضطراب عقلي مستمر، مما جعل من المستحيل سحب الدم مني أو إجراء أي فحص معملي.

أضافت د. روسو سطرًا جديدًا لدفتر ملاحظتها:

«تُنقل إلى عنبر الأمراض العقلية إن رأى فريق الأمراض العقلية ضرورة ذلك».

وكما فعل د. أرسلان، اختارت د. روسو ألا تخبر والديّ بهذا الاقتراح الجديد. رغم إخفاء الأطباء الكثير من المستجدات عني وعن عائلتي، كان من الواضح أن مكاني في جناح الصرع قد بات مؤقتًا، وأنها مسألة وقت قبل أن أُنقل منه كما حذرت الممرضة أبي، لأن نوبات الصرع قد توقفت ولأني مريضة صعبة المراس.

وحيث إن أبي شعر بتحسن معاملتهم لي، وارتفاع مستوى رعايتي منذ وصوله، حافظ على وعده وبدأ يصل مبكرًا كل صباح.

لم أكن لأنجح وحدي في الانتصار في هذه المعركة. كانت أمي تأتي كل يوم من عملها في ساعة الغداء وفي أوقات الراحة التي كان بإمكانها الحصول

عليها، ثم تعود ثانية بعد الخامسة مساءً. كانت تأتي ومعها دائمًا قائمة من الأسئلة التي لا تنتهي، تطرح السؤال تلو الآخرعلى الأطباء والممرضات بإصرار وعناد، حتى لو بقي عدد كبير من أسئلتها بلا أجوبة. جمعت دفاتر ملاحظات مُفصلة، دوّنت فيها أسماء الأطباء وأرقامهم، ومصطلحات طبية مجهولة بالنسبة لها كي تبحث عن دلالتها. رتبت مع أبي نظامًا كتابيًا لتبادل التطورات الجديدة فيما بينهما حين يكون الآخرغائبًا. رغم مرور ثمانية أعوام على طلاقهما، ما زال من الصعب عليهما التواجد في نفس الحجرة معًا. سمح لهما هذا الدفتر المشترك أن يبنيا قاسمًا مشتركًا من أجل هذا القتال المشترك للحفاظ على حياتي.

لعب ستيفن دورًا عاطفيًا رئيسيًا. قيل لي فيما بعد إنه كان يبدو عليّ الاسترخاء والطمأنينة حين يصل إلى العنبر حاملًا حقيبة جلدية ممتلئة عادةً بأشرطة مسلسل «LOST» وأفلام وثائقية عن الطبيعة لنشاهدها سويًا. في الليلة الثانية من وجودي في المستشفى، أمسكتُ بيده وقلت له:

«أعرف أن هذا كله كثير عليك وقد يتجاوز قدرة احتمالك. سأتفهم إذا خرجت من هنا ولم تأتِ لزيارتي مرة أخرى. سأتفهم إذا لم أرك مرة أخرى أبدًا». قال لي لحظتها إنه أخذ عهدًا على نفسه إن كنتُ في المستشفى فسيكون هو بجواري دائمًا.

لم يملك أي منهم أي فكرة إن كنت سأعود إلى حالتي الطبيعية مرة أخرى، أو إن كنت سأنجو من حالتي هذه. لكن لم يكن المستقبل مهمًا، كان كل ما يهم ستيفن هو البقاء معي ما دمت بحاجة إليه، ولم يغب عني ولو يومًا واحدًا.

في اليوم الرابع انضم الطبيب السادس والسابع والثامن والتاسع إلى فريق الأطباء: أخصائي عدوى يذكّر أبي بعمه جيمي الذي حصل على وسام

القلب الأرجواني بعد أن نجح في اجتياح شواطئ نورماندي في الحرب العالمية الثانية. طبيب روماتيزم أكبر منه شعره رمادي. أخصائي أمراض مناعية يمتلك صوتًا ناعمًا. وأخيرًا طبيب أمراض باطنية يدعى جيفري فريدمان، رجل مفعم بالحيوية والنشاط في بداية الخمسينيات، وكان وجهه يشع تفاؤلًا عفويًا رغم خطورة الموقف.

أظهر د. فريدمان الذي كُلّف بمعرفة سبب ارتفاع ضغطي تعاطفًا فوريًا مع حالتي. لديه ابنتان في نفس سني. حين دخل إلى الحجرة وجدني مرتبكة، شكلي بشع وشعري أشعث، وأتململ بعصبية في السرير بينما ستيفن الجالس بجواري يحاول دون جدوى تهدئتي. بدوت خاملة ومتبلدة المشاعر، ومهتاجة وثائرة في الوقت نفسه.

حاول د. فريدمان الحصول على تاريخ طبي بسيط مني لكني كنت مرتابة للغاية، تستحوذ علي فكرة أنهم «يراقبونني» لدرجة كانت تمنعني من الحديث بشكل منطقي ومنظم. لذا تجاهل الأمر، وانتقل إلى قياس ضغط دمي. أثار ذلك قلقه: قراءة ضغطي كانت 180/ 100. هذه الأرقام يمكن أن تسبّب نزيفًا في المخ أو سكتة دماغية.

فكر د. فريدمان: لو كانت كومبيوتر فلا بد أن نطفئه ونعيد تشغيله. فأوصى بتناولي فورًا لدوائين مختلفين لخفض ضغط الدم.

بينما هو يغادر الحجرة، تعرّف على والدي الجالس في الممر على مقاعد الانتظار يقرأ كتابًا. ناقش الاثنان سلوكي قبل أن يبدأ مرضي، فوصفني والدي بأني شابة نشيطة، وإنسانة صريحة، وطالبة تعرف كيف تصنع صداقات جديدة بسهولة، وتعرف كيف تلهو بجد وتعمل بجد. تتعارض هذه الصورة بشدة مع الشابة المضطربة التي قابلها د. فريدمان وفحصها منذ لحظات. ومع ذلك نظر في عينيّ والدي مباشرة وقال: «كن متفائلًا. سيأخذ

الأمر وقتًا لكنها ستتحسن».

حين واساه الطبيب وربت على كتفه، انهار أبي باكيًا في لحظات وجيزة من الاستسلام.

(20)

ميل الخط

خلال الأسابيع القليلة التي تلت بداية ظهور أعراضي الغريبة، قضى والدي معي وقتًا أكبر بكثير من المعتاد. كان عازمًا على دعمي بأقصى ما يستطيع، لكن أثّر هذا عليه. تناسى بقية حياته، وانسحب منها، ابتعد حتى عن جيزيل. منذ انهياري في شقته، بدأ في كتابة يوميات مستقلة عن اليوميات التي كان يتشارك فيها مع أمي، ليس فقط من أجل أن يحاول فهم التطورات الطبية التي تمر بها حالتي بل كي يساعد نفسه على التكيف مع الوضع. بعد محاولة هروبي الثانية كتب مقدمة مؤثرة وحزينة عن دعائه بأن يأخذ الرب روحه بدلًا مني.

يتذكر تحديدًا صباح يوم رطب بارد في أوائل الربيع، كان يقود السيارة للمستشفى بصحبة جيزيل وقد خيم عليهما الصمت. كان يعرف أنها كانت لتضحي بأي شيء كي تساعده وتشاركه بعضًا من معاناته لكن مع هذا ظل منعزلًا ومتقوقعًا داخل ذاته، يراكم ألمه داخله كما يفعل دائمًا.

أمام المستشفى ودّعها بقبلة قبل أن يحشر نفسه في المصعد المزدحم. كان من الموجع أخذ هذه الرحلة مع الآباء الجدد الذين يستقلون المصعد لقسم الولادة. كان بعضهم يغادر المصعد بحيوية ونشاط، فالحياة بالنسبة لهم كانت في بدايتها. الطابق التالي جناح أمراض القلب، حيث الوجوه التي يكسوها القلق. ثم أخيرًا الطابق الثاني عشر: جناح الصرع. دوره كي يغادر.

بينما يجتاز جناحًا تحت التجديد، التقت عيناه بعيني عامل بناء في منتصف العمر. أشاح العامل بوجهه بسرعة نحو الأرض في حرج. لا تحدث الأشياء الجيدة في الطابق الثاني عشر. الكل يعرف هذه القاعدة هنا.

خلال الأيام الثلاثة السابقة بينما يقضي ساعات في ممر الانتظار خارج حجرتي، كان يولي اهتمامًا بما يحدث حوله. قصة حزينة بوجه الخصوص حدثت في الممر الذي يجلس فيه، حيث كان يتعافى شاب من إصابة بالغة في الرأس إثر سقوطه من فوق عمود. كان يأتي والداه الكبيران في السن كل يوم لرؤيته لكن لم يكن أحد متفائلًا بشأن تعافيه. صلى أبي صلاة سريعة، وهو يرجو الرب أن يكون مصيري مختلفًا عن مصير ذلك الشاب ثم أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يستعد للسؤال عن حالتي هذا الصباح. نُقلتُ إلى حجرة منفردة جديدة وهو ما بدا له خطوة في الاتجاه الصحيح. في طريقه إلى حجرتي الجديدة قابل مريضة أومأت له تحيةً. سألته وهي تشير إلى باب حجرتي: «هل هذه هي ابنتك؟».

«نعم».

همست: «لا تعجبني الأشياء التي يفعلونها بها. لا يمكنني أن أخبرك بالمزيد لأننا مراقبون».

كان هنالك شيء غريب بخصوص هذه المرأة، وشعر أبي باحمرار خديه مُحرجًا من هذه المحادثة. لكن لم يستطع منع نفسه من الاستماع لكلمات المرأة، خاصة أن تحذيراتها تؤكد له الهذيان وجنون الارتياب اللذان أعاني أنا منهما. بطبيعة الحال، كان قلقًا بخصوص ما يحدث في الطابق أثناء غيابه لكنه يعرف في أعماقه أن هذا المركز من أفضل المستشفيات في العالم، وأن مخاوفه غالبًا مُتخيلة وتكمن في رأسه فقط.

قالت: «خذ» وناولت أبي ورقة مكورة خربشت عليها أرقامًا تكاد لا تُقرأ. «اتصل بي وسأشرح لك كل شيء».

وضع أبي الورقة بأدب في جيبه لكنه كان يعرف أن هذه الأرقام وهمية. دفع الباب ليدخل حجرتي الجديدة فكاد يصطدمُ بحارس الأمن الذي كان قد وضع كرسيه خلف الباب مباشرة. كانت الحجرة الجديدة هادئة، ولها عدة نوافذ تتطل على النهر الشرقي و إف دي آر درايف[1]. انسابت الزوارق بصمت في رحلاتها عبر النهر. أسعد أبي هذا التغيير لأنه كان مقتنعًا أن عنبر المتابعة الفائقة بكاميرات المراقبة وحجرة التمريض الملحقة به والحركة المستمرة للمرضى الثلاثة الآخرين قد ضاعفت من توتري.

عندما استيقظت رأيته وابتسمت له. كانت أول مرة أرحب به بحفاوة ودفء منذ تلك الليلة التي يجب ألا نذكرها في بيته قبل دخولي للمستشفى. متأثرًا بسلوكي الجديد معه اقترح أن نتمشى في الطابق معًا كي أحافظ على نشاطي. ورغم موافقتي لم يكن المشي أمرًا يسهل فعله. حرّكت جسدي ببطء شديد كشخص عجوز. شعرت بتيبس عضلاتي وأنا أدفع بجسدي نحو حافة السرير قبل أن أنزل قدمي على الأرض. ألبسني والدي جوارب نظيفة غير زلقة طحلبية اللون ثم ساعدني على النهوض من السرير. لاحظ عدم وجود أقطاب رسم المخ فوق رأسي. سيتضح فيما بعد أنني قد نزعتها ثانية في محاولة هروب فاشلة جديدة أثناء الليل، ولم تسنح الفرصة لهم لإعادة تثبيتها.

حتى المشي لم يعد مهمة سهلة بالنسبة لي. كان أبي سريع الخطى دائمًا. (حين كنت أنا وأخي جيمس صغيرين كان أبي يسبقنا دائمًا أثناء سيرنا في شوارع المدينة المزدحمة). لكنه الآن كان حريصًا على البقاء بجانبي وتوجيهي بينما أرفع كل ساق ثم أهبط بها بطريقة مرتبكة وهزلية كما لو كنت أتعلم

1– طريق سريع في الجانب الشرقي من نيويورك.

المشي من جديد. لم يستطع منع نفسه من رسم ابتسامة سرور على وجهه وهو يرى حركاتي البطيئة.

عندما عدنا إلى حجرتي اقترح أن أبحث عن شيء ما: رمز أو شعار يبقى ذهني متفائلًا.

سألني: «إلام يرمز ميل الخط؟»

نظرت إليه في صمت. قال بنبرة تفاؤل مصطنعة وهو يرفع ذراعه لأعلى بزاوية راسمًا خطًا مائلًا. منحته نظرة خاوية أخرى «أنه موجب. يعني هذا أننا نحدث تقدمًا كل يوم».

***

كنت أتدهور جسديًا، لكن على الأقل تراجعت حالة الذُهان، مما سمح للأطباء أخيرًا أن يحددوا موعدًا لإجراء مزيد من الفحوصات. بدا أن المرض الذي أعاني منه - مهما كان - يمر بحالة من المد والجزر، قمة وقاع من دقيقة لأخرى، ومن ساعة لأخرى. مع هذا انتهز فريق الأطباء هذا التقدم الظاهري لإجراء بزل قطني - يعرف بالتنقيط الشوكي أيضًا - وهو عملية سحب عينة من السائل الشوكي (النخاعي)، وهو سائل شفاف يشبه الماء المالح موجود في المخ والحبل الشوكي. أُجّل الاختبار لخطورة إجرائه في حالتي، لأن البزل القطني يتطلب تعاونًا كاملًا من المريض كي يبقى ساكنا تمامًا لمدة ليست بالقصيرة. أي حركة مفاجئة قد تعني عواقب جسيمة تشمل الشلل وحتى الموت.

رغم تفهم أبي أن البزل القطني خطوة ضرورية للوصول إلى تشخيص، كان هذا الإجراء يرعبه هو وأمي. عندما كان أخي جيمس صغيرًا،

عانى من حمى شديدة مما تتطلب أخذ عينة من السائل الشوكي لاستبعاد الالتهاب السحائي ولم ينس والداي عويل طفلهما وصرخاته المُعذبَة من شدة الألم.

اليوم التالي، 27 مارس كان اليوم الخامس لي في المستشفى، لكن اليوم الثاني فقط لسماحي بدخول والدي إلى حجرتي. أقضي معظم الوقت محدقة في الفراغ دون أن أُظهر أي مشاعر. لقد حل محل الذُهان حالة سلبية من التبلد. مع ذلك، كان يتخلل فترات الخمود والسرحان محاولات قليلة لاستجداء المساعدة. في لحظات التجلي القليلة تلك (والتي كانت مثل كل شيء آخرخلال هذه المدة، ضبابية وتكاد تكون ممسوحة تمامًا من ذاكرتي)، كان يشعر والدي كأن جزءًا ما في داخلي يحاول التواصل معه بينما أردد دون توقف: «إنني أموت هنا. هذا المكان يقتلني. رجاء دعني أغادره».

كانت هذه التضرعات تُؤلم أبي بشدة. أراد بأي طريقة أن يخرجني من تلك الحالة التي تمتص روحي وعنفواني، لكنه كان يعرف أن لا خيار آخر سوى البقاء.

في هذه الأثناء، في ذلك اليوم الذي كان علي إجراء البزل فيه، اضطرت أمي التي زارتني في الصباح أن تغادر لتعود إلى عملها في وسط المدينة بعد الظهر. كانت قلقة للغاية، وظلت تتصل بأبي باستمرار لتطّلع على أي تطورات جديدة. أخفت جزعها عن زملائها في العمل، وحاولت أن تركز على أعباء العمل الثقيلة، لكن ظل تفكيرها يدور حولي. حاولت أن تركز من أجل إنهاء عملها لكن فشلت فشلًا ذريعًا. قالت لنفسها مرارًا وتكرارًا إنها لا يجب أن تشعر بالذنب، وأن أبي يعتني بي.

أخيرًا أتى عامل شاب ليأخذني من أجل إجراء البزل، حيث ساعدني بهدوء كي أنزل من السرير، وأجلس على كرسي متحرك قبل أن يشير لأبي أن

يتبعنا. بعد أن تمكنا من إدخالي إلى مصعد مزدحم، قال العامل محاولًا تبادل حديث قصير: «ما مدى القرابة بينكما؟»

«أنا والدها».

«هل هي مصابة بالصرع؟»

قال أبي بعدائية: «لا».

قال بنبرة اعتذار: «أوه، كنت أسأل فقط لأني مصاب بالصرع».

جر العامل الكرسي المتحرك نحو مصعد آخرثم أخيرًا إلى حجرة انتظار تحوي خمسة أسرة متحركة، ينام على كل سرير مريض وبجواره عامل. وقف أبي بزاوية حاجبًا مجال رؤيتي كي يمنعني من إغراء مقارنة مصيري بمصير المرضى حولي. كرر لنفسه باستمرار: ليست واحدة من هؤلاء المرضى. استدعتني الممرضة. لم يُسمح له بمرافقتي للداخل. كان يعرف أنه مجرد بزل قطني لكن لم يستطع منع ذهنه من التفكير في سيناريوهات كابوسية.

كان مكانًا يرغمك على التفكير هكذا.

(21)

انقطاعات الموت

مر أسبوع تقريبًا على وجودي في المستشفى، لكن داخل المستشفى تشعر أن لا وجود للوقت. شبّه ستيفن جو المستشفى بكازينوهات القمار في مدينة أتلانتا. صفير أجهزة قياس الضغط بدلًا من ضجيج ألعاب الماكينات، ومرضى حزانى متعبون بدلًا من المقامرين الحزانى المتعبين. مثل الكازينو، لم يكن في المستشفى أي ساعة أو تقويم. كانت بيئة مستقرة وساكنة. الشيء الوحيد الذي يحدّد مرور الوقت هو حركة الممرضات والأطباء الدؤوبة.

مما قالته لي أسرتي، فإنني قد أحببت ممرضين: إدوارد وآدلين. إدوارد ممرض مفتول العضلات ذو ابتسامة دافئة، وكان الممرض الوحيد في طابق من الممرضات، لهذا كان غالبًا ما يتصور الجميع أنه طبيب. كان يتعامل مع سوء التفاهم هذا بصدر رحب، محافظًا على وجه بشوش بشكل استثنائي. كان يمزح معي بخصوص فريق اليانكيز وذا بوست نيويورك جريدته المفضلة. في المقابل، كانت آدلين ممرضة في منتصف العمر من أصل فلبيني. كانت مجتهدة في عملها، نشيطة كنمر وصريحة في كلامها وتوفر قدرًا صحيًا من النظام. كما عرفت فقد كان لآدلين تأثيرٌ مهدئٌ علي.

في ذلك الوقت، كانت أسرتي قد تمكنت من خلق روتين يومي تلتزم به. بعد أن صرت مرتاحة لوجود أبي، كان يصل في الصباح ويطعمني فطوري

المكون من زبادي وكابتشينو، ثم يلعب معي بعض ألعاب الورق التي كنت لا أستطيع التركيز فيها بسبب تشوش ذهني. ثم كان يقرأ لي كتابًا أو مجلة بصوت عالٍ أو يكتفي بالجلوس بجواري وهو يقرأ في صمت رواية جيمس جويس «صورة الفنان في شبابه». كل يوم كان يحضر معه طعام جورميه[1] مجهز في البيت مثل الحلوى المفضلة لي: فطيرة الفراولة مع عشبة الراوند. كنت عادةً ما أعطي أطباق أبي لستيفن لأنني لم أكن آكل بشكل طبيعي بعد.

نشأ والدي وهو يشاهد أمه - وكانت ممرضة إيرلندية- تعد أطباق مبتكرة بين مناوبات الطوارئ. كان والدي يطلق الجماح لنفسه أيضًا حين يطبخ. لم تساعدني تلك الأطباق خلال مدة إقامتي فقط بل ساعد الطبخ والدي على شغل باله بشيء آخر غير الأفكار السوداوية حول مرضي.

تصل أمي أثناء ساعة الغداء ثم تغادر، وتعود بعد العمل لتتأكد من سلامتي، وهي تحمل معها دائمًا أسئلة جديدة تولدت في ذهنها عن حالتي. من وقت لآخر كانت تحدق في منظر النهر الشرقي، تتأمل القوارب وهي تعبر لافتة إعلان بيبسي كولا أمام لونج بيتش سيتي بينما تعصر يديها. تفعل عادة ذلك في حالات التوتر بينما تسرح في المشهد أمامها.

في معظم الأيام كنا نشاهد مباريات اليانكيز، وكانت أمي تمنحني ملخصًا عن أخبار اللاعبين المفضلين لدينا. لكن في أغلب الأوقات كانت تكتفي بالجلوس بجواري لتتأكد من أنني مرتاحة، وفوق كل شيء تتأكد من أن أفضل الأطباء يزورونني بانتظام. يصل ستيفن في حوالي السابعة مساء، ويبقى معي حتى أنام قرب منتصف الليل. وافق فريق التمريض على ذلك رغم أن ساعات الزيارة تكون قد انتهت منذ ساعات طويلة، لأن تأثيره

1- لفظة فرنسية تعني الاهتمام بالمذاق واللون وطريقة التقديم.

المهدئ علي يعني أنني لن أحاول الهرب. كل ليلة أشاهد مع ستيفن فيديو من أربع وعشرين دقيقة لرايان أدمز في مهرجان أوستن سيتي ليمتس الموسيقي والذي كان يبدأ من جديد بشكل آلي كلما وصل إلى النهاية. كان ستيفن يتركه دائرًا حين يذهب إلى بيته. تنبعث أغاني الريف البديل[1] مثل «قبلة قبل أن أرحل» و «طريقة صعبة للسقوط» وغيرها كتهويدة تتكرر باستمرار لإنامة طفل، حتى تتأكد الممرضة من نومي، وحينها تطفئ التلفاز.

فكّر ستيفن أن الموسيقى قد تساعدني بطريقة ما على إيجاد ذاتي. لكن لم ينجح ذلك. ففي كل مرة كنت أشاهد شريط الفيديو كان كما لو أنني أشاهده لأول مرة. عطّل المرض ذاكرتي قصيرة المدى، وهي مشكلة تنبع عادةً من خلل في وظيفة الحُصين. يعمل الحُصين كمحطة للذكريات الجديدة حيث «يخزن» مؤقتًا إشارات الخلايا العصبية التي تشكّل الذكرى قبل أن يمررها بعد ذلك لأجزاء المخ المسؤولة عن حفظها لمدة طويلة (تصبح حينها ذكريات طويلة المدى). تُحفظ الذكريات في أجزاء من المخ مسؤولة عن الإدراك والترجمة؛ فتحتفظ القشرة المخية البصرية في الفص القذالي « Occipital» بالذكريات البصرية، وتحتفظ القشرة السمعية في الفص الصدغي بالذكريات السمعية، وهكذا. كي تفهم أهمية الحُصين لدائرة المخ الكهربائية، كل ما عليك أن تفعله هو أن تتخيل أنه قد أُزيل جراحيًا، كما في حالة طبية شهيرة لمريض ذاع صيته في العالم الطبي باختصار هـ. م. أو «H.M.».

في عام 1933م، اصطدمت شاحنة بصبي في السابعة من عمره يدعى هنري غوستاف مولاسن قرب منزله في هارت فورد في كونتيكيت، فقد وعيه على إثر الحادث. بعد هذا الحادث القدري، مر هـ. م. بسلسلة من

---

1 – الريف البديل: نوع من موسيقى الريف الأمريكية (كانتري ميوزك) تختلف عن أغاني الريف التقليدية.

نوبات الصرع التي زادت حدتها حتى عيد ميلاده السابع والعشرين في عام 1953م، فقرر طبيبه إزالة جزء من نسيج مخه الذي اعتقد أنه يمثل بؤرة الصرع. هذا الجزء كان بالطبع هو: الحُصين. بعد تعافي هـ. م. من الجراحة اختفت نوبات الصرع، لكن اختفت معها أيضًا قدرته على صنع ذكريات جديدة. لاحظ الأطباء أن ذكرياته القديمة سليمة حتى سنتين قبل العملية، لكن بعد ذلك عجز هـ. م. عن تكوين ذكريات جديدة. كان يمكنه الاحتفاظ بالمعلومات الجديدة لعشرين ثانية فقط قبل أن تتلاشى. عاش هـ. م. حتى الثمانين من عمره لكنه كان يعتقد دائمًا أنه شاب في منتصف العشرينيات، وهو سنه قبل إجراء العملية. حالته المرعبة والفريدة جعلته أشهر حالة طبية في التاريخ. ساعدت الأطباء على تأكيد وجود «فقدان الذاكرة التقدمي» أو العجز عن خلق ذكريات جديدة بعد حادثة ما. (حالة هـ. م. ألهمت فكرة فيلم تذكار[1]). أثبتت حالته أيضًا وجود نوعين مختلفين من الذاكرة: ذاكرة بيانية (تشمل الأماكن والأسماء والحقائق والأحداث)، وذاكرة إجرائية (حفظ مهارات كعادة تتكرر باستمرار مثل ربط رباط الحذاء أو ركوب الدراجة). فرغم عجز هـ. م. عن خلق أي ذكرى بيانية جديدة إلا أنه احتفظ بذكرياته الإجرائية التي كان قادرًا على تقويتها تلقائيًا بالممارسة.

ومؤخرًا أصيب عازف أوركسترا اسمه كليف ويرينغ بحالة متقدمة من التهاب المخ بسبب فيروس الهربس البسيط «Herpes Simplex»، فأتلف المرض دماغه، ودمر الحُصين. ومثل حالة هـ. م.، لا يستطع ويرينغ خلق أي ذكريات بيانية، مما يعني أن العالم شيءٌ جديدٌ بشكل دائم بالنسبة إليه. لم يستطع التعرف على أبنائه، وكلما وقعت عيناه على زوجته، زوجته التي

1- تذكار أو Momento: فيلم من إخراج كريستوفر نولان عام 2000 وهو مقتبس من قصة بعنوان «تذكر أنك تموت». وتدور أحداثه حول تكرار نفس الحدث لأكثر من مرة.

تزوجها منذ سنين طويلة، وقع في حبها من جديد. كتبت زوجته ديبرا كتابًا عن حالته بعنوان «اليوم للأبد». في الكتاب تقول:

«كان كليف يملك انطباعًا دائمًا أنه استيقظ من غيبوبة لأنه لا يملك أي ذكرى في عقله تشير إلى أنه كان مستيقظًا قبل ذلك. كأنه ولد لأول مرة».

كان ويرينغ نفسه كاتبًا غزير الإنتاج، وكان يحتفظ بدفاتر يوميات ضخمة مليئة بالتفاصيل. لكن بعد إصابته، بدلًا من أن يملأها بعباراته المفعمة بالحكمة وحس الدعابة، كان يكتب الآتي بشكل مستمر:

الساعة 8:31 صباحًا، أنا مستيقظ تمامًا فعلًا.

الساعة 9:06 صباحًا. أنا مستيقظ بشكل مثالي لا شك فيه

الساعة 9:34 صباحًا، أنا مستيقظ بشكل ممتاز جدًا حقًا

تقول ديبورا على لسان زوجها في الكتاب:

«لم أسمع أي شيء من قبل، لم أر أي شيء من قبل. لم ألمس أي شيء من قبل. لم أشم أي شيء من قبل. كما لو أنني كنت ميتًا واستيقظت فجأة».

***

رغم أن حالتي لحسن الحظ لم تكن شديدة كتلك الحالتين، لكنني فقدت أجزاء رئيسية من وظائف مخي. مع ذلك جلبت لي أشياء معينة صغيرة متعلقة بهذا الفقد السعادة: فعجزي عن خلق ذكريات جديدة جعلني أتطلع للمشى البطيء الكسيح مع أبي كل يوم، والذي كان يسمح لي بتفادي الحقن اليومية التي كانت تمنع تكون جلطات الدم في المرضى الذين يلزمون الفراش لوقت طويل.

بالإضافة إلى ذلك، كنت مهووسة بأمرين: التفاح والنظافة. متى سألني أحد ما عن الشيء الذي أريده، كانت إجابتي واحدة دائمًا: «التفاح». كانت لدي رغبة دائمة في التفاح لذا كان كل من يزورني يحضر معه التفاح: أخضر وأحمر، لاذع وحلو. كنت ألتهمها جميعًا. لا أدرى السبب في ترسخ هذه الحاجة الملحة داخلي. ربما سيطر علي وهم «تناولي التفاحة لتبعدي الطبيب عنك». أو ربما نزعة أكثر فطرية وبساطة: التفاح يحتوي على مادة الفلافونويد التي تتميز بتأثيرها المضاد للالتهاب والمضاد للأكسدة على الجسم. هل كان جسمي يحاول أن يخبرني شيئًا لم يفهمه عقلي - ولا أطبائي - بعد؟

صممت أيضًا على تغيير ثيابي وتنظيفها كل يوم. آمنت أمي أن هذا صراخ عقلي الباطن لتخليص جسدي من المرض مهما كانت طبيعته. توسلتُ المرضات أن يساعدنني على الاستحمام رغم ضرورة بقاء شعري جافًا وملتصقًا بجمجمتي بسبب الوجود الدائم لأقطاب رسم المخ. كانت تتولى ممرضتان من أصل جاميكي مسح جسمي بمناشف مبللة ودافئة، ثم تساعداني على لبس ثياب نظيفة وهما تغنيان لي وتناديانى «صغيرتي». كنت استرخي وأنا محاطة برعايتهما. بينما يشاهد أبي سعادتي ورضاي أثناء جلسات الاستحمام تلك كان يتساءل ما إذا كانت لكنتهما الجاميكية أعادتني لأيام الطفولة حين اعتنت مربيتي سيبيل بي كأم ثانية.

في يوم السبت، سمح والدي أخيرًا بقدوم زائرة جديدة: ابنة عمي هانا. تفاجؤها بحالتي عندما وصلت لم يمنعها من الدخول إلى الحجرة والجلوس بجواري كما لو أنها تفعل ذلك كل يوم. في الحجرة مع وجود أمي وستيفن، تأقلمت هانا مع المكان سريعًا كأنها في بيتها. كانت هادئة وداعمة لي.

قالت بوجه مشرق: «سوزانا، تلك هدية عيد ميلادك. لم نتمكن من رؤيتك يومها». وناولتني هدية مغلفة. حدقت بانشداه فيها وعلى وجهي

ابتسامة جامدة. لقد خططت أنا وهانا في فبراير للاحتفال بعيد ميلادي لكني أجلّت الاحتفال بسبب «مرض المونو» الذي اعتقدت أنني أصبت به.

قلتُ: «شكرًا لك».

راقبتني هانا بترقب بينما أحاول أن أخدش بضعف شديد الهدية بقبضة نصف مغلقة لأنزع غلافها. لم أعد أملك القدرة حتى على نزع ورق التغليف. بطء حركتي وطريقة كلامي المتلعثمة ذكّرت هانا بمرضى الباركنسن[1]. تناولت الهدية من يدي بلطف وفتحتها.

قالت: «هذه هي «انقطاعات الموت».. لقد أحببتِ «كل الأسماء» لذا ظننت أنا وأمي أنك ستحبين هذا الكتاب أيضًا».

قرأت في الكلية كتاب «كل الأسماء» لجوزيه سارماغو وقضيت ليالي عدة أتحدث فيها مع والدة هانا عنه. لكن في تلك اللحظة حدقت في اسم المؤلف بعيون خالية من أي تعبير وقلتُ: «لم أقرأ أي شيء لهذا الكاتب».

أومأت هانا برقة، وسارعت إلى تغيير الموضوع.

قالت أمي معتذرة: «إنها مرهقة حقًا. يصعب عليها التركيز في أي شيء».

مقطع فيديو مسجل بتاريخ 30 مارس، 6:30 صباحًا، مدته ست دقائق:

بدأ الفيديو بمشهد سرير فارغ. والدتي تقف قربه مرتدية بدلة ماركة ماكس مارا الإيطالية من أجل عملها، بينما تحدق خارج النافذة. هنالك أزهار ومجلات قرب السرير. التلفاز مفتوح ويبث بصوت منخفض حلقة من مسلسل «الجميع يحب ريموند». دخلت إلى كادر الكاميرا، وأنا أدنو

1- الباركنسون أو الشلل الرعاش: مرض يصيب الجهاز العصبي المركزي ويؤثر على الجهاز الحركي.

ببطء إلى السرير. لا أرتدي القبعة، وشعري متشابك، يكشف عن كتلة من الأسلاك التي تتدلى على ظهري مثل عرف فرس. سحبت الملاءة حتى عنقي. دلكت أمي ساقيّ، وغطتني بالبطانية.

فجأة أزحت الغطاء ونهضت منتفضة. أخذت ألمس الأسلاك في رأسي بهستيريا.

نهاية الفيديو

***

مكتبة
t.me/t_pdf

(22)

فوضى جميلة

ظهرت عليّ أعراض جديدة مُقلقة في بداية الأسبوع الثاني. حين وصلت أمي في منتصف النهار، وجدت أن تلعثمي في نطق الكلمات قد ساء بدرجة ملحوظة، كأن لساني قد صار خمسة أضعاف حجمه الطبيعي. أخافها هذا أكثر من الهلاوس وجنون الارتياب ومحاولات الهرب، فهذا كان تغيرًا جليًا، ويمكن رؤيته بوضوح. كان لساني يتلوى، ولعابي يسيل حين أتكلم. وعندما أشعر بالتعب، أترك لساني يتدلى خارج فمي ككلب محموم. كنت أتفوه بعبارات مُشوهة، وأسعلُ حين أشرب مما جعلني مضطرة إلى الشرب من كوب ينزل منه الماء بالتقطير. وتوقفت عن استخدام عبارات كاملة أثناء الكلام منتقلة من استخدام عبارات مبتورة غير مفهومة إلى استخدام كلمات أحادية المقطع، وأحيانًا يصدر مني صوت شخير لا معنى له.

قالت د. روسو طبيبة الأعصاب: «هل يمكنك أن تكرري ورائي؟ كا.. كا.. كا».

لكن كان حرف الكاف الذي يتطلب نبرة عالية يخرج من فمي خافتًا جدًا. تلفظت بالمقطع بشكل غير مفهوم «ثا، ثا».

«هل يمكنك أن تنفخي خديك مثل هذا؟» سألتني وهي تنفخ الهواء في فمها المغلق فيتمدد خداها.

حاولت أن أضم شفتيّ، وأقلد ما فعلته الطبيبة لكن لم أستطع ملأ فمي بالهواء.

«هل يمكنك أن تخرجي لسانك كله؟»

لم أستطع أن أخرج من لساني سوى نصف طول لسان الإنسان الطبيعي، ورغم ذلك ارتعش لساني كما لو أنه قد أُرهِق بشدة من هذا المجهود.

لاحقًا أكد د. أرسلان هذه الأعراض الجديدة التي اكتشفتها د. روسو، ودوّن تلعثمي في الكلام في تقرير المتابعة. كنت أيضًا أقوم بحركات مضغ مستمرة لا إراديًا مشابهة لتلك التي قمت بها في بيت أمي في سوميت الأسبوع الماضي. وبدأت أقوم بتكشيرات غريبة بوجهي. بدأت ذراعاي في التيبس وهما ممدودتان للأمام، وكأنهما تحاولان الوصول إلى شيء غير مرئي.

شك الفريق الطبي أن تصرفاتي الغريبة مع ضغط دمي المرتفع وزيادة ضربات قلبي تشير إلى مشكلة في جذع المخ أو الجهاز الحوفي «Limbic».

في نهاية الحبل الشوكي أسفل الدماغ يوجد «جذع المخ» وهو من أهم الأجزاء في المخ. يقوم جذع المخ بالإشراف على وظائف تتعلق بالحياة والموت. كتلة من الخلايا بحجم إصبع الإبهام تسمى النخاع المستطيل «Medulla» تتحكم في تنظيم ضغط الدم وضربات القلب والتنفس. كتلة أخرى منتفخة بجواره تسمى الجسر «Pons» تلعب دورًا مهمًا في التحكم في تعبيرات الوجه، لذا من المنطقي الشك في أن أعراضي نابعة من خلل في تلك المنطقة. مع ذلك من الصعب الجزم بذلك. أماكن عديدة من المخ تشارك في مثل هذه الوظائف الجوهرية. ضمن المشتبه بهم الآخرين: القشرة الجذيرية «Insular Cortex»، تقع القشرة الجزيرية بين الفص الجبهي والفص الصدغي، وهي مسؤولة عن المشاعر والحفاظ على توازن البيئة الداخلية للجسم.

وقد تكون هذه المشكلة نابعة من أحد أجزاء الجهاز الحوفي مثل اللوزة الدماغية أو القشرة الحزامية «Cingulate gyrus»، وهي أجزاء تساعد في التحكم في عملية التنفس أيضًا.

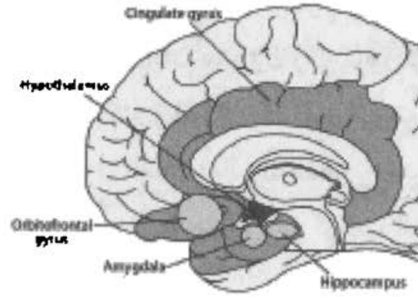

الجهاز الحوفي

لنعد إلى فكرة الدائرة الكهربية التي تضيء شجرة عيد الميلاد. تعطل منطقة واحدة من المخ قد يؤدي إلى تكوّن مسارات بديلة مختلفة لتعويض الخلل، لذا من الصعب في معظم الأوقات تحديد منطقة واحدة، وربطها بوظيفة أو سلوك معين. مثل كل شيء يتعلق بالدماغ، المسألة معقدة. أو كما يقول المؤلف وليام إف أولمان في كتابه (دراسة الأعجوبة: داخل ثورة الشبكة العصبية): المخ فوضى هائلة وجميلة.

***

وصل د. سيغيل («بغزي» العزيز كما تسميه أمي) بأخبار جديدة بعد رحيل د. أرسلان بمدة قصيرة.

قال بعجلة: «حسنًا، لدينا شيء».

سألت أمي: «شيء؟».

«أظهرت عينة السائل الشوكي زيادة طفيفة في كريات الدم البيضاء. وهذا دليل على وجود عدوى أو التهاب من نوع ما».

كان هنالك عشرون خلية دم بيضاء في المليميتر الواحد من سائلي الشوكي. في السائل الشوكي للإنسان السليم، يوجد فقط من صفر إلى خمس خلايا بيضاء كحد أقصى. كان عشرون رقمًا كافيًا كي يلفت انتباه الأطباء، لكن هنالك تفسيرات كثيرة لهذا العدد. أحد التفسيرات الممكنة هو تفاعل الجسم مع صدمة البزل القطني (البزل القطني اختبار دقيق وأي هفوة قد تتسبب في جرح). لكن في النهاية زيادة كريات الدم البيضاء مؤشر مثير للقلق لا يمكن إغفاله.

قال د. سيغيل: «لا نعرف دلالة ذلك بعد. ننتظر نتائج عشرات الاختبارات التي تجرى الآن بينما أتحدث معكم. أعدك أننا سنكتشف السبب».

ابتسمت أمي للمرة الأولى منذ أسابيع. كان إحساسًا غريبًا بالارتياح أن تحصل أخيرًا على تأكيد بوجود مشكلة مادية، وليست نفسية أو عقلية. كانت في أمس الحاجة لشيء.. أي شيء يمكنها الإمساك به في قبضتها، وشغل عقلها به بدلًا من التفكير في ألف احتمال واحتمال. ورغم أن مسألة كريات الدم البيضاء دليلٌ غامضٌ، إلا أنه في النهاية دليل.

عادت أمي إلى البيت، وقضت بقية المساء تبحث في جوجل عن معنى تلك الأخبار. أصابتها الاحتمالات بالرعب: التهاب سحائي، ورم، سكتة دماغية، تصلب متعدد.

في النهاية قاطع بحثها اتصالٌ. أتى صوتي على الطرف الآخر مثل صوت طفل يعاني من تأخر في النمو.

«لقد تبولت».

«ماذا حدث؟»

«لقد تبولت لا إراديًا. إنهن يصرخن في وجهي».

«من يصرخ في وجهك؟» يمكنها سماع أصوات في خلفية المكالمة.

«الممرضات. لقد تبولتُ. لم أكن أقصد ذلك».

«سوزانا، لسن غاضبات منك، صدقيني. يعلمن أنك لم تفعلي ذلك عن عمدٍ».

«يصرخن في وجهي!»

«أعدك أنها ليست مسألة كبيرة. يحدث ذلك. يجب ألا يصرخن. ذلك خطأ منهن».

لم تكن تستطيع تمييز ما هو حقيقي، وما اختلقه عقلي المكروب فيما أقول. كان رأي آلن يميل إلى الخيار الآخر. في كلا الحالتين، لم يسمعا شيئًا عن تلك الحادثة ثانية.

***

بسبب جنون الارتياب الذي لدي تجاه العمل، وخجلي من حالتي، أبقى والداي مسألة إقامتي في المستشفى سرًا عن الجميع تقريبًا حتى أخي جيمس. لكن بحلول يوم الثلاثاء 31 مارس، حين امتد الأسبوع الأول إلى ثانٍ، سمح والداي بزيارة أول صديقة لي لا تنتمي للعائلة: كاتي.

التقيتُ بكاتي في الكلية، وقويت العلاقة بيننا من خلال حبنا المشترك للوريتا لين، وموسيقى السول، والملابس الكلاسيكية، وشراب كوكتيل

سانت لويس. كاتي شخصية مفعمة بالنشاط، ومتهورة قليلًا والشريكة المثالية في أي مغامرة.

لم تعرف كاتي ماذا تحضر معها، فأحضرت معها دمية فأر (كلمات قليلة ستعرفك على شخصية كاتي الفريدة: تختار فأرًا بدلًا من دبدوب!)، وشرائط فيديو لأغاني غانغستر راب (راب العصابات)، وفيلم فرنسي مترجم. لم تكن تعلم أنني لم أعد قادرة على التركيز في القراءة.

تعمل كاتي الآن معلمة في كوينز، وتمكنت من تدريب العديد من الأطفال الذين يعانون من مشكلات اجتماعية قاسية أو صعوبات في التعلم، لكن لم تكن مستعدة لما رأته خلف باب حجرة المستشفى. أنا الجديدة المختلفة جسديًا عن سوزانا التي عرفتها، أنا النحيلة الشاحبة، ذات الخدين الضامرين، والفخذين المتقلصين إلى حجم فرشاة أسنان. حدقت عيناي في اتجاهها في محاولة لإذابة الجليد. بدأت كاتي تتحدث عن مصائر زملائنا من أيام الجامعة الآن. كانت تعرف أن دورها هو تشتيت ذهني عن الأمور الجادة من حولي. مع ذلك كان من الصعب مواصلة أي محادثة بيننا بسبب استجابتي المتأخرة والبطيئة على أسئلتها البسيطة، بعد مدة من طرحها. ثم كانت هنالك مشكلة كلامي. كنت متحدثة ممتازة. كنت تلك الشخصية التي يمكنها فتح حوار مع الحائط، لكن أنا الجديدة صارعت كي تقول أبسط الجمل. في معظم الأوقات لم تستطع كاتي فهم ما أقول.

اقترحت كاتي بنبرة مرحة: «دعينا نتمشى قليلًا. ولا تنس دورا، حقيبة الظهر الرحالة».

تطلب مني الأمر بضع لحظات كي أفهم أنها تشير إلى الحقيبة البنفسجية الصغيرة التي تحوي أسلاك رسم المخ، لكن في النهاية ضحكت على مزحتها.

انتقلنا ببطء شديد إلى ممر الانتظار، وجلسنا على مقعدين ظهرهما للنوافذ. لاحظت كاتي كم كان بنطالي الأسود فضفاضًا.

«أنت هزيلة جدًا، سوزانا!»

نظرت إلى ساقيّ للحظة كما لو كنت أكتشف جزءًا جديدًا من جسمي. ضحكتُ وقلت:

«هذا بنطاااالي! بنطاااالي! بنطاااالي!» ثم نهضت من مقعدي، وحركت ساقي للأمام والخلف بطريقة خرقاء مقلدة رقصة الجيغ الإيرلندية. كانت حركاتي غريبة، نعم، لكنني كنت أرقص، لذا أخذت كاتي ذلك على أنه مؤشر جيد.

***

بعد زيارة كاتي، أتت أنجيلا وجوليا من العمل. لم تراني أنجيلا منذ تلك الليلة العاطفية في فندق ماريوت حين لم أستطع أن أتوقف عن البكاء. منذ تلك الليلة، هاتفتها مرات قليلة في قلب الليل، وأنا أتنفس بصعوبة في الهاتف دون أن أتفوه بكلمة. اتصلت بي جوليا مرة واحدة منذ ذلك اليوم الذي اقترحت فيه أنني قد أكون مصابة باضطراب ثنائي القطب. وفي المرة اليتيمة التي حادثتني فيها بعد دخولي إلى المستشفى كان الشيء الوحيد الذي استطعت إخبارها به: «لقد تناولت فطيرة على الإفطار».

اليوم حين علمت أنهما قادمتان، طلبت منهما شيئًا واحدًا: برجر بالجبنة. عندما غادرتا المصعد وهما تحملان سندوتشات البرجر، لم تكن أي منهما تعلم ما سيريان. دخلتا إلى حجرتي حيث وجدا ابنة عمي هانا تجلس على الكرسي بجواري. كنت سعيدة حقًا برؤيتهما. منحتهما ابتسامة جامدة لكنها

واسعة أظهرت أسناني، بينما تحاولان إخفاء الصدمة التي انتابتهما حين وقعت عيونهما علي، بقبعتي البيضاء وأسلاك رسم المخ المتعددة الألوان. ناولتني أنجيلا سندوتش البرجر لكني وضعته على الطاولة بجواري دون أن ألمسه، وأعطيته لستيفن حين أتي لزيارتي في المساء. قفزت جوليا - وهي إنسانة لا تعرف الرسميات - مباشرة فوق السرير بجواري ثم أخرجت هاتفها من حقيبتها، وأخذت تبحث في صورها حتى وجدت الصورة المنشودة.

سألتني: «هل تريدين رؤية صورة؟». تجمعت الرؤوس حول الهاتف.

«إنه برازي!»

شهق الجميع سواي.

«لم يسمحوا لي بمغادرة المستشفى بعد ولادتي لتيدي قبل أن أتبرز. كنت فخورة حتى إنني التقطت صورة لبرازي».

أنجبت جوليا ابنها تيدي من حوالي شهر. بدأت أنجيلا وهانا بالضحك بشكل هستيري بينما أمسكت أنا بالهاتف، وحدقت في الصورة عن قرب. بعد عدة ثوانٍ، انفجرت بدوري في ضحك هستيري. كدت أبكي من الضحك. تبادل الثلاثة النظرات في دهشة قبل أن يشاركنّني الضحك.

بدوت سعيدة بشكل خاص في تلك الزيارات. لاحظ ستيفن أنني - وإن بدوت قادرة بطريقة ما على الحفاظ على تماسكي حين يأتيني زوارٌ - أكون بعد رحيل صديقاتي منهكة تمامًا، وغير قادرة على التواصل مع أي أحد لساعات طويلة كما لو كنت أدخر كل طاقتي كي أبدو طبيعية أمام الآخرين.

بدأت أنجيلا التي لا يمكنها أن تنسى أنها محررة صحفية، في طرح الأسئلة: «ماذا يحدث هنا؟»

قلت متلعثمة: «أنا...لا. أتذكر».

بعد ذلك بمدة، قاطعتُ محادثة أخرى، كان صوتي هذه المرة أوضح لكن ما يزال بطيئًا.

«ماذا يقول عني الناس في العمل؟»

أجابت أنجيلا: «لا تقلقي بشأن ذلك. يبدون قلقهم عليكِ فقط».

«لا، قولي لي حقًا. أريد أن أعرف».

«لا شيء سيء، سوزانا. لا شيء سيء حقًا. صدقيني».

«أعرف أن أشياء سيئة تقال عني في غاوكر». أصررت مشيرة إلى مدونة الإشاعات الشهيرة على الإنترنت.

تبادلت جوليا وأنجيلا نظرات غريبة. «ماذا تعنين؟»

«غاوكر! يقولون أشياء سيئة عني. وضعوا اسمي في عنوان إحدى مقالاتهم». اعتدلت في جلستي فوق السرير. أصبحت جادة بشكل مخيف. «هل علي الاتصال بهم؟»

هزت أنجيلا رأسها. «اممم. لا. ربما هذه فكرة ليست جيدة. لماذا لا تكتبين لهم رسالة عبر البريد الإلكتروني عندما تشعرين بتحسن؟»

بعد مرور ساعة ودعتني جوليا وأنجيلا، وسارتا في الممر إلى المصاعد. ضغطتا زر استدعاء المصعد، ووقفتا في صمت تنتظران. حين صارتا داخل المصعد، قالت جوليا بهدوء كئيب.

«هل تعتقدين أنها ستعود كما كانت؟»

كان سؤالا عادلًا ومنطقيًا. الإنسانة التي زارتها جوليا وأنجيلا لم تكن الإنسانة التي كانت صديقتهما لسنوات طويلة.

مع ذلك كان هنالك شيء فيّ قد ظل كما هو. رغم عدم قدرتي على التركيز بشكل كاف كي أقرأ، ما زلت أملك بعض القدرة على الكتابة، لذا منحني والدي دفتر ملاحظات لأسجل فيه مشاعري، وليساعدني على التواصل مع من يزورني، وعلى فهم ما أمر به.

بالإضافة إلى تسجيل الصعاب التي أمر بها، صرت مهووسة بكتابة رسائل شكر لكل من يرسل لي زهورًا. كانت تصل كل أشكال باقات الزهور المختلفة إلى حجرتي: نرجس أبيض، توليب أصفر، ليلك بنفسجي وأبيض (النوع المفضل لدي). طلبت من أبي أن يساعدني في إعداد قائمة بالأشخاص كي أرسل لهم رسائل شكر بمجرد أن تتحسن حالتي. رغم كتابتي لها، لم تسنح لي الفرصة لإرسالها لأن الأمور سوف تسوء قبل أن تتحسن.

***

(23)

الدكتور نجار

عادت نتائج تحليل الدم من مركز مقاومة العدوى ومعامل ولاية نيويورك: كل النتائج سلبية. يمتلك الأطباء الآن قائمة بالأمراض التي شكّوا أنني أعاني منها، ولم أكن حقًا أعاني منها. قائمة الأمراض المعدية تضمنت:

- مرض اللايم: يصاب به الإنسان عادة بسبب عضات القراد.
- توكسوبلازما: مرض طفيلي تنقله القطط عادةً للبشر.
- كربتوكوكس: نوع من الفطريات قد يتسبب في الالتهاب السحائي.
- الدرن الذي يصيب الرئة.
- حمى خدش القطة (تكاثر الكريات الشبكية)[1].

عادت أيضًا نتائج اختبارات بعض الأمراض ذاتية المناعة المشهورة التي شكّ فيها الأطباء (وليس كل الأمراض المناعية التي تزيد عن مئة مرض) سلبية، وتضمنت:

1- مرض تسببه بكتيريا برتونيلا هنسيلية وطريقة انتقال العدوى هي خدش قطة مما يؤدي إلى تضخم في الغدة الليمفاوية، يصاحبه حمى وصداع. في حالات نادرة قد يتسبب في التهاب أغشية المخ والقلب.

- متلازمة شوغرن: مرض يصيب الغدد الدمعية واللعابية والمخاطية. في حالات نادرة يهاجم الأعصاب.

- الذئبة «Lupus»: مرض يهاجم الأنسجة الضامة في الجسم.

- التصلب المتعدد: مرض يهاجم غشاء الميلين الدهني المغلف للأعصاب. غالبًا ما يبدأ بمهاجمة العصب البصري.

- سكليرودرما (تصلب الجلد): مرض يهاجم الجلد والأوعية الدموية.

لا شيء. لا شيء عاد بنتيجة غير طبيعية. حتى الأشعة المقطعية وأشعة الرنين أتت نظيفة. لو صدّقنا نتائج التحاليل، فأنا سليمة تمامًا!

انتاب والدي شعور أن الأطباء قد وصلوا إلى طريق مسدود، وبدأوا يفقدون الأمل في العثور على تشخيص. ولو لم يكن هنالك سبب مادي معروف ليُعالج، فالجميع يدرك - رغم أن لا أحد يرغب في الاعتراف بذلك - أن حالتي ستتدهور أكثر. في تلك اللحظة أرادت عائلتي العثور على شخص يمكن أن يؤمن بشفائي مهما حدث. كانت تلك هي المرة الأولى في تجربة أمي الطويلة مع الأطباء التي تمنت فيها أن تأتي أي نتيجة اختبار إيجابية مهما كان المرض. على الأقل سنملك وقتها جوابًا.

كانت أمي تتطلع للقاء د. «بغزي» بوقاره وابتسامته الدائمة وكلماته الرقيقة وهو الذي أصبح إحدى النقاط المضيئة القليلة في هذه الأيام العصيبة. حين لم يصل في موعده بعد ظهر اليوم الذي أتت فيه النتائج، انتاب أمي القلق، وراحت تتجول في الممر دون هدى بحثًا عنه. لمحت معطفه الأبيض وهو يغادر حجرة أخرى في الممر.

«أوه، د. سيغيل». قالت وصوتها يعلو وهي تنطق نهاية اسمه.

التفت إليها برقة لكن دون ابتسامته المعهودة، بدا عليه العجلة.

«ماذا يحدث مع سوزانا؟ أثمة شيء جديد؟»

حدق فيها من دون الحميمة والتفاؤل المعتادين. قال بنبرة جافة: «لم أعد مسؤولًا عن الحالة بعد الآن». ثم التفت وغادر.

«ماذا؟ ماذا؟!» قالت بتلعثم وشفتها السفلى ترتجف. «ماذا حدث؟»

رد بارتباك: «لا أعرف ماذا أقول. لم أعد مسؤولًا عن الحالة». ثم التفت ومشى مبتعدًا بسرعة.

فجأة شعرت أمي بوحدة مخيفة. لقد مر مرضي بعثرات كثيرة لكن هذا الرد الجاف والقاسي كان الأسوأ. يبدو أن هذا الطبيب، من أفضل الأطباء في البلاد قاطبة، قد رفع الراية البيضاء أمام حالتي. أخذتْ نفسًا عميقًا آخر. عدلت سترتها وعادت إلى حجرتي. شعرت أمي بمدى حماقتها لإيمانها أنني كنت شيئًا أكبر من مريضة بالنسبة إليه - مريضة ضمن عشرات المرضى.

لم تحتمل النظر في وجه د. روسو حين أتت لاحقًا في تلك الظهيرة. كانت هي أملنا الوحيد. التفتت د. روسو وهي تنهي فحصها لي نحو أمي قائلة: «أنا ود. نجار نرى أننا نحتاج إلى عينة أخرى من السائل النخاعي الآن».

حالتي المتدهورة جعلت فكرة بزل قطني آخر - الفكرة التي كانت مخيفة أول مرة - معدومة التأثير على أمي. لكنها تشبثت بذكرها لطبيب جديد.

«من هو د. نجار؟»

قالت د. روسو: «يعمل د. نجار على حالة ابنتك الآن. إنه طبيب عبقري».

التحق د. سُهيل نجار بفريق الأطباء بعد مكالمة يائسة من د. سيغيل.

مهارته في حل عدد من الحالات الغامضة أكسبته سمعة الرجل الذي يجب أن تذهب إليه حين تصل إلى طريق مسدود. والآن يقدم له د. «بغزي» أكثر حالاته المحيرة. اعترف د. سيغيل للدكتور نجار: «أنا في حالة ضياع. أحتاج إلى مساعدتك في هذه الحالة». وقدّم له ملخصًا للحالة والتشخيصات المتعارضة:

- شك الأطباء النفسيين أن سلوكي نابع من مرض عقلي.
- زيادة عدد خلايا دمي البيضاء يشير لوجود عدوى.
- كل نتائج التحاليل الأخرى عادت سلبية.

تخمين د. نجار المبدئي كان إصابتي بنوع من التهاب فيروسي في نسيج المخ غالبًا بسبب فيروس الهربس. لم يقتنع على الإطلاق بنظرية الاضطراب الفصامي العاطفي واقترح أن يبدأوا فورًا بإعطائي دواء أسيكلوفير (دواء مضاد للفيروسات) عن طريق التنقيط الوريدي. لكن سرعان ما عادت نتائج اختبار الفيروسات سلبية. لست مصابة بفيروس نقص المناعة المكتسبة ولا بالهربس بنوعيه 1 و2. ولست أعاني من التهاب المخ الذي يسببه الهربس.

الاحتمال الثاني هو ردة فعل مناعية، والتي يمكن أن يعالجها بعلاج مناعي تجريبي نجح في حالة مريض آخر يعاني من التهاب في المخ. يتضمن العلاج: ستيرويدات ونقل بلازما وأميونوجلوبيولين عن طريق الوريد «IVIG».

قال د. نجار بعد أن ألقى نظرة على نتيجة تحاليل الفيروسات: «أعتقد أن علينا أن نبدأ علاج IVIG فورًا».

(24)

IVIG

2 أبريل، بدأت الممرضات منحى أول جرعة من الأميونوجلوبيولين عن طريق الوريد IVIG. علّقت الممرضات أكياسًا تحوي سائلًا شفافًا على عمود معدني، بينما ينساب السائل إلى داخل وريدي. كل كيس من هذه الأكياس يحوي أجسامًا مضادة سليمة أُستخلصت من دم أكثر من ألف متبرع بالدم، وتكلف كل جرعة دوائية نحو عشرين ألف دولار. ألف مرقأة[1] وألف ممرضة. كل هذا من أجل مريض واحد.

يتكون الـ IVIG من أجسام مضادة موجودة في مصل الدم[2] تسمى أميونوجلوبيولين G، وهو النوع الأكثر شيوعًا من الأجسام المضادة في جسم الإنسان. الـ IVIG مصرح به من الهيئة الأمريكية للغذاء والدواء لعلاج حالات زرع الأعضاء، واللوكيميا (سرطان الدم)، وفيروس نقص المناعة في الأطفال (غالبًا ينتقل عن طريق الأم المصابة بالفيروس). في الحالات الأخرى يعتبر استخدامه «تجريبي» وترفض شركات التأمين

---

1 - المرقأة أو تورنكيه: ضاغط يتحكم في تدفق الدم الشرياني أو الوريدي. يُلف حول الذارع أثناء قياس الدم أو قبل الحقن الوريدي لإظهار الوريد وغيرها من الاستخدامات.

2- الدم بدون خلايا دم يسمى بلازما والبلازما دون الفيبرينوجين المسؤول عن التجلط تسمى مصل. يتكون المصل من بروتينات ومنها الأميونوجلوبيولين والهرمونات والأملاح (المترجم)

الصحي استخدامه. الأجسام المضادة (الأميونوجلوبيولين) ينتجها الجهاز المناعي ليشن هجومًا مضادًا على جسم خارجي غريب. مثلًا حين يدخل باثوجين (ميكروب: طفيل، بكتيريا، فيروس) إلى الجسم، فإنه يحرّك سلسلة من التفاعلات تبدأ من جهاز إنذار عام: استجابة فطرية تحاول التخلص من الزوار المتطفلين بسرعة. المرحلة الثانية من الدفاع هي «الاستجابة المتخصصة النوعية» والتي تصمّم نفسها لمواجهة متطفل بعينه مستخدمةً ترسانة من خلايا الدم البيضاء والأجسام المضادة. هذه الاستجابة المتخصصة تستغرق وقتًا أطول بكثير من الاستجابة الفطرية كي تبدأ في العمل، عشرة أيام في مقابل دقائق أو ساعات في حالة المناعة الفطرية. الآثار الجانبية للمعارك التي تدور داخل جسم الإنسان هي أعراض تشبه الإنفلونزا: حمى، وصداع، وألم في العضلات، وغثيان وتضخم في الغدد الليمفاوية.

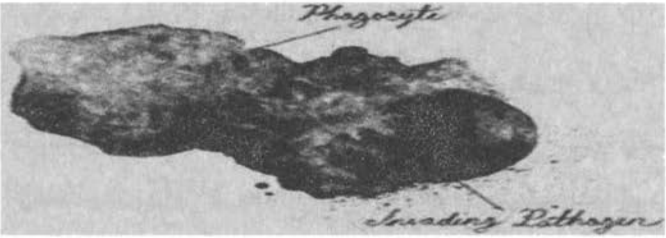

(خلية مناعية تسمى الفاجوسيتك (الخلية الأكولة) تلتهم باثوجين)

أحد أنواع خلايا الدم البيضاء تسمى بالخلية B، والتي يمكنها التحوّر إلى خلايا تسمى الخلايا البلازمية وهي مسؤولة عن إنتاج الأجسام المضادة. تحت الظروف المثالية، يرتبط كل جسم مضاد تمامًا مع باثوجين واحد فقط، كالقفل ومفتاحه، أو قدم ساندريلا وحذائها الزجاجي، بغرض منع انتشار العدوى إما عن طريق شلّ حركة الباثوجين، أو تمييزه بعلامة كي يُدمّر فيما بعد.

لكن الأجسام المضادة التي يمتلكها كل إنسان بكميات مناسبة يمكنها التحول أحيانًا إلى شيء خبيث شديد الخطورة، مثل مصارع بيولوجي يصارع عدوًا وهميًا، إذا بدأت في الارتباط بأنسجة الجسم السليمة وتدميرها كالمخ مثلاً.

الـ IVIG يوفر أجسامًا مضادة سليمة وحديثة التكون، ترتبط بالأجسام المضادة الشريرة «السيئة «التي ينتجها الجهاز المناعي للإنسان المريض، وهكذا تساعد في تحييدها وبالتالي جعلها غير ضارة.

***

بيب.. بيب... بيب..

المكان مظلم. صرير آلة ضخمة على يميني. وخرطوم يصل ذراعي بأكياس معلقة على عمود تحوي سائلًا أبيض. وضعت سماعات ستيفن على أذني، وأغلقت عينيّ. أنا بعيدة، بعيدة جدًا عن هنا. أنا نفسي من جديد.

«الأغنية القادمة أهديها لصديقتي ليا التي لم تستطع الحضور هنا اليوم...»

صوت أوتار الجيتار، الطرق الخفيف على الطبل. الموسيقى تعلو تدريجيًا. إنها ليلة الهالوين في مسرح أبوللو في هارلم. أنا في حفل راين أدمز الموسيقي. يمكنني رؤيته على خشبة المسرح يعزف جيتاره، لكن لا يمكنني الإبقاء على عينيّ مفتوحتين لمتابعة المشهد. أشعر بشيء يلمس جلدي. جعلني ذلك أرتجف. سمعت صوتًا:

«سوزانا، حان وقت أخذ مؤشراتك الحيوية».

اختفى الحفل وذاب في ظلام حجرة المستشفى، الممرضة تقف بجواري. عدت، عدت إلى المكان حيث لا ليل ولا نهار. بسبب هذه الممرضة اللعينة،

عدت إلى هنا. فجأة ملأني غضب أعمى. دفعت ذراعي للوراء ولكمتها في صدرها. لهثت الممرضة من الألم.

***

في صباح اليوم التالي أتت أمي، وجلست في مكانها المعتاد على الكرسي بجوار النافذة عندما رنّ جرس الهاتف. كان جيمس. كان والداي يخفيان عليه مدى خطورة مرضي كي لا يقلق، ويؤثر ذلك على دراسته. كنت وجيمس مقربين دائمًا رغم فرق الخمس سنوات بيننا، ويعلم والداي أنه سيترك كل شيء ويأتي إلى هنا لو اكتشف مدى تدهور حالتي. لكن اليوم فقط قررت أمي أن تناولني الهاتف كي أكلمه.

«جيمس... جيمس... جيمس...» قلت مستمعة لصوت أخي على الجانب الآخر من الخط. «جيمس... جيمس..»

في حجرة سكنه في باتسبورغ، اختنق صوته بالدموع. بدوت مختلفة جدًا، لا أشبه على الإطلاق صوت أخته الكبيرة.

قال مصممًا: «سآتي إليك قريبًا جدًا، وسوف تتحسن حالتك».

***

في اليوم التالي، أثناء حقني بالجرعة الثانية من علاج الـ IVIG، زارني د. أرسلان أخصائي الطب النفسي الدوائي، ولاحظ أن مشاكل الكلام التي أعاني منها قد ساءت. كتب الآتي في تقرير المتابعة:

صعوبة في النوم أثناء الليل وزيادة في تأخر الكلام والتلعثم. مشاكل الكلام مُقلقة لأنها قد تكون بدايات كاتاتونيا (تخشب). لم يكن لمهدئ

كويتيابن نفس التأثير عليها ليلة الأمس كما كان من قبل.

كانت هذه هي أول مرة يستخدم فيها أحد الأطباء تعبير «كاتاتونيا»، مرحلة تتميز بغياب ذهني وجمود جسدي، وغرابة في التصرفات. الأعراض التي يبحث عنها الأطباء لتأكيد تشخيص مريض بالكاتاتونيا غريبة ومُحيرة.

- جمود شمعي (كتمثال من الشمع)، تيبس في العضلات، تخشب واتخاذ الجسم وضعية ثابتة.

- عدم الحركة، سرحان، ذهول.

- امتناع عن الأكل أو الشرب.

- هيجان مفاجئ.

- تحديق في الفراغ.

- خرس، القيام بأفعال غريبة ومتهورة.

- صدى لفظي «Echolalia»: (التكرار التلقائي لأي كلمات أو عبارات يتفوه بها شخص آخر).

تنتج الكاتاتونيا عن اختلال في كهرباء الأعصاب. هذا التخشب العضلي يحدث حين ينقطع الاتصال الكيميائي بين إدراك المريض بجسمه وشعوره بالراحة والتجانس في حركته. بكلمات أبسط، لا يمكن لمريض الكاتاتونيا الإحساس بجسمه في الفراغ، وبالتالي لا يستطيع تعديل وضعية جسمه بشكل مناسب. ولهذا يتخذ المريض وضعًا ثابتًا غير طبيعي وغير مريح لوقت طويل (قد يقف مريض الكاتاتونيا على ساق واحدة لمدة طويلة مثلًا).

أعراض الكاتاتونيا تشبه نتائج عملية فصل الفص الجبهي[1] أكثر من الحالة الخضرية الدائمة «PVS»[2] لأن مريض الكاتاتونيا عمليًا ما يزال محتفظًا بوعيه بشكل كامل[3]. في النهاية أعراض الكاتاتونيا هي تصرفات واعية مهما كانت غريبة وغير مناسبة وغير مفهومة.

***

في هذه الأثناء، كان يطارد ستيفن تعليقٌ ألقته الممرضة دون قصد ليلة أمس. كانت مهاجرة آسيوية شابة بدأت العمل في مستشفى جامعة نيويورك منذ مدة قصيرة. بينما تفحصني، قالت بشكل عابر:

«هل كانت دائمًا بطيئة جدًا هكذا؟»

هزّ ستيفن رأسه في حنق محاولًا التحكم في غضبه وهو يفكر: كيف تجرأ الممرضة على قول شيء كهذا؟ سوزانا ليست ولم تكن أبدًا بطيئة.

1- عملية فصل الفص الجبهي: قطع الاتصال العصبي بين الفص الجبهي وبقية المخ في حالات الوسواس القهري أو الفصام المستعصية أو التي تشكل خطرًا على المجتمع أو من حولهم. وهي من أخطر العمليات وأكثرها إثارة للجدل. فالفص الجبهي مسؤول عن الكثير من المهام العقلية والعاطفية والحركية. ربما الوصف الأدق لها أن الإنسان يضحي بآدميته مقابل البقاء على قيد الحياة في صورة هادئة تمكن عائلته من العناية به. فهو أشبه بالروبوت. وتتشابه الكثير من أعراضه مع مريض الكاتاتونيا.

2- الحالة الخضرية الدائمة: حالة من اضطراب الوعي نتيجة تلف في الدماغ تختلف عن الغيبوبة في أن المريض يظهر دلائل على نشاط عقله وإن كانت في صورة أفعال لا إرادية مثل فتح العينين وتحريكهما بشكل عشوائي والبكاء والضحك والصراخ والتمتمة. وعلى عكس موت جذع المخ وبعض حالات الغيبوبة، لا تعتبر الحالة الخضرية الدائمة وفاة في القانون الأمريكي والبريطاني.

3- الكاتاتونيا بمثابة قرار اتخذه لاوعي الإنسان لتفادي صدمة نفسية. فالمريض عمليًا قادر على الحركة والكلام لكنه لسبب نفسي اختار أن يدخل في تلك الحالة من الجمود.

في صباح اليوم التالي، قابل ستيفن والدي في الردهة أمام حجرتي. في البداية تحدثا عن أمور عامة.. الطقس البارد، كيف يسير عمل ستيفن وهكذا. لكن سرعان ما تحولت دفة الحديث إليّ.

قال ستيفن: «ما تزال سوزانا التي أعرفها هناك. يمكنني رؤيتها. ما تزال هناك. أعرف ذلك».

قال والدي: «أوافقك الرأي. وهذه هي من نقاتل جميعًا من أجلها. لا يمكن للأطباء أو الممرضات رؤية ذلك لكن نحن نرى. يجب أن نبقى أقوياء ومتماسكين من أجلها».

«أتفق معك».

تصافح الرجلان. كتب والدي عن انطباعه الجديد عن ستيفن في يومياته:

«الإنسان الوحيد الذي أتى كل يوم هو ستيفن. إنه إنسان رائع. لم أكن مقتنعًا به عندما قابلته لأول مرة لكن احترامي وتقديري له كان يزداد مع كل يوم يمر».

(25)

ثورة الشيطان الأزرق

أجروا البزل القطني الثاني يوم 9 أبريل. مرّ على وجودي في المستشفى ثمانية عشر يومًا، ولست بعيدة فقط عن إيجاد علاج بل يبدو أيضًا أن حالتي تتدهور بشكل ثابت. لاحظ ستيفن أن حركات المضغ الدائمة، وتشنجات ذارعيّ التي تذكره بعروس فرانكشتاين وفترات تحديقي في الفراغ قد زادت.

فيديو مسجل بتاريخ 8 أبريل، 10:30 مساءً، مدته إحدى عشرة دقيقة:

يعلو صوت التلفاز الذي يبث برنامجًا وثائقيًا على قناة ديسكفري. ستيفن يجلس بجواري يشاهد البرنامج. يده على فخذي بينما أنا نائمة على جنبي، ووجهي نحوه. التفت ستيفن نحوي. فجأة اعتدلت في جلستي، وبدأت أتنفس بسرعة دون أن أزفر. مسّد شعري محاولاً تهدئتي. ارتفعت ذراعاي وامتدتا أمامي. قفز ستيفن ضاغطًا زر استدعاء التمريض. وقف أمامي يشاهد في رعب بينما أحني يدي ببطء في اتجاه وجهي. فعلت ذلك ببطء شديد فبدا الأمر كأنه فيديو مسجّل بالتصوير البطيء. وصلت الممرضة، وتحدثت مع ستيفن لكن ضجيج التلفاز أخفى محادثتهما. لم أتفوه بكلمة. حاول ستيفن أن يشرح ما حدث محاولًا أن يمثّل أنه يختنق كي يظهر لها أنني قد توقفت عن التنفس. مددت ذراعيّ أمامي ثانية بينما يتحدث، لكن ظلت يداي متدليتين لأسفل عند المعصم، مثل يديّ ديناصور تي-ريكس. أعادهما

ستيفن برقة إلى جانبي، وبدأ يدلك ذراعيّ لكن عادت يداي إلى وضعهما الممتد بزاوية ميل 45 درجة عند المعصم كما لو كانت مرفوعة بخيوط غير مرئية. ثم بدأت أحركهما حركات سريعة ومتكررة لأعلى وأسفل، أعلى وأسفل. ثم في النهاية وضعت يديّ على وجهي، واستلقيت دون أي حركة حتى وصلت طبيبة الأعصاب المناوبة. من جديد حاول ستيفن أن يشرح لها ما حدث، رفع ذراعيه للأمام، وكزّ على أسنانه. ثم فجأة بسبب التوتر والخوف، بدأ في البكاء. التقطت دبدوب بقربي، ورميته على الأرض ثم بدأت أضرب الهواء بشكل غريب كما لو كنت أبعد شبحًا، لكن مع ذراعيّ المتيبستين بشدة، بدوت كدمية باربي ذاهبة إلى معركة.

سألتني الطبيبة عدة أسئلة لكن كان الصوت منخفضًا جدًا فلا يُسمع، لكني لم أجبها، اكتفيت فقط بالتحديق. استلقيت ثانية على السرير. لكن سرعان ما جلست مرة أخرى، وحاولت مغادرة السرير لكن حواجزه منعتني. أنزلت الطبيبة الحواجز، وناولتني دلوًا ربما لأنها اعتقدت أنني سأتقيأ. تمايل جسدي للأمام والخلف. استلقيت ثانية، والدلو بين ساقيّ. أمسكت الطبيبة بالدلو، ووضعته قرب رأسي.

نهاية الفيديو

في لحظات كتلك، لا يستطيع ستيفن منع عقله من تذكر الليلة التي انتابتني فيها أول نوبة، في يوم 13 مارس.

سأل ستيفن الممرضة آدلين لاحقًا في تلك الليلة: «ماذا تعتقدين سبب تصرفاتها؟».

«ربما تحاول أن تلفت انتباهك؟»

يطلق الجنوبيون في أمريكا على محاولات لفت الانتباه اسم «ثورة الشيطان

الأزرق»، وهو وصف دقيق لثورات الغضب أو نوبات الذعر التي تنتاب الشابات في الجنوب.

«ربما كانت نوبة ذعر؟»

لم يقتنع ستيفن بهذا التفسير. في الليلة التالية تكرر نفس الشيء.

قلت وأنا أحاول النزول من فوق السرير: «لا.... أشعر... أني... على ما يرام». فهم ستيفن ما أريد فعله فأنزل الحواجز، وساعدني على النزول من السرير ثم الجلوس على الأرض. بدأت أتنفس بصعوبة من جديد وأنا أبكي. ضغط ستيفن زر الاستدعاء.

قلت وأنا أضع يدي على صدري، وأتلوى على أرضية الحجرة الباردة: «قلبي... يؤلمني.. لا أستطيع... التنففس».

اندفعت ممرضة داخل الحجرة. قاست مؤشراتي الحيوية، ولاحظت زيادة طفيفة في ضغطي 155/ 97. أوصلتني الممرضة بمضخة أكسجين مركّز تُستخدم في الأزمات القلبية والتشنجات. نمت بعدها سريعًا.

تكرر المشهد نفسه مع اختلافات طفيفة تقريبًا كل ليلة في وقت زيارة ستيفن. نادرًا ما كان يحدث الأمر في وجود شخص سواه. لم يستطع أحد تفسير ذلك.

***

بدأ القلق والتعب يستوليان على عائلتي بأكملها بشكل متزايد، ولا يبدو أن أحدًا يملك إجابة. ما زالت نتائج التحاليل تظهر سلبية. لم يبد أن علاج الأميونوجلوبيولين هو الأكسير السحري الذي أمل الجميع أن يكونه، ولم يستطع أحد فهم ما قد يشير إليه عدد كريات الدم البيضاء المرتفع. وما زاد

الطين بلة هو انسحاب د. «بغزي» من حالتي، وعدم قدوم هذا الطبيب المدعو نجار الذي يتحدث عنه الجميع بإجلال بعد. ما الذي يمنع الأطباء الآخرون من التخلي عن حالتي ونبذي في مستشفى للأمراض العقلية أو دار رعاية؟ في هدوء وسرية تامة، ورغم تفاؤلهم الدائم، بدأت عائلتي تفكر بقلق في احتمال خسارتي للأبد.

في اليوم التالي، ظهرت نتيجة تحليل عينة السائل النخاعي الثانية. أبلغتنا د. روسو بالأخبار. كانت مُقلقة ولكن على الأقل كان ذلك يعني أنهم يقتربون من الوصول إلى إجابة: حوى سائلي النخاعي ثمانين خلية دم بيضاء في كل مليميتر، مقارنةً بعشرين فقط الأسبوع الماضي. كان هذا دليلاً شبه مؤكد على إصابة دماغي بالتهاب. الآن عليهم تحديد سبب هذا الالتهاب. حين وصلت إلى المستشفى كان تشخيصي هو «نوبات صرع»، ثم تغيّر إلى «ذهان»، والآن دوّنت د. روسو حالتي على أنها «التهاب في المخ مجهول السبب».

«التهاب في المخ». حين حاول طبيب أعصاب تفسير معنى الكلمة لنا بطريقة مبسطة، قال «مخ مُعتل» أو التهاب في المخ نتيجة مجموعة من الأسباب. ولأن أمي لم تكن حاضرة وقت زيارة د. روسو، دوّن أبي الأخبار في دفترهما المشترك.

نوبات الصرع ⟵ عدوى. بزل قطني ⟵ التهاب في المخ

حاول أن ينقل لي الخبر الجيد لكن لم أستطع التركيز فيما قاله.

«لماذا لا تنقلين ما كتبته في دفترك ثم تكتبين كلمات إضافية بينما أخبرك بالأمر».

فكرنا أن بإمكاني أن أناول الورقة للأشخاص الذين يزورونني، آملين أن تمنحهم فكرة عن القصة كلها. لكن لم تنجح الفكرة. حين وصلت هانا لزيارتي في نفس اليوم، نسيت أين وضعت الدفتر. لقد تاه وسط الزهور والمجلات التي تملأ حجرتي. تسللت هانا حتى وقفت قرب سريري ثم أحاطت عنقي بذراعيها.

قلت: «أنا أعاني من... أعاني من.... من..».

قاطعتني أمي: «لا عليكِ يا سوزانا، انسي الأمر الآن. أنت متعبة».

تمتمت: «لا، أريد أن...». توتر جسمي كله. «أنا...أريد...أن... أتحدث!»

قالت: «أنت متعبة حبيبتي. يجب أن ترتاحي».

زفرت في غضب. فهمت أمي أنني ساخطة من عجزي ومن معاملتي كطفلة. استشعرت هانا توتري فشتّتت انتباهي بأعداد شهر كامل من مجلة «US Weekly» ونسخة من رواية «الحارس في حقل الشوفان» التي رجوتها أن تحضرها. ولأني لا أستطيع القراءة بنفسي، قرأت هانا لي حتى أغلقت عيني لأنام. فجأة فتحت عيني ونظرت إليها.

قلت: «تلانتيوفوسلن... تلانتيوفوسلن! تلانتيوفوسلن!». بدأت أكرر نفس الكلمة دون توقف. احمرّ وجهي.

ردّت هانا: «على الرحب والسعة»، وهي غير واثقة إن كنت أعني أني أقول لها «شكرًا».

هززت رأسي بحنق وصحت: «لا، لا، لا، تلانتيوفوسلن!!!!».

اقتربت هانا أكثر من وجهي، لكن اقترابها مني جعلني غير مفهومة أكثر. بدأتُ أشير بإصبعي نحو الباب لألفت انتباهها.

«سليفن... سليفن!»

أخيرًا فهمت هانا أنني أريد ستيفن. نادته كي يأتي إلى داخل الحجرة. حين وقعت عيناي عليه، هدأت فورًا.

***

في اليوم التالي، بعد أن منحهم العدد المرتفع لخلايا الدم البيضاء إشارةً أو خيطًا يمكنهم تتبعه، بدأ الأطباء في البحث عن مصدر العدوى. طلبوا سلسلة جديدة من تحاليل الدم فأتى الممرض إدوارد كي يسحب العينات. كان ستيفن يجلس بجواري سعيدًا بسلوكي اليوم. رغم أني كنت ما أزال بعيدة عن شخصيتي القديمة، لكن شيئًا من حس دعابتي القديم بدأ يطفو للسطح. بدأت أبتسم أكثر، وأتفاعل أكثر أثناء مباره اليانكيز، حتى أنني علّقت قائلة إني أحب الرامي آندي بيتيت.

سأل الممرض إدوارد: «كيف تسير المباراة؟ هل يتقدم الميتس[1]؟» قال مازحًا.

مددت ذراعي إليه. لقد فعلت ذلك كثيرًا. بات الأمر روتينيًا الآن. لبس إدوارد قفازًا طبيًا ووضع المرقأة حول ساعدي كي يُظهر الوريد وهو ينقر عليه بأصابعه، ثم انحنى ليُدخل الإبرة. لكن بينما تخترق الإبرة جلدي، وثبت فجأة وبحركة واحدة سريعة صفعت الإبرة التي يمسك بها، فاندفع الدم من وريدي. ابتسمت ونظرت لأسفل بخجل مصطنع.

كان من الواضح لستيفن أنني أعني «ابتعد عني».

1- الميتس واليانكيز: كلا الفريقين ينتمي لنيويورك وبالتالي هنالك نوع من التعصب الدائم لأحدهما بين ساكني نيويورك.

أحيانًا حين يبدو أنني أتحسن، تعاودني حالة الذُهان والاضطراب العقلي السابقة. كان هذا يصيب الجميع بالرعب.

«سوزانا، رجاءً لا تفعلي ذلك. يمكن أن تتأذي حقًا وربما تؤذيني أيضًا. لكن ستتأذين أنت أكثر بكثير».

قال إدوارد محافظًا على نبرة صوته الهادئة. أعدَّ إبرة جديدة ثم رفعها بحذر نحو ذراعي الممدودة.

قلت بلطف: «حسنًا». غرز الإبرة، وملأ عدة أنابيب صغيرة بالدم ثم خرج من الحجرة.

(26)

الساعة

قلت بأنين: «ماه»، وأنا أشير إلى الدورق البنفسجي على الطاولة بجوار السرير.

كان هذا هو اليوم الذي نتوقع فيه قدوم د. نجار أخيرًا. كان لعابي يسيل وكنت أعضّ شفتيّ، وهي عادة استمرت الآن بشكل ثابت، حتى أثناء نومي. وضع أبي أوراق اللعب، وتناول الدورق الفارغ وخرج إلى الممر كي يعيد ملؤه. حين عاد وجدني أحدق أمامي في الفراغ كأني نائمة وعيناي مفتوحتان، بينما لساني يتدلى خارج فمي. كان أبي قد اعتاد على هذه المشاهد، وبات يتعامل معها بهدوء. فبدلًا من أن يوقظني، جلس يقرأ في صمت كتابه «صورة الفنان في شبابه» حتى وصلت أمي.

قالت أمي بابتهاج، وهي تدخل الحجرة: «مرحبًا!». وضعت حقيبتها الجلدية على المقعد بجوار سريري، وطبعت قبلة على خدي. تابعت بوجه مشرق، والحماس يشع من عينيها اللوزيتين: «أنا متشوقة لمقابلة د. نجار الغامض أخيرًا. كيف يبدو يا ترى؟ سيصل إلى هنا في أي لحظة».

كان الحماس أمرًا صعبًا على أبي هذا الصباح.

قال: «لا أعرف يا رونا. لا نعرف أي شيء بعد».

تجاهلت أمي كلامه. سحبت منديلًا كي تمسح لعابي المتجمع عند جانب وجهي.

***

«مرحبًا، مرحبًا!!»

بعد عدة دقائق خطا د. نجار داخل حجرتي رقم «1279». صوته جهوري، مشيته موزونة، ويعاني من انحناءة طفيفة في ظهره مما جعل رأسه تبدو كأنها تسبق جسده بإنشاءات قليلة، غالبًا بسبب الساعات التي يقضيها منحنيًا لينظر عبر المجهر. شاربه الكثيف خفيفًا عند أطرافه نتيجة عادة برمه وسحبه بشكل مستمر حين يكون مستغرقًا في التفكير. مد يده نحو أمي التي بسبب حماستها المفرطة صافحته بشدة ولمدة أطول من الطبيعي. ثم قدّم نفسه إلى أبي الذي نهض من كرسيه بجوار سريري كي يبادله التحية.

قال: «دعونا نتحدث سريعًا عن تاريخها المرضي قبل أن أبدأ». كانت لكنته السورية تتجلى من حين لآخر في طريقة كلامه، وكان يُفخّم مخارج الحروف، وعادةً ما ينطق حرف الدال تاءً. عندما يتحمس يتجاهل حروف الجر، ويتحدث بسرعة فتتداخل الكلمات كما لو أن كلامه لا يستطيع أن يلاحق أفكاره السريعة.

يشير د. نجار دائمًا إلى أهمية أخذ تاريخ مرضي كامل ومفصل من مرضاه. «يجب أن تنظر للوراء جيدًا كي يمكنك رؤية المستقبل». كان يقول ذلك دائمًا للأطباء المقيمين الذين يتولى تدريسهم. بينما يتحدث والداي، كان هو يدوّن الأعراض - صداع، الخوف من بق الفراش، أعراض تشبه الإنفلونزا، زيادة في ضربات القلب - التي لم يولها الأطباء الآخرون اهتمامًا، أو على الأقل لم يروا أنها جزء من صورة واحدة كبيرة.

دوّن كل الأعراض كملاحظات مهمة. ثم فعل شيئًا لم يفعله الأطباء الآخرون. حوّل انتباهه عن والديّ وبدأ في الحديث معي مباشرةً، كما لو كنت صديقته ولست مريضته. إحدى أعظم خصال د. نجار هو أسلوبه الحميمي والشخصي جدًا في تواصله مع مرضاه. لديه تعاطف قوي تجاه الضعفاء والمقهورين، التعاطف الذي تولّد من تجربته الشخصية في صباه في دمشق بسوريا. كان فاشلًا في مدرسته، واعتبره والداه كسولًا. حين بلغ العاشرة وبعد رسوبه في امتحان تلو الآخر في مدرسة كاثوليكية خاصة، قال ناظر المدرسة لوالديه إن لا أمل في تحسن ابنهما. «التعليم ليس للجميع. ربما من الأفضل له تعلم التجارة».

رغم غضب والده لم يرغب في التوقف عن تعليم ابنه - كان يرى التعليم مهمًا جدًا - لذا ورغم تدنّي آماله، نقل ابنه إلى مدرسة حكومية. أثناء عامه الأول في المدرسة الحكومية، أولى معلم اهتمامًا خاصًا بالصبي، وكان يمدحه دائمًا بسبب تحصيله الدراسي، وهكذا زاد ببطء من ثقة الصبي بنفسه. في نهاية تلك السنة، عاد الصبي مشرق الوجه بشهادة درجاته، وقد حصل على تقدير عام ممتاز. كاد والده يصاب بسكتة قلبية. قال سالم وهو يرفع يده كي يعاقب ابنه: «لقد غششت». في صباح اليوم التالي، واجه والداه معلمه.

«ابني لا يحصل عادةً على تلك الدرجات العالية. لا بد أنه يغش».

«لا، لم يغش. يمكنني أن أوكد لك ذلك».

«إذًا أيّ مدرسة هذه التي تديرونها هنا حيث يمكن لصبي مثل سهيل الحصول على تلك الدرجات؟»

سكت المعلم لبرهة قبل أن يتحدث من جديد: «ألم تفكر من قبل أن لديك حقًا ابنًا ذكيًا؟ أعتقد أن عليك الإيمان به».

لاحقًا تخرج د. نجار من كلية الطب بترتيب الأول على دفعته ثم هاجر إلى أمريكا، حيث لم يصبح فقط طبيب أعصاب مُبجل بل أيضًا أخصائيًا في علاج الصرع وفي الباثولوجيا العصبية. قصته علّمته درسًا أخلاقيًا يطبقه على كل مرضاه. كان مصممًا دائمًا ألا يتخلى عن أي منهم.

الآن في حجرة المستشفى، جلس بجواري وقال: «سوف أبذل قصارى جهدي لمساعدتك. لن أتسبب لك في أي ألم».

لم أقل أي كلمة. علا وجهي تعبير خالٍ من أي مشاعر.

«دعينا نبدأ. ما اسمك؟»

مرت مدة صمت واضحة قبل أن أجيب.

«سو... زات. ناءا».

«في أي سنة نحن الآن؟»

مدة صمت أخرى.

«2009».

دوّن: «**تلعثم في الكلام. إجابات أحادية المقطع**» قبل أن يسألني: «أي شهر؟»

صمت ثم «أبريل. أببريل». صارعت كي أجيب عن سؤاله. دوّن: «**تبلد في المشاعر**».

«ما هو تاريخ اليوم؟»

نظرت للأمام دون أن أظهر أي مشاعر. لم أتفوه بكلمة، ولم أرمش بعيني. لم أملك جوابًا لهذا السؤال. كتب: «**المعدل الذي تطرف به العين أبطء من الطبيعي**».

«من هو الرئيس؟»

مدة صمت. رفعت يدي بثبات أمامي. كتب: «**جسد مُتخشب**».

قلت بنبرة خالية من أي عاطفة.. لا شيء على الإطلاق: «ماذا؟»

كرر سؤاله: «من الرئيس؟» وهو يدوّن: «**نقص في التركيز**».

«أو... أوباما».

كتب: «**نبرة منخفضة، ثابتة، مع لثغة واضحة**». لم أكن قادرة على التحكم في حركة لساني.

أخرج عدة أدوات من جيب معطفه الأبيض. استخدم مطرقة الانعكاسات العصبية وطرق بها على ركبتي. لكن لم تهتز للأمام كما كان من المفترض أن يحدث. وجّه ضوء كشافه لعينيّ، لم تضق حدقتا عيني كما ينبغي.

قال وهو يلمس ذراعي اليمنى: «حسنًا، الآن المسي أنفك بيدك هذه». رفعت ذراعي ببطء كأني روبوت وحركت يدي نحو وجهي بحركات متعددة عديمة الفائدة. أخطأت أنفي بمسافة قصيرة.

فكّر: «**حالة عنيفة من الكاتاتونيا**».

قال كي يختبر قدرتي على تنفيذ أمر من خطوتين: «حسنًا. المسي أذنك اليسرى بيدك اليسرى». لمس ذراعي اليسرى كي يحدد اليمين من اليسار، وهو يشك في قدرتي على تمييز ذلك بمفردي. لم أتحرك أو أبدِ أي ردة فعل. بدلًا من ذلك أطلقت تنهيدة. أخبرني أن أنسى الأمر، وقفز بسرعة إلى اختبار آخر.

«أود أن تنهضي من السرير وأن تمشي من أجلي».

أنزلت قدمي من فوق حافة السرير وانزلقت بتردد إلى الأرض. أمسك بذراعي وساعدني على الوقوف.

سألني: «هلا مشيتِ في خط مستقيم، قدمًا تلو الأخرى؟».

أخذت دقيقة كي أفكر في الأمر. بدأت في المشي بخطوات قصيرة لكن كنت أقف بين الخطوة والأخرى. ملت في سيري نحو الجانب الأيسر. لاحظ د. نجار أني أظهر علامات على إصابتي بالاختلاج الحركي «Ataxia»، وهو خلل في التنسيق بين الحركات. كنت أمشي وأتكلم مثل الكثير من الحالات المتأخرة من مرضى ألزهايمر الذين يعالجهم، والذين فقدوا قدرتهم على الحديث والتفاعل بشكل مناسب مع بيئتهم المحيطة، ويمرون بفترات قصيرة من الحركات الغريبة اللاإرادية. لا يبتسمون، ونادرًا ما تطرف عيونهم، ويبقون ساكنين في أماكنهم بشكل غير طبيعي، كأن إحدى أقدامهم منغرسة بقوة في عالم آخر.

ثم جاءته فكرة: **اختبار الساعة**. رغم ابتكار اختبار الساعة في منتصف الخمسينيات، فإنه لم يُدرج في الدليل التشخيصي والإحصائي الصادر عن المؤسسة الأمريكية للأمراض العصبية والنفسية إلا عام 1987م، ويُستخدم لتشخيص أماكن الخلل في الدماغ في حالات السكتة الدماغية لمرضى ألزهايمر ومرضى الخرف العقلي.

ناولني د. نجار ورقة فارغة نزعها من دفتره وقال: «هلا رسمتِ لي ساعةً وملأتها بالأرقام من 1 إلى 12؟» نظرت نحوه بحيرة. «كما تتذكرينها. ليس ضروريًا أن تكون رسمة مثالية».

نظرت إلى الطبيب ثم إلى الورقة ثانية. أمسكت بالقلم بأطراف أصابع يدي اليمنى كأنه جسم غريب علي. في البداية رسمت دائرة لكنها كانت غير

متوازنة والخطوط متعرجة للغاية. طلبت ورقة أخرى فانتزع صفحة جديدة من دفتره. حاولت من جديد. هذه المرة أخذت الدائرة شكلًا معقولًا. لأن رسم دائرة يعتبر ذاكرة إجرائية (الذاكرة التي ظلت تعمل عند مريض فقدان الذاكرة الشهير هـ. م.)، وهي ممارسة تكتسب بالتعلم المتكرر، مثل ربط رباط الحذاء، يكون المرضى قد أدوها كثيرًا لدرجة من النادر أن يخطئوا فيها أو ينسوها، لذا لم يفاجأ د. نجار أنني تمكنت من رسم الدائرة بسهولة نسبية في المحاولة الثانية. مررت بالقلم على الدائرة التي رسمتها مرة واثنتين وثلاثة، وهو فعل يسمى عسر الكتابة الحركي (ديسغرافيا) وهو اضطراب يرسم فيه المريض خطوطًا أو حروفًا ثم يعيد رسمها. انتظر د. نجار كتابتي للأرقام.

«الآن ارسمي الأرقام داخل الساعة».

ترددت. يمكنه أن يرى محاولتي عصر مخي كي أتذكر. انحنيت على الورقة وبدأت في الكتابة. بالترتيب رسمت الأرقام. أحيانًا كنت أقف عند رقم ما، وأرسمه عدة مرات. المزيد من الديسغرافيا. بعد لحظة نظر د. نجار إلى الورقة وكاد أن يصفق. لقد حشرت الأرقام كلها من 1 حتى 12 في الجانب الأيمن من الدائرة. كانت رسمة مثالية حتى إن الساعة 12 مرسومة تقريبًا حيث من المفترض أن تكون الساعة 6 في الوضع الطبيعي.

أشرق وجه د. نجار، وهو يمسك بالورقة ويريها لوالديّ بينما يشرح أهمية ذلك. علت وجهيهما الدهشة مع مزيج من الذعر والأمل. أخيرًا كان هذا هو الدليل الذي كان يبحث الجميع عنه. لم يتضمن العثور عليه استخدام آلة باهظة أو اختبارات معقدة وخطرة، كل ما تتطلب الأمر ورقة وقلم. منحت رسمتي للساعة د. نجار دليلًا قاطعًا أن نصف مخي الأيمن ملتهب.

الساعة كما رسمتها

يسمح المخ السليم بالرؤية عبر عملية معقدة تتضمن مشاركة نصفي المخ معًا. في البداية تُحفّز مستقبلات معينة في الشبكية ثم تنتقل المعلومات من العين عبر مسارات بصرية حتى تصل إلى القشرة المخية البصرية التي تقع في ظهر المخ. بعد وصول الصورة إلى الفص القذالي، يرسل إشارة إلى الفص الصدغي والجداري لمعالجتها وترجمتها. الفصان الجداريان يمدان الإنسان بإجابة سؤاليّ «متى وأين؟» الخاصة بالصورة، فتجعلنا ندرك وقت الصورة وأبعادها. بينما الفص الصدغي يمدنا بإجابة أسئلة «من وماذا ولماذا؟» التي تمنحنا القدرة على التعرف على اسم ما نراه، ومشاعرنا نحوه، والذكريات التي ترتبط به.

لكن في عقلٍ مُصاب بخلل، حيث لا يعمل أحد نصفي المخ بشكل سليم وبالتالي يتعرض تدفق المعلومات إلى الإعاقة يصبح العالم البصري هذا غير متوازن. ونظرًا إلى أن المخ يعمل بشكل عكسي، بمعنى أن نصف المخ الأيمن مسؤول عن مجال الرؤية الأيسر، ونصف المخ الأيسر مسؤول عن مجال الرؤية الأيمن، فقد أظهرت رسمتي للساعة بالأرقام المجتمعة على الجانب الأيمن فقط وجود خلل في نصف مخي الأيمن - المسؤول عن رؤية الجانب

الأيسر من الساعة. هذا هو التفسير المبسّط للأمر. الإهمال البصري لا يعني العمى. الشبكية ما تزال سليمة، وترسل المعلومات للقشرة البصرية. الأمر هو أن المعلومات لا تُعالج بدقة تسمح لنا بـ «رؤية» الصورة. التعبير الأدق لهذه الحالة كما يقول بعض الأطباء هو اللامبالاة البصرية؛ أي أن المخ ببساطة لم يعد مهتمًا بما يحدث في الجانب الأيسر من عالمه.

ساعد اختبار الساعة في تفسير جانب آخر من مرضي كان الأطباء قد تجاهلوه بشكل كبير: التنميل في جانب جسمي الأيسر الذي صار شيئًا منسيًا منذ وقت طويل. الفص الجداري يساهم في الإحساس وأي خلل هناك قد يسبّب شعورًا بالتنميل. اختبار رسم الساعة وحده أجاب عن الكثير من الأسئلة؛ فبالإضافة إلى تفسيره تنميل الجانب الأيسر من جسمي، فسّر أيضًا جنون الارتياب ونوبات الصرع والهلاوس. ربما يكون حتى السبب في تخيلاتي بخصوص بق الفراش حيث إن عضات البق التي توهمت وجودها كانت في ذراعي اليسرى.

بعد استبعاد الاضطراب الفصامي العاطفي، وذهان ما بعد الصرع، والتهاب المخ الفيروسي، والأخذ بالاعتبار ارتفاع عدد خلايا الدم البيضاء في عينة السائل النخاعي، توصل د. نجار إلى استنتاج: سبب التهاب المخ غالبًا هو ردة فعل مناعية قام بها جسمي نفسه. لكن أي نوع من أمراض المناعة الذاتية؟ كان هنالك تحاليل قد أجريت فعلًا للكشف عن نسبة ضئيلة من الأمراض المناعية المائة المعروفة، وظهرت النتائج سلبية لذا أُستبعدت. ثم تذكر د. نجار مجموعة من الحالات التي سُجّلت مؤخرًا في جامعة بنسلفانيا عن مرض مناعي نادر يصيب غالبًا الأشخاص في سن صغيرة، هل يمكن أن أكون مصابة بنفس المرض؟

كانت هنالك أسئلة أخرى تحتاج إلى أجوبة: ما حجم الالتهاب؟ هل

يمكن إنقاذ مخي؟ الطريقة الوحيدة للإجابة عن تلك الأسئلة هي أخذ خزعة من نسيج المخ، ولم يكن د. نجار واثقًا من موافقة والديّ على ذلك. لا أحد يحب سماع كلمة خزعة من المخ والتي تتضمن قطع جزء ضئيل جدًا من المخ لدراسته وتحليله. لكن من دون تدخل سريع قد تتدهور حالتي. كلما استمرت المشكلة وقتًا أطول دون تدخل، تتضاءل فرصي في استعادة ذاتي القديمة. بينما يدير د. نجار هذه الأفكار في رأسه، راح يبرم شاربه وهو مستغرق في تفكيره، ويلف في الحجرة. في النهاية جلس على السرير بجواري. التفت إلى والديّ وقال:

«دماغها يشتعل». أخذ يديّ الصغيرتين في يديه الكبيرتين وانحنى كي ينظر في عينيّ مباشرة. «سأفعل كل شيء ممكن من أجل شفائك. أعدكِ سأكون موجودًا دائمًا من أجلك».

للحظة، بدا أن ذاتي القديمة قد عادت للحياة. سيذكرني لاحقًا بتلك اللحظة. سوف أندم طوال حياتي على عجزي عن تذكر أي شيء من هذه اللحظة بالغة الأهمية، إحدى أهم اللحظات في حياتي. لقد رأى د. نجار الدموع تتجمع في زوايا عينيّ. اعتدلت في جلستي، ورميت ذراعيّ حوله. كانت لحظة مهمة أخرى في حالتي بالنسبة إليه. كان يمكنه أن يستشعر أنني ما أزال هناك، في مكان ما. لكنها في النهاية كانت مجرد لحظة استثنائية قصيرة. استلقيت ثانية بعد فيض المشاعر هذا. سرعان ما أصبحت مجهدة من إظهاري الوجيز للعواطف. لكنه عرف أنني كنت هناك، ولم يكن ليتخلى عني بعد أن رأى ذلك. أشار لوالديّ كي يتبعاه إلى خارج الحجرة.

كرر: «دماغها يشتعل». أومأ والداي بعيون متسعة. «جسمها يهاجم مخها».

(27)

خزعة المخ

لم تنتهِ أخبار د. نجار عند هذا الحد.

قال: «أشعر أن العلاج اللازم هو الستيرويدات لكن لا بد من تأكيد وجود الالتهاب قبل المضي قدمًا».

سألته أمي: «كيف؟».

«هنالك طبيب في جامعة بنسلفانيا متخصصٌ في الأمراض المناعية وأؤمن أنه يملك الأجوبة التي نبحث عنها. في تلك الأثناء...» صمتَ للحظة عالمًا أن والديّ لن يسعدا بما سيقوله: «هنالك عدة طرق لمعالجة حالتها. هنالك الستيرويدات، وهنالك تقنية استخراج البلازما وهنالك الـ IVIG».

أومأ والداي في تناغم وآلية مأسورين تمامًا بالتأثير الطاغي لهذا الرجل. قال وهو يخفض من نبرة صوته: «لكن أفضل شيء علينا أن نفعله هو أن نأخذ خزعة من المخ».

سألته أمي بهدوء: «ماذا يعني ذلك؟».

«نحتاج إلى إلقاء نظرة على مخها وأخذ...» رفع الإبهام والسبابة وفصل بينهما بمسافة سنتيمتر واحد. «عينة صغيرة منه».

بدا على وجه أبي الرفض. «لست واثقًا من هذا الإجراء».

«أعدكما أنه لو كانت سوزانا ابنتي، كنت سأسمح بإجراء خزعة المخ. حجم المخاطر بعدم أخذ العينة يفوق بكثير مخاطر هذا الإجراء. أسوأ شيء يمكن أن يحدث هو أن نعود إلى نقطة الصفر».

لم يتفوها بكلمة.

قال: «أرغب في أخذ العينة يوم الاثنين، أو الثلاثاء كحد أقصى. لكن القرار في النهاية لكما. في هذه الأثناء سأتحدث مع الفريق الطبي والجراح الذي سيأخذ الخزعة. دعاني أفكر في الأمر أكثر. وسأخبركما بما سأصل إليه».

بينما يمشي د. نجار مبتعدًا، همست أمي: «إنه النسخة الحية من د. هاوس».

***

لاحقًا بعد ظهر ذلك اليوم، أتت د. روسو، وأكدت لوالديّ أن قرار الفريق الطبي هو أخذ خزعة من المخ. حاولت أمي البقاء هادئة لكنها شعرت بالعجز وانعدام الحيلة. أشارت إلى د. روسو كي تتحدثا في الممر خارج الحجرة. كانت لديها أسئلة كثيرة لكن كل ما كان يشغل بالها هو هاتان الكلمتان البسيطتان اللتان تثيران في عظامها القشعريرة: خزعة المخ. بعد أن حافظت لأسابيع على مظهر زائف من التماسك ورباطة الجأش، أخيرًا وصلت أمي إلى نقطة الانهيار، وبدأت في النحيب. عبّرت عن مخاوفها بصدق. وقفت د. روسو وهي تطوي يديها أمام صدرها لا تعرف ماذا تفعل ثم مدت يدها، ولمست ذراع أمي برفق.

«ستصبح الأمور على ما يرام».

مسحت أمي دموعها، وأخذت نفسًا عميقًا. «من الأفضل أن أعود إلى الداخل».

عندما عادت، رماها والدي بنظرة اتهامية. قال: «لقد سمعنا ما قلته». رغم فظاظته في تلك اللحظة، كتب أبي لاحقًا في يومياته أنه شعر بنفس المخاوف التي شعرت بها أمي:

«مجرد سماعي عبارة «خزعة المخ» يخيفني. يمكنني سماع صوت أمي تقول لي ألا أسمح لأحد بالعبث في مخ ابنتي. لقد رأت الكثير من الأشياء الفظيعة تحدث أثناء عملها كأخصائية تمريض، ولم تثق أبدًا بجراحي المخ. كان علي أن أذكر نفسي أن ذلك كان منذ مدة طويلة، وأن الطب قد تقدم».

مشى أبي مرهقًا من أحداث اليوم المتلاحقة، ما بين اختبار الساعة وخبر خزعة المخ، من المركز الطبي لجامعة نيويورك إلى الشارع رقم ثلاثة وثلاثين. استقل المترو إلى ضاحية ساوث بارك. لمح بين الضاحية الأولى والثانية مبنى كنيسة القلوب المقدسة للمسيح وماريا. وجد نفسه يدخل إلى باحة الكنيسة بتلقائية معجبًا بنوافذها ذات الزجاج الملون، واللوحة المفعمة بالحياة لملاك يحيط بذراعيه رجلًا منهارًا. ركع على ركبتيه، وأخذ يصلي.

في نفس الوقت، كانت أمي في مكتب نائب عام حي مانهاتن في وسط المدينة، تفعل شيئًا مشابهًا. أمسكت بيد سكرتيرتها إلزي وزميلتها في العمل ريجينا، وهي مسئولة التعميد في كنيستها. أغمض الثلاثة أعينهن، وتشابكت أيديهن في دائرة مغلقة بينما يصدح صوت روجينا فوقهم: «يا إلهي اشف هذه السيدة الشابة. يا إلهي اسمعنا. اسمع صلواتنا. نصلي إليك كي تشفي هذه الفتاة. اسمع صلواتنا. رجاءً استجب لصلواتنا».

كادت أمي - الفتاة اليهودية الأغنوسية[1] من حي ذا بونكس - أن تُقسم على شعورها بوجود الرب في تلك اللحظة.

أثناء ذلك، كنت أنا مرتاحة البال غير مدركة لمدى معاناة والدي. أرسلت رسالة إلى صديقتي في الجامعة ليندسي التي تعيش في سانت لويس قلت فيها: «سأجري زخعة مخ!».

ردّت ليندسي، وقد أربكتها أخطائي الهجائية: «ماذا؟ ماذا تقصدين؟»

«سيأخذون قطعة من دماغي!!»

اتصل بي في ذلك اليوم أيضًا صديقي زاك الذي كان يرعى قطتي مع زميلتنا في العمل وصديقتنا جينجر. أخبرته بالخبر بطريقة عادية، كأنني أخبره بما تناولته على الغداء.

قلتُ: «سأجري زعخة مخ».[2]

سألني بقلق واضح: «تمهلي سوزانا. سيجرون عملية جراحية في مخكِ؟».

كانت أول مرة يبدي لي أحدهم بشكل مباشر قلقه من مدى خطورة الجراحة. بدأت دموع الخوف والحيرة تنساب من عينيّ ثم أغلقت الخط في النهاية، غاضبة جدًا لدرجة لا يمكنني الاستمرار فيها بالحديث.

***

1 - الأغنوسية أو اللاأدرية: مذهب فلسفي مبني على عدم الإيمان أو الكفر بوجود الآلهة، أي استحالة إثبات أو نفي وجود الرب. ويحاول التعرف على وجود الرب من خلال العاطفة والعقل دون التقيد بدين محدد. وبالتالي هو بمثابة نزعة فكرية صوفية.

2 - كُتبت بطريقة خاطئة أيضًا. (المترجم).

كانت عطلة نهاية أسبوع عيد الفُصح. في يوم السبت، أتت لزيارتي الممرضة المعاونة للجراح لتصف الاستعدادات اللازمة لجراحة المخ. بدت مُبتهجة وبشوشة الوجه. تمكنت من جعل خزعة المخ تبدو كإجراء روتيني. لم يهدّئ ذلك مخاوف أبي. بينما كانت الممرضة تشرح موضع حلاقة رأسي - الجزء الأمامي فوق جبهتي اليمنى لمسافة حوالي أربعة إنشات باتجاه قمة الرأس - كنت أستمع إليها بدون رهبة أو مبالاة. أعجب والدي بتماسكي. لكن لاحقًا في المساء بدأت أمر بانهيار عصبي. رؤيتي منزعجة جعلت أبي يبكي أيضًا. ثم فجأة سمعني أضحك.

قلت مقهقهةً: «تبدو مُضحكًا حين تبكي».

فجأة بدأنا نضحك ونبكي سويًا. من خلال دموعه ذكّرني بشعارنا.

«ما الذي يميز ميل الخط؟»

«اممم...» لم أستطع تذكر الإجابة.

«أنه موجب. وماذا يعني ذلك؟»

«اممم..» رفعت ذراعي لأعلى مشيرة للتقدم.

«صحيح. التحسن كل يوم».

اليوم التالي كان صباح عيد الفصح. جلب لي أبي سلة عيد الفصح، نفس السلة التي يهديها لي في كل عيد منذ كنت طفلة، سلة تمتلئ بالشوكولاتة وسكاكر الجيلي بينز. كان مسرورًا لرؤيتي أبدو كطفلة من جديد، عيناي متسعتان، ومستعدة للانقضاض على الحلوى. كانت تجتاحه مشاعر متناقضة من الرهبة والحماس. أما أنا فكنت أبدو هادئة بشكل غريب.

***

وصل والداي مبكرين عن موعدهما الطبيعي في صباح الاثنين. في النهاية أتى عامل يبدو وكأنه ينتمي إلى ملائكة الجحيم[1]. وضعني على سرير متحرك، وجرني إلى حجرة العمليات. انتظر والداي في الحجرة لثوانٍ قليلة. نحّيا جانبًا سنوات من الخيانة والاحتقان العاطفي والصراعات التافهة، وتبادلا عناقًا مصحوبًا بقليل من الدموع.

جناح العمليات تجسيد حي للطب في بعده الصناعي، مكان معقم تصطف على جانبيه أبواب تفضي إلى عشرات من غرف العمليات. تلاشت لوحات المعالم الطبيعية والموسيقى الهادئة التي تعج بها المستشفى، هنا حيث تُجرى الجراحات الخطيرة، وهنا تُتخذ القرارات المصيرية. انتظرنا في منطقة تقع مباشرةً أمام المصاعد محاطةً بستائر ضخمة نظيفة. الجميع خلف الستائر يرتدون زي الجراحة. أتى جراح المخ والأعصاب المُقيم كي يحلق رأسي. حلق قطاعًا من رأسي يبلغ قطره خمسة إنشات، لكن رغم أنني أبدو بكامل وعيي، لم أصرخ أو أستنجد بأحد أو أبكي. أعجب أبي بقوتي مجددًا رغم أنه من الممكن أن تكون قوتي تلك نابعة ببساطة من عدم استيعابي لما يحدث. اعتدلت في جلستي على السرير، لا يزعجني حقيقة أن رأسي محاطة بمنشفة كما لو أني خرجت للتو من جلسة حمام بخار. انحنى أبي على ركبتيه بجواري مقاومًا دموعه: «تذكري ما قلتُ. ما هي الاستراتيجية؟»

«خطوة واحدة في كل مرة».

«ما الذي يميز ميل الخط؟»

«أنه موجب».

1- نادي ملائكة الجحيم للدراجات النارية: مجموعة من الشبان الذين يقيمون سباقات شديدة الخطورة حيث يعتبرون الخلاص من جحيم الحياة يأتي عن طريق الدراجات النارية وإدمان المخدرات والأسلحة. وتعتبرها الشرطة الأمريكية تنظيمًا غير قانوني وجزءًا من الجريمة المنظمة.

لبس جراح المخ والأعصاب د. ورنر دويل ردائه الجراحي، واستعد للجراحة. دخل إلى حجرة العمليات مصحوبًا بممرضة مساعدة وممرضة مُراقِبة[1] وطبيب تخدير. رغم درجة الأمان النسبية المصاحبة لهذا التدخل الجراحي مقارنة بعمليات أكثر خطورة، ما يزال هنالك عدد من الأشياء التي قد تسير بشكل خاطئ: قد يكون المكان الذي اختاروه لأخذ العينة مكانا خاطئًا، وهنالك دائمًا خطر الإصابة بالعدوى أو خطأ جراحي ما قد يصاحب أي جراحة، خاصة الجراحات التي تتعلق بالمخ. لكن مع ذلك خزعات المخ تعتبر تدخلًا جراحيًا بسيطًا مقارنة بعمليات الصرع المعقدة التي صار د. دويل بارعًا في أدائها مع مرور الوقت.

أُرسِلت صورة حديثة من رنين مغناطيسي أجري لي قبل أيام من العملية إلى حاسوب مكتبه والحاسوب المركزي[2]. توجّه صورة الرنين الجراح أثناء عمله عبر عملية تسمى الجراحة المجسّمة[3] تشمل رسم خريطة مرئية للمخ ثنائية وثلاثية الأبعاد، مما يُمكن الجراح بسهولة ودقة من استهداف جزء واحد محدد في الدماغ، وهو في حالتي القشرة المخية الجبهية. كان قد وقع اختياره على منطقة محددة، منطقة تخلو من أي أوردة كبيرة، وبعيدة كل البعد عن أجزاء المخ المسؤولة عن الوظائف الحركية.

1- المرضة المساعدة تساعد الجراح أثناء العملية، أما المرضة المراقبة فلا تشترك في الجراحة ووظيفتها مراقبة الإشارات الحيوية للمريض وتراقب عمل الجراح وطبيب التخدير. في ظل غياب المريض عن الوعي أثناء العملية تسمى ممرضة المراقبة بمحامي المريض.

2- يعرف أيضًا بمحطة العمل وهو حاسوب متطور جدًا يُستخدم في التطبيقات التقنية والعلمية.

3- الجراحة المجسمة «stereotactic»: تقنية تستخدم نظام ثلاثي الأبعاد لتوفير الحد الأدنى من التدخل الجراحي حيث يستخدم إحداثيات دقيقة جدًا لتحديد مواضع الأهداف الصغيرة داخل الجسم بدقة متناهية.

نُقلت إلى طاولة العمليات. حلقوا رأسي وطهروها. ثم وضعوني تحت تأثير تخدير كلي.

أمرني طبيب التخدير: «عدي تنازليًا من 100».

«100 .. 99..».

بينما تنغلق عيناي تحت تأثير المخدر، ثبتوا ماسك الرأس فوق صدغي كي تبقى رأسي ثابتة طوال العملية. وبمشرطٍ صنع د. دويل شقًا على شكل حرف S، بطول أربعة سنتيمترات من منتصف فروة الرأس حتى الجهة اليمنى من الجبهة. امتد ذراع حرف S ليصل حتى خلف خط شعري. فصل الجلد عن الجمجمة بنصل حاد، ورفعه من كلا الجانبين بواسطة مِبعاد[1]، ثم أمسك بمثقاب فائق السرعة في يده مثل نجار ماهر، ثم ضغط به جمجمتي صانعًا ما يعرف بنقب الجمجمة؛ وهو ثقب بقطر سنتيمتر واحد في عظم الجمجمة. ثم مرر القاطع «Craniotome» عبر الثقب، محولًا العظم إلى تراب مطحون. أزال قطعة عظمية بطول ثلاثة سنتيمترات، لتنكشف أسفلها الأم الجافية؛ وهي الطبقة الخارجية من الأغشية التي تحمي المخ.[2] أزالها واحتفظ بجزء منها لفحصها مع نسيج المخ. ثم بمبضع رقم 11 الحاد ودايسيكتور، قطع مكعبات عديدة من نسيج المخ تعادل نحو واحد سنتيمتر مكعب في الحجم، تحتوي على المادة البيضاء (الألياف العصبية) والمادة الرمادية (أجسام الخلايا العصبية). أخذ عينات من أجل الفحص، واحتفظ بعينة إضافية لتُجمّد وتُحفظ إذا استلزم إجراء اختبارات أخرى غير مخطط لها. مسح الجزء الظاهر من المخ ثم أوقف أي نزيف بالـ «cottonoids»،

1- أداة طبية تشبه الكماشة.

2- يحاط المخ بثلاثة أغشية وهي ما تعرف بالسحايا من الداخل للخارج: الأم الحنون فالعنكبوتية ثم الأم الجافية.

وهي ألياف صناعية عالية الامتصاص.

ثم خاط تطعيمًا[1] بالغشاء الخارجي للمخ بحرص شديد ثم أعاد لصق القطعة العظمية التي انتزعها. دفعها لأحد الجوانب مقربًا حوافها من العظم المحيط بها كي تلتحم به ثم ثبتها بمسامير دقيقة وصفيحة معدنية صغيرة. أنهى العملية بإعادة الجلد لمكانه الأصلي وإغلاق فروة الرأس بمشابك معدنية. استغرقت العملية ككل أربع ساعات.

***

قال صوت آلي ينبعث من مسجل صوتي: «عدي تنازليًا من 100. 100... 99... 98».

ظلام.

تطرف عيني. طرفة. طرفة. «ما زلت مستيقظة».

ظلام.

حجرة إنعاش مزدحمة. أنا بمفردي. هنالك عائلة على يميني، تحيط بمريض آخر. أين والداي؟

ثم فجأة لمحتهما. أبي وأمي. لا يمكنني التحرك. ثم رأيت ستيفن وآلن. حاولت أن أرفع ذراعي قليلًا كي ألوح لهم. شعرت بأنها ثقيلة كثقل وزنه خمسين رطلاً.

ظلام.

«عطشانة». صوتي متحشرج. «عطشانة».

1- نسيج خال من الأوعية الدموية تُسد به الجروح الجراحية لمساعدتها على الالتئام.

«خذي». قالتها ممرضة فظة، وهي تحشر إسفنجة مبللة بالماء في فمي. ملمس الإسفنجة غير سار لكن كان للماء مذاق نعمة مُرسلة من الرب. مصصت قطرات الماء من الإسفنجة.

كررت: «عطشانة». حشرت الممرضة إسفنجة أخرى في فمي. سمعت صوت الوالدين يطعمان طفلهما على السرير المجاور لي رقائق من الثلج. رفعت ذراعي. أريد بعضًا منها.

اقترب ممرض مني.

«ثلج».

أحضر قليلًا من رقائق الثلج، ووضعها على لساني. يمكنني سماع الممرضة تخبره ألا يعطيني الماء.

«لا يمكنها شرب الماء، تجاهلها وحسب».

قلت بأنين: «ماء. ماء..».

اقتربت الممرضة مني. «آسفة لا يمكنك تناول المزيد».

«سأخبر الجميع عن معاملتك السيئة لي. سأفضحكِ أمام الجميع عندما أخرج من هنا».

«ماذا قلتِ؟».

نبرة صوتها أرعبتني. «لا شيء».

ظلام.

أنا في حجرة منفردة تثير فيّ رهاب الأماكن المغلقة. يجب أن أتبول. يجب أن أتبول. عصرت مثانتي. انفكت القسطرة من مكانها، واندفع البول مُغرقًا السرير. صرخت مستغيثة. أتت الممرضة.

«لقد تبولت».

أتت ممرضة أخرى. أمالا جسدي على جانبه الأيسر، وأزالا الملاءات، ونظفاني بمناشف دافئة ثم رشاني بشيء ما. ثم أمالاني على جانبي الأيمن وأعادا رشي. انتابني شعور جيد، لكن لم أستطع التحرك. دفعت بقوة واضعة تركيزي كله من أجل تحريك جسمي، حاولت أن أهز أصابع قدمي. حاولت بشدة لدرجة أن صداعًا قد انتابني. مع ذلك لم تتحرك أصابع قدمي قيد أنملة.

صحت: «لا يمكنني تحريك ساقيّ».

***

بعد عدة ساعات من انتهاء العملية، حوالي الساعة الحادية عشرة مساءً، أعلمت ممرضة أبي - الذي قرر البقاء وانتظار الأخبار بينما عاد الآخرون للبيت بناءً على إلحاح إدارة المستشفى - أنني قد نُقلت من حجرة الإنعاش إلى حجرة العناية المركزة. لم يسمحوا له بالدخول لكنه دخل إلى الحجرة على أية حال. كانت الحجرة تنقسم إلى مناطق مغلقة، كل منطقة مخصصة لمريض. كانت الحجرة تعج بالممرضات، لكن لم تنظر إليه إحداهن مرتين. كان يلقي نظرة داخل كل منطقة حتى عثر عليّ. هناك، كنت راقدة في السرير نصف واعية بما حولي، ظهري مستند على المخدات ورأسي محاطة بشاش أبيض مثل أميرة فارسية مريضة. كنت متصلة بأجهزة وآلات مراقبة لا تكف عن إصدار الأصوات، وساقاي العاريتان محاطتان بجوارب ضاغطة كي تبقي ضغط دمي في مستواه الطبيعي. حين لمحته عيني، تعرفته فورًا، وهو شيء لم يكن يحدث دائمًا منذ مرضي. تعانقنا.

«الأسوأ قد مر يا سوزانا».

سألته: «أين أمي؟».

قال: «ستراك غدًا». لاحظ مدى غضبي من غياب أمي رغم أن قضاءها الليلة في البيت كان القرار الصائب. ثم قلت: «لا يمكنني الشعور بساقيّ يا بابا». بدوت مُقنعة.

سألني: «هل أنت متأكدة، سوزانا؟»، وقد تحول وجهه للأبيض من الخوف. كان هذا مثار قلقه منذ البداية. أن يتسببوا بعاهة دائمة لي بسبب عبثهم في دماغي.

«نعم، لا يمكنني تحريكهما».

في الحال استدعي أبي طبيبًا مقيمًا شابًا، فأتى وفحصني ثم اندفع بي نحو حجرة الرنين المغناطيسي في قسم الطوارئ. أسرع أبي الخطى في صمت وراء السرير المتحرك، ممسكًا بيدي حتى أدخلني تقني الرنين إلى الحجرة طالبًا من أبي الانتظار. في تلك الثلاثين دقيقة من الانتظار، فقد خمس سنوات من عمره. لكن في النهاية خرج الطبيب المقيم من الحجرة، وأخبره أن كل شيء يبدو على ما يرام.

ظل أبي بجواري حتى استغرقت في النوم. حينها عاد إلى البيت. صلى ثم غرق في غفوة مضطربة.

***

(28)

ملاكمة الظل[1]

بعد العملية، نُقلتُ إلى حجرة مشتركة في وحدة الصرع. كانت رفيقتي في الحجرة امرأة في أوائل الثلاثينيات عانت من نوبات صرع أثناء تعاطيها الكحول (رغم أن نوبات الصرع عادةً ما تصاحب حالات الانسحاب من تعاطي الكحول إلا أن الشرب أحيانًا قد يتسبب في النوبات). كانت تتوسل الممرضات دائمًا أن يسمحن لها بشرب قليل من النبيذ كي يتمكنوا من تسجيل نوبة الصرع (وتتمكن هي من الشرب). لكن كن يرفضن.

أكد تحليل خزعة المخ ما توقعه الفريق الطبي: مخي مُلتهِبٌ. الشرائح المجهرية التي أعدها د. نجار من خزعة مخي أظهرت جيوشًا من الخلايا الالتهابية الغاضبة التي يرسلها جهازي المناعي كي تهاجم الخلايا العصبية في مخي، وهذه علامة مميزة لالتهاب نسيج المخ.

منذ وقت ليس بالبعيد، اعتقد أطباء الأعصاب أن المخ مميز مناعيًا عن غيره من أعضاء الجسم، أي أنه منفصل تمامًا عن الخلايا الليمفاوية التي ينتجها الجهاز المناعي، لكن الآن يستخدم الأطباء المصطلح الأكثر حرصًا «مختلف مناعيًا». الحاجز الدموي المخي هو شبكة كثيفة ومعقدة من الأوعية التي

1- ملاكمة الظل: تمرين في الملاكمة يتخيل فيه الملاكم نفسه يصارع خصمًا وهميًا (ظلاً). والعنوان يشير للمرض المناعي الذي يتوهم فيه الجهاز المناعي لجسم الإنسان أنه يقاتل جسمًا غريبًا (باثوجين) لكنه في الحقيقة يهاجم نفسه.

تعمل كبوابات تنظم مرور المواد، مثل البكتيريا والمواد الكيميائية والأدوية، من الدم إلى المخ. اكتشف الباحثون أن هذا الحاجز يسمح لخلايا ليمفاوية معينة بالمرور من خلاله في عملية تسمى الانسلال «Diapedesis» من أجل إجراء «فحوص» دورية لمواجهة أي عدوى تواجه المخ.

لكن في حالتي لم يكن فحصًا روتينيًا. الخلايا المناعية التي سمح الحاجز بمرورها، والتي كان من المفترض أن تحمي الجسم، كانت في قلب معركة حامية الوطيس. كان هذا هو الدليل الذي احتاجه د. نجار: كنت في قبضة مرض مناعي ما.

والآن بعد أن حصلوا على تشخيص مبدئي، صار بإمكان الأطباء البدء في أولى مراحل العلاج: الستيرويدات الوريدية، وهي شكل من أشكال العلاج المناعي الذي يثبط الالتهاب الذي يسبّبه الجهاز المناعي. كيس بلاستيكي شفاف من سولوميدرول، ستيرويد وريدي معلق بجوار سريري لثلاثة أيام كعلاج مكثف. كنت أُعطى جرعة جديدة كل ست ساعات بواسطة مضخة وريدية.

خفّفت هذه الستيرويدات التي تسمى الكورتيكوستيوريدات من حدة الالتهاب وهدأت الجهاز المناعي، مما أدى بدوره إلى قمع أي التهاب مستقبلي. تنساب الستيرويدات في جسمي مثبّطةً مواد كيميائية منشطة للالتهاب تسمى السيتوكينات «Cytokines». وافق د. نجار على إعطائي أعلى جرعة ممكنة خلال الأيام الثلاثة، ثم حوّل علاجي إلى ستين مليجرامًا من الستيرويد الفموي «بريدنيزون» الذي واصل بطريقة أقل شراسة قمع الالتهاب مع مرور الوقت.

ونظرًا إلى أن الكورتيكوستيرويدات تؤثر في مستوى السكر في الدم (للستيرويدات تأثير مضاد لعمل الأنسولن) ضمن عدد آخر من الآثار

الجانبية، أصبت بنوع مؤقت من داء السكري. ورغم أن الأطباء قد غيّروا قائمة طعامي، وسمحوا لي فقط بتناول الجيلي الخالي من السكر كحلوى، ظلّ والداي غافلين عن خطر سكاكر عيد الفصح التي كنت ألتهمها خلسة.

ولأني كنت مجبرة على الراحة في السرير بعد العملية، كانت الممرضات تساعدنني على ارتداء أحذية ضغط طويلة العنق تصل حتى فخذي، تنتفخ وتنكمش باستمرار فتدفع الدم خلال ساقيّ، وتقلد حركة انقباض وانبساط العضلات أثناء النشاط الجسدي. لكن تلك الأحذية كانت تجعل ساقيّ متعرقتين، وتدفعني إلى حكّها باستمرار كما كنت أشرح لأي أحد يستمع لشكواي، وكنت أنتزع هذه الأحذية كل ليلة وأرميها بعيدًا.

رغم علاج الستيرويدات المكثف، لم تتحسن حالتي مباشرة. بل هي في الحقيقة ساءت، وزادت الحركات الليلية الغريبة ونوبات الذعر. كتب أبي عن الصعوبات التي استمررت في مواجهتها في الدفتر الذي كان يتشارك هو وأمي في الكتابة فيه:

«تعلو وجهها ابتسامة متكلفة غريبة. سرعان ما تصبح عصبية. وتمد ذراعيها أمامها. وترسم تكشيرة على وجهها، يجتاحها التوتر، وتبدأ في الارتجاف».

مع ذلك كان بإمكاني أن أحافظ على رباطة جأشي أثناء وجود الزائرين. أتت هانا لزيارتي بعد مدة قصيرة من العملية، وأطلقت ضحكة مخنوقة عندما رأت عمامة الشاش الأبيض التي تغلف رأسي. كنت مُتقبلة الأمر بل كنت حتى أمزح بشأنه.

قلت مبتسمة وأنا أقذف حبة سكاكر داخل فمي: «سوف أصبح صلعاء!».

«ماذا تعنين؟ هل حلقوا لك فروة رأسك؟»

«صرت صلعاء!»

«ربما تحتاجين إلى بروبيكيا».[1] ثم انفجرنا في الضحك سويًا.

مقطع فيديو مسجل بتاريخ 12 أبريل، 8:12 مساءً، مدته 7 دقائق:

أستلقي على السرير باسترخاء، وساقاي ممدودتان أمامي كأني أخذ حمام شمس. أرتدي قبعة بيضاء. حقيبة الظهر البنفسجية التي تحوي صندوق رسم المخ فوق أسفل بطني. نهضت ثم مشيت نحو الباب. كانت حركتي عرجاء وبطيئة بشكل مؤلم. ذراعي اليسرى ممدودة أمامي.

«هل هو ذلك الزر الأخضر؟» سألت أمي الممرضة دون أن تظهر في الكادر، مشيرة إلى زر الاستدعاء في حالة حدوث نوبة صرع، المعلق في حواجز السرير. ثم دخلتْ الكادر وجلست بجوار النافذة.

عدت إلى السرير. نهضت أمي وأحاطتني بذراعيها ثم ضغطت زر الاستدعاء. بعد لحظات أتي الممرض إدوارد وبدأ في إجراء اختبار عصبي، مقلدًا الأفعال التي يريدني أن أوديها: فرد ذراعيه. فعلت مثله بشكل تدريجي بطيء. لمس إصبع السبابة في يدي اليسرى وأخبرني أن أغمض عينيّ وألمس بالإصبع وجهي. بعد لحظات قليلة، فعلت. كرر نفس الأمر على الجانب الآخرمن جسمي.

عندما غادر إدوارد، مددت يدي نحو الملاءات. استغرقت عشر ثوانٍ كاملة كي أستلقي من جديد. في تلك الأثناء علا التوتر وجه أمي. أخذت تعبث في حقيبة يدها، وضعت ساقًا فوق ساق ثم أعادت ساقيها لوضعها الطبيعي، كل هذا بينما عيناها مثبتتان عليّ.

نهاية الفيديو

1- دواء مشهور لعلاج تساقط الشعر والصلع.

في الليلة الثالثة التي أقضيها في الحجرة المشتركة، تعرضت السيدة على السرير المجاور لنوبة صرع. أقنعت الفريق الطبي أن يسمح لها بشرب النبيذ لأنهم حصلوا على ما يريدونه؛ تسجيل فعلي لنوبة الصرع. سرعان ما سُمح لها بمغادرة المستشفى.

(29)

مرض دالماو

لاحقًا في ذلك اليوم، حضرت د. روسو لتشرح لنا أي الأمراض يمكن الآن استبعادها من قائمة الاحتمالات، والتي تتضمن: فرط نشاط الغدة الدرقية، ورم ليمفومي (ليمفوما)، وداء ديفك وهو مرض نادر يشبه في أعراضه مرض التصلب المتعدد. ما زالوا يشكون في إمكانية إصابتي بالتهاب كبدي، والذي بإمكانه أن يتسبب في التهاب في المخ لكن لا يمتلكون دليلًا على ذلك.

بعد انتهاء المحادثة، تبعت أمي د. روسو إلى الممر خارج الحجرة.

سألتها أمي بإلحاح: «إذًا ماذا تعتقدون بخصوص طبيعة مرضها؟».

«الحقيقة هنالك رهان بيني وبين د. نجار».

«أي نوع من الرهان؟»

«يعتقد د. نجار أن الالتهاب سببه التهاب ذاتي المناعة. بينما أعتقد أنا أنه متلازمة الأباعد الورمية (paraneoplastic)».

ضغطت أمي عليها كي تمنحها مزيدًا من التفاصيل، شرحت لها د. روسو أن متلازمة الأباعد الورمية هي نتيجة لورم موجود داخل الجسم، وهو عادةً ما يصاحب سرطان الرئة أو الثدي أو المبيضين. الأعراض - الذُهان والكاتاتونيا إلى آخره - لا تحدث بسبب السرطان، بل نتيجة لردة فعل الجهاز

المناعي لوجوده. بينما يتحفز الجسم لمهاجمة الخلايا السرطانية، أحيانًا يبدأ الجسم بمهاجمة خلايا سليمة في الجسم مثل الحبل الشوكي أو المخ.

ختمت د. روسو حديثها: «نظرًا إلى إصابتها السابقة بالميلانوما فأنا أعتقد أن هذا التشخيص منطقي».

لم يكن هذا ما أرادت أمي سماعه. كان السرطان دائمًا أكبر مخاوفها. الكلمة التي كانت لا تجرؤ على التفوه بها. الآن تذكّرها هذه الطبيبة به عرضًا، كجزء من رهان.

***

في تلك الأثناء وصلت أنبوبتا اختبار بلاستيكيتان محفوظتان بعناية في صناديق البولي–ستيرين إلى جامعة بنسلفانيا حيث نُقلتا في ثلاجة في شاحنة فيديكس. إحدى الأنبوبتين تحوي سائلي النخاعي الشفاف، صافيًا كماء غير مفلتر، أما الأنبوبة الأخرى فتحوي عينة من دمي، بدأت تبدو كبول مجفف لأن خلايا الدم الحمراء ترسبت مع مرور الوقت في القاع. أُعطيت الأنابيب الرمز 0933، مع الحرفين الأوليين من اسمي «SC»، ووضعت في فريزر تجميد تحت درجة حرارة سالب 80 في انتظار إجراء المعمل التحاليل المطلوبة. أُرسلت العينات إلى معمل يديره طبيب الأورام العصبية د. جوزيف دالماو، الذي ذكره د. نجار في زيارته الأولى، والذي راسلته د. روسو عبر البريد الإلكتروني كي تطلب منه إلقاء نظرة على حالتي.

منذ أربع سنوات في عام 2005، كان د. دالماو المؤلف الرئيسي لورقة بحثية نشرت في مجلة علم الأعصاب الشهيرة «دورية الأمراض العصبية». ركزت الورقة على أربع شابات ظهرت عليهن أعراض أمراض عقلية واضحة، بالإضافة إلى التهاب في المخ. كان السائل النخاعي في كل الحالاتَ

يحوي خلايا دم بيضاء. وكلهن عانين من تشوش في الذهن، وهلاوس وأوهام، ومشاكل في الذاكرة، وصعوبة في التنفس. وكلهن كن مصابات بأورام تسمى تيراتوما (الورم المسخي). لكن الاكتشاف الأكثر أهمية هو وجود أجسام مضادة متشابهة في المريضات الأربعة، تهاجم مناطق معينة في المخ وخاصة الحُصين. بوجود الورم والأجسام المضادة كان شيء ما يجعل هؤلاء النساء مريضات جدًا.

وهكذا اكتشف د. دالماو نمطًا معينًا في هؤلاء الحالات الأربعة. الآن كان عليه معرفة طبيعة هذا الجسم المضاد نفسه. بدأ د. دالماو وفريقه البحثي العمل ليل نهار على دراسة مناعية وهستولوجية وكيميائية دقيقة، تضمنت قطاعات مجمدة من أمخاخ الفئران التي قُطعت إلى شرائح رقيقة بسمك الورقة، ثم عرّضوا تلك الشرائح لقطرات من السائل النخاعي للحالات الأربعة. الهدف المرجو هو أن ترتبط الأجسام المضادة الغريبة الموجودة في السائل النخاعي بمستقبلات عصبية موجودة في مخ الفأر، وأن يكشف هذا الارتباط عن شكل محدد. بعد ثمانية شهور من التجارب، ظهر أخيرًا نمط معين. جهّز د. دالماو شرائح متماثلة من مخ الفأر، ووضع على كلٍ منها كمية صغيرة من السائل النخاعي لكل مريضة من الأربعة. بعد أربع وعشرين ساعة ظهرت أربع صور جميلة مثل رسومات كهف أو أشكال أصداف، تكشف عن ارتباط الأجسام المضادة بشكل واضح حتى للعين المجردة.

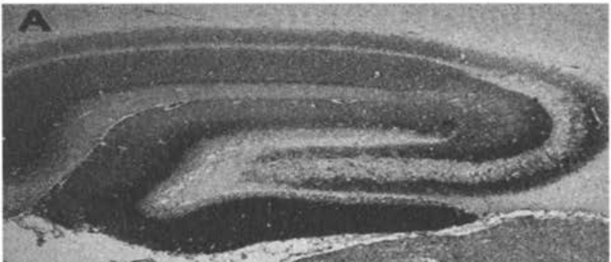

يظهر قطاع في منطقة الحُصين في مخ فأر تفاعل السائل النخاعي لمريضة مصابة بالتهاب المخ ذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA. تمثل المنطقة البنية الغامقة ارتباط الأجسام المضادة للمريضة بمستقبلات NMDA.

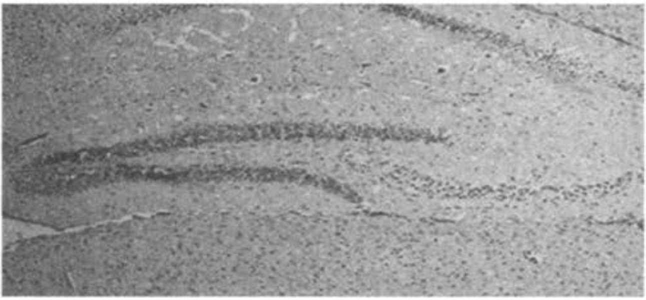

قطاع في منطقة الحُصين في مخ إنسان سليم لا يحتوي على أجسام مضادة لمستقبلات NMDA

قال لي د. دالماو لاحقًا وهو يستعيد تفاصيل تلك اللحظة: «كانت لحظة شديدة الإثارة. حتى تلك اللحظة كانت كل النتائج سلبية، ثم فجأة صرنا متأكدين تمامًا أن الحالات الأربعة ليست فقط مصابة بنفس المرض بل تمتلك نفس النوع من الأجسام المضادة».

أوضح أن التفاعل كان أقوى في حُصين الفأر مقارنةً بالإنسان، لكن كانت هذه مجرد البداية. برز الآن سؤال أصعب بكثير: أي من المستقبلات العصبية في المخ تهاجمها تلك الأجسام المضادة؟ من خلال مزيج من التجربة ومشاهدة ما سيحدث، وتخمينات مدروسة حول أكثر المستقبلات تواجدًا في الحُصين، تمكن د. دالماو وزملاؤه في النهاية من التعرف على الهدف عن طريق استخدام خلايا كلية مجهزة تكنولوجيًا اشتروها من معمل متخصص. خلايا مجردة من أي مستقبلات على سطحها، كأنها صفحة بيضاء. ثم أدخل معمل د. دالماو تسلسلًا من الحمض النووي إلى داخل أنوية الخلايا كي

توجهها إلى إنتاج أنواع معينة من المستقبلات، مما يسمح للمعمل بالتحكم في المستقبلات المتاحة للارتباط بالأجسام المضادة. قرر د. دالماو اختيار إنتاج مستقبلات NMDA على سطح الخلايا بعد أن قدّر أنها المستقبِل العصبي الموجود بكثافة في الحُصين، وبالتالي الأكثر احتمالًا أن يكون المستقبل المنشود. وكانت كذلك حقًا. ارتبطت الأجسام المضادة في السائل النخاعي للمريضات الأربعة بالخلايا. وكانت تلك هي الإجابة: مرتكبو الجريمة هم الأجسام المضادة لمستقبلات NMDA (وهي اختصار لـ N-methyl-D-aspartate).

تقوم مستقبلات NMDA بدور حيوي في الوظائف المتعلقة بالتعلم والذاكرة والسلوك، وتنتشر في كل أنحاء المخ، وهي حجر أساسي في كيمياء مخنا. إذا شُلت وظيفة هذه المستقبلات فسينهار العقل، ومعه سينهار الجسم كله. رغم أن مستقبلات NMDA منتشرة في المخ كله إلا أنها تتمركز في الخلايا العصبية في الحُصين، مركز المخ الأساسي الخاص بالتعلم والذاكرة، وكذلك في الفص الجبهي، المسؤول عن المهام الأرقى وعن تشكيل الشخصية. تتلقى هذه المستقبلات التعليمات من مواد كيميائية تعرف بالنواقل العصبية. النواقل العصبية تحمل أمرًا من اثنين: يمكنها إما أن تستثير الخلية العصبية وبالتالي تحفزها لإطلاق نبضة كهربية أو «تثبطها» وبالتالي تعوق إشارتها العصبية. هذه الحوارات بين الخلايا العصبية هي أساس كل شيء نفعله، بدءًا من ارتشاف كأس نبيذ حتى كتابة افتتاحية الصحيفة.

لدى المرضى التعساء المصابين بمرض التهاب المخ ذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA تصبح الأجسام المضادة - وهي قوات الحماية في الظروف الطبيعية - ضيفًا غير مرحب به في المخ. تطبع الأجسام المضادة المهاجمة للمستقبلات العصبية قبلة الموت على سطح الخلية العصبية، وتشل

مستقبلات الخلية وبالتالي تجعلها عاجزة عن إرسال إشارات كيميائية مهمة أو استلامها.

رغم أن الباحثين ما زالوا بعيدين جدًا عن الفهم الكامل لكيفية تأثير مستقبلات NMDA (والخلايا العصبية المتواجدة على سطحها) على السلوك وقدرتها على تغييره، من الواضح أن أي خلل يحدث فيها يؤدي إلى نتيجة مأساوية وقد تكون مميتة حتى. مع ذلك هنالك تجارب اكتشفت فعلًا بعض الأدلة التي تشير إلى أهميتها. إن انخفضت عدد مستقبلات NMDA الفعالة بنسبة أربعين بالمئة مثلًا فقد تصاب بالذُهان. إن انخفضت بنسبة سبعين بالمئة فتحصل على كاتاتونيا. وإن تدمّر الجين المسؤول عن إنتاج المستقبلات العصبية، أي القضاء على كل مستقبلات NMDA، فتصير الوظائف الضرورية للحياة مستحيلة؛ لهذا تموت معظم الحالات التي تعاني من نقص هذا الجين في غضون عشر ساعات من ولادتها بسبب فشل في التنفس.

الفئران التي تمتلك عددًا ضئيلًا من مستقبلات NMDA تكون عاجزة عن تعلم مص الحليب من ضروع أمهاتها، فتتضور جوعًا حتى تموت في غضون يوم أو أكثر قليلًا. الفئران التي تمتلك على الأقل نسبة خمسة بالمئة من مستقبلات NMDA تنجو، لكن تظهر سلوكًا غريبًا وردود أفعال اجتماعية وجنسية غريبة الأطوار. أما الفئران التي ما تزال تحتفظ بنصف عدد المستقبلات في وضع فعال فتعيش أيضًا لكن تعاني من اختلال في الذاكرة وعلاقات اجتماعية شاذة.

نتيجة لهذا البحث الإضافي، قدم د. دالماو وزملائه في عام 2007م ورقة بحثية أخرى تعرض مجموعة جديدة من الأمراض ذاتية المناعة التي تستهدف مستقبلات NMDA. تقدم الورقة البحثية اثنتي عشرة امرأة

يظهرن نفس الأعراض العصبية، التي يمكن أن نطلق عليها الآن مصطلح متلازمة. كلهن مصابات بالتيراتوما (الورم المسخي) وكلهن تقريبًا شابات.

في غضون سنة من نشر الورقة، شُخّصت مائة حالة بالمرض. لم تكن كل الحالات الجديدة مصابة بالتيراتوما ولم يكن نساءً شابات (البعض كانوا رجالًا والكثير كانوا أطفالًا)، مما مكّن د. دالماو من إجراء دراسة أوسع وأعمق على الحالات التي شُخّصت مؤخرًا، ومع ذلك بقي المرض بلا اسم.

كثيرًا ما يسأله الناس: «لماذا لا تسميه مرض دالماو؟». لكنه لا يعتقد أن «مرض دالماو» اسمًا مناسبًا، ولم يعد شائعًا أن يُسمّى المرض باسم مكتشفه. قال وهو يهز كتفيه: «لا أعتقد أنه سيكون تصرّفًا حكيمًا ولا شديد التواضع».

في الوقت الذي كنت فيه مريضة في مستشفى جامعة نيويورك، كان قد ابتكر وسيلة دقيقة لتشخيص المرض، حيث صمم اختبارين يمكنهما بسلاسة ودقة تشخيص المرض.

بمجرد أن استلم العينات، أمكنه إجراء الاختبار على سائلي النخاعي. إذا اكتشف أنني مصابة حقًا بالتهاب المخ ذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA، فسيجعلني هذا الحالة رقم 217 التي جرى تشخيصها في العالم منذ اكتشاف المرض في عام 2007م. فرضت هذه الحقيقة السؤال التالي: لو استغرق الوصول إلى هذه الخطوة كل هذا الوقت في واحد من أفضل مستشفيات العالم، فكم مريض مصاب بالمرض لا يُعرف تشخيصه، وبالتالي لا يتلقى العلاج، بل شُخّص خطأً بمرض عقلي أو فرضت عليه الحياة في دار رعاية أو عنبر في مستشفى للأمراض النفسية؟!

مكتبة
t.me/t_pdf

(30)

عشبة الراوند

بحلول اليوم الخامس والعشرين في المستشفى، أي بعد يومين من خزعة المخ، كان التشخيص النهائي يلوح في الأفق. فكر الأطباء أنه الوقت المناسب لتقييم قدراتي الإدراكية رسميًا لتسجيل أساس يمكن البناء عليه ومعيار يمكن الاعتماد عليه. هذا الاختبار بمثابة نقطة ارتكاز سيستخدم لقياس التقدم الذي يمكن توقعه في المستقبل خلال المراحل المختلفة من العلاج.

بدأ الاختبار في ظهيرة 15 أبريل. زارتني طبيبة باثولوجية متخصصة في اضطرابات الكلام وطبيب في علم النفس العصبي ليومين متتاليين. أجرت د. كارين جندل التقييم الأول حيث بدأت بالأسئلة البديهية.

«ما اسمك؟»، «كم عمرك؟»، «هل أنت امرأة؟»، «هل تعيشين في كاليفورنيا؟»، «هل تعيشين في نيويورك؟»، «هل تقشرين الموزة قبل أكلها؟» وهكذا. تمكنت من الإجابة على كل تلك الأسئلة ولكن ببطء شديد. حين سألتني سؤالاً نهايته مفتوحة (أي أنه يستلزم إجابة غير نعم أو لا) وهو: «لماذا أنت في المستشفى؟» لم أستطع الشرح. (لأكن عادلة حتى تلك اللحظة لم يكن الأطباء أنفسهم يعلمون سبب وجودي أيضًا لكني لم أستطع منحها ولو جوابًا بسيطًا).

بعد مجموعة من الأجوبة المتلعثمة وغير المكتملة، قلت أخيرًا: «لا يمكنني إخراج أفكاري من رأسي».

أومأت. كانت هذه استجابة نموذجية للأشخاص الذين يعانون من «حبسة الكلام»، وهو ضعف في القدرة على الكلام نتيجة لإصابة في المخ. كنت أعاني أيضًا من «الرتة الكلامية»، وهي اضطراب كلامي حركي نتيجة ضعف في عضلات الوجه والحلق أو الأحبال الصوتية. طلبت مني د. جندل أن أخرج لساني، فكان يرتعش من الجهد الذي يبذله. تقلصت حركة لساني على الجانبين مما ساهم في عجزي عن التلفظ بالكلمات.

«هلا ابتسمت لي؟»

حاولت، لكن كانت عضلات وجهي ضعيفة جدًا فلم تقوَ على الابتسام. كتبت في دفترها «استثارة أقل من الطبيعي» وهو مصطلح طبي يشير إلى الخمول، ودوّنت أيضًا أن ذهني ليس يقظًا تمامًا. عندما أتمكن من الحديث، تخرج الكلمات مني مجردة من أي عاطفة.

انتقلت إلى اختبار قدراتي الإدراكية. سألتني وهي ترفع قلمها: «ما هذا؟»

أجبت: «فلم». وهذه المرة كذلك كان ردّي متوقعًا من شخص يعاني من خلل مثلي. يطلقون على تلك الحالة «خطل التسمية»، حيث يستبدل الإنسان كلمة بأخرى تبدو مشابهة لها.

حين طلبت مني كتابة اسمي، رسمت ببطء شديد حرف S ومررت القلم على الحرف عدة مرات قبل أن أمضي لكتابة حرف U حيث كررت ما فعلته (ديسغرافيا). استغرق الأمر مني عدة دقائق كي أكتب اسمي.

«ممتاز، هلا كتبتِ هذه العبارة من أجلي: اليوم يوم جميل».

رسمت الحروف ببطء وأنا أعيد تحديد كل حرف عدة مرات. أخطأت

في هجاء بعض الكلمات. كان خطي مزريًا جدًا لدرجة أن جندل لم تكد تفهم ما كتبت. كتبتُ في ورقة المتابعة:

«من الصعب تحديد سبب اضطرابات التواصل بعد يومين فقط من إجراء العملية، وما إذا كانت مشكلة في الجهاز الكلامي أم تأثير دواء ما أم خللاً في وظائف المخ الإدراكية. الواضح أن وظيفة التواصل قد تقلصت كثيرًا مقارنة بمستواها قبل المرض عندما كانت المريضة تعمل صحفية ناجحة في صحيفة محلية».

بعبارة أخرى، هنالك فرق شاسع بين الشخص الذي كنته من قبل، والشخص الذي أنا عليه الآن لكن من الصعب فهم مشاكلي من خلال عدم قدرتي على التواصل، وهل ستستمر تلك المشاكل لمدة طويلة أم قصيرة.

***

لاحقًا في صباح اليوم التالي، حضرت د. كريس موريس بشعرها الكستنائي المعقوص على شكل كعكة وعينيها اللامعتين البندقيتين التي تتخللهما بقع خضراء. جاءت لإجراء اختبار يسمى «مقياس وكسلر للذكاء» واختبارات أخرى تُستخدم لتشخيص عدد من الأشياء تتراوح من اضطراب نقص الانتباه إلى إصابات في المخ. لكن عندما دخلت إلى حجرتي كانت استجابتي منعدمة لدرجة أنها لم تكن متأكدة إن كنت أراها حتى.

«ما اسمك؟» بدأت باسمةً في طرح الأسئلة البديهية التي كنت قد نجحت حتى الآن في إجابتها. المجموعة التالية من الأسئلة تقيس الانتباه وسرعة الرد وعمل الذاكرة والتي تقارنها بذاكرة الوصول العشوائي للكومبيوتر «RAM» مثلًا: «كم برنامجًا يمكنكِ أن تفتحيه في نفس الوقت - كم شيئًا يمكنك أن تبقيه في رأسك في المرة الواحدة وتعيد تذكره».

ذكرت د. موريس مجموعة عشوائية من أرقام أحادية تتراوح بين الواحد والتسعة، ثم طلبت مني أن أكررها. بمجرد وصولي للرقم الخامس اضطررت للتوقف، رغم أن سبعة أرقام هو الحد الطبيعي الذي يتذكره الأشخاص في نفس سني ومعدل ذكائي.

ثم اختبرت عملية استرجاعي للكلمات لترى مدى قدرتي على الولوج إلى «بنك ذاكرتي».

قالت: «أود أن تسمّي لي أكبر عدد من الفواكه والخضروات التي يمكنك تذكرها»، وبدأت عدادًا زمنيًا من ستين ثانية.

«تفاح». التفاح فاكهة شائعة الذكر في البداية، وبالتأكيد كنت مهووسة بالتفاح كثيرًا في الآونة الأخيرة.

«جزر... خوخ... موز...»

صمت.

«راوند».

ضحكت د. موريس في داخلها على هذا الاختيار، فهو نبات نادر ومن الصعب تذكره مقارنة بأشياء أكثر شيوعًا ووضوحًا.

انتهت الدقيقة. ذكرت خمسة فقط. الشخص السليم يمكنه ذكر أكثر من عشرين. كانت د. موريس واثقة أنني أعرف أمثلة أكثر بكثير من هذه، لكن تكمن المشكلة في قدرتي على تذكرها.

بعد ذلك أرتني مجموعة من البطاقات مرسوم عليها أشياء معروفة نقابلها تقريبًا كل يوم. تمكنت من التعرف على خمسة فقط من عشرة. لم أنجح في التعرف على أشياء مثل: طائرة ورقية وكماشة، وكنت أصارع كي أتلفظ بالكلمات كما لو أن الكلمات عالقة على طرف لساني، وترفض الخروج.

ثم اختبرت د. موريس قدرتي على رؤية واستيعاب العالم الخارجي. لا بد أن تتضافر أشياء كثيرة مختلفة كي يتمكن الإنسان من التعرف بدقة على شيء ما، فمثلًا كي ترى مكتبًا، عليك أن ترى الحواف تلتقي عند الزوايا، ثم اللون والانعكاسات والعمق. تذهب كل تلك المعلومات إلى بنك الذاكرة الذي يميزها بكلمة، ثم اعتمادًا على الكلمة، يربطها بعاطفة ما (مثلاً بالنسبة لصحفي، كلمة مكتب قد تولد شعورًا بالذنب بسبب تأخره عن موعد تسليم المقالات). كي تختبر هذه المجموعة من المهارات، جعلتني أقارن أحجام زوايا مختلفة وأشكالها. حققت الحد الأدنى من النتائج، لكنه كان كافيًا كي تنتقل د. موريس إلى اختبارات أكثر صعوبة. قدمت لي مجموعة من المكعبات الحمراء والبيضاء، ووضعتها على صينية أمامي. ثم أرتني صورة لشكل معين رُكّب باستخدام تلك المكعبات وطلبت مني إعادة تشكيل الصورة خلال مدة زمنية محددة. حدقت في الصورة ثم في المكعبات. ركبتها مكونة شكلًا لا علاقة له من قريب أو بعيد بالصورة. عبثت بالمكعبات لمزيد من الوقت دون أن أحقق أية نتيجة، لكني رفضت الاستسلام. كتبت موريس «مثابرة في محاولاتها». بدا أنني أعرف بقرارة نفسي أنني لا أقوم بالشيء الصحيح، وهو ما سبب لي غضبًا عميقًا. كان من الواضح أنه رغم كل المشاكل التي أواجهها كنت أعرف أن مستوى أدائي ليس كما كان من قبل.

الاختبار التالي كان أن أنسخ تصاميم هندسية معقدة في كراسة رسم بياني، لكن قدراتي كانت ضعيفة جدًا هنا لدرجة أن د. موريس قررت أن توقف الاختبار برمته. كان الغضب يتملكني، وشعرت هي بالقلق أن لا نتيجة من الاستمرار سوى تدهور حالتي النفسية. كانت د. موريس مقتنعة أنني مدركة تمامًا رغم كل الخلل الإدراكي الذي أعاني منه الأشياء التي كنت أفعلها، ولم أعد قادرة على فعلها بعد الآن. في تقييمها ذلك اليوم، حددت العلاج الإدراكي بأنه: «ضروري جدًا».

(31)

الفتح العظيم

بعد ظهر ذلك اليوم، وبينما يحاول أبي أن يُشغِلُني بلعبة رومي جن[1]، حضرت د. روسو مع الفريق الطبي.

«سيد كهالان، لدينا بعض النتائج الإيجابية».

رمى والدي ورق اللعب جانبًا، والتقط دفتره بسرعة. شرحت د. روسو أنهم قد وصلتهم أخبار من د. دالماو بتأكيد التشخيص. طارت كلماتها إلى أذنيه كشظايا قنبلة - بانغ. بانغ. بانغ. **NMDA، أجسام مضادة، ورم، علاج كيمياوي.** جاهد كي يركز لكن هنالك جزء محوري لتفسير حالتي أمكنه أن يتشبث به وسط كل المصطلحات الطبية: جهازي المناعي قد جن جنونه، وبدأ يهاجم دماغي.

قاطع والدي وابل الكلمات المندفع نحوه قائلاً: «أنا آسف. هلا أعدتِ اسم المرض ثانية؟»

دوّن الحروف NMDA في دفتره. «التهاب المخ ذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA». شرحت د. روسو أنه مرض متعدد المراحل يختلف في أعراضه من حالة إلى أخرى. بالنسبة لسبعين بالمئة من الحالات يبدأ بشكل مسالم في صورة أعراض تشبه الإنفلونزا العادية: صداع، حمى، غثيان، قيء.

---

1 - إحدى ألعاب الورق.

ليس من الواضح إذا كان السبب في تنشيط المرض هو الإصابة بفيروس ما أم أن المرض نفسه يولد تلك الأعراض. عادة بعد مرور أسبوعين من ظهور تلك الأعراض، تبدأ الاضطرابات العقلية في الظهور وتشمل: نوبات قلق وأرق وخوف، وأوهام مبالغ فيها وهلاوس، والتوهم بتلقي رسائل من الرب وجنون الارتياب. ولأن تلك الأعراض عقلية فإن معظم المرضى يستشيرون أطباء أمراض عقلية أولًا، وهو شيء جيد فقط إذا أحال الطبيب النفسي المريض إلى طبيب أعصاب. من هنا تبدأ اضطرابات اللغة والذاكرة في الظهور لكن غالبًا ما تتعرض للتجاهل في ضوء الأعراض العقلية الأكثر دراماتيكية.

تنهد أبي بارتياح. شعر أبي بالطمأنينة لسماع اسم، أي اسم يفسر ما يحدث لي حتى لو لم يستوعب طبيعته بشكل كامل. كل شيء ذكرته د. روسو كان يتماشى مع حالتي، بما في ذلك تشنجات الوجه اللاإرادية ومط الشفتين وصعوبة إخراج لساني، بالإضافة إلى تخشب جسدي وحركتي البطيئة. ذكرت د. روسو أن أعراضًا أخرى تظهر لدى المرضى تتعلق بالجهاز العصبي اللاإرادي، مثل اضطرابات ضغط الدم ونبض القلب اللذين يتأرجحان بين معدل منخفض جدًا وعال جدًا، تمامًا مثل حالتي.

أوضحت كذلك أنني قد دخلت الآن إلى مرحلة الكاتاتونيا، والتي تمثل ذروة المرض والتي قد تتطور إلى فشل في التنفس وغيبوبة، وقد تؤدي حتى إلى الوفاة. وكأن الأطباء وصلوا إلى التشخيص في اللحظة الأخيرة.

حين بدأت د. روسو تشرح وجود علاجات أثبتت قدرتها على عكس مسار المرض، كاد أبي أن ينهار على ركبتيه ويشكر الرب في التو واللحظة داخل حجرة المستشفى. مع ذلك حذرت د. روسو أنه رغم الوصول إلى تشخيص إلا أنه ما تزال هنالك علامات استفهام جوهرية.

فرغم أن خمسة وسبعين بالمئة من المرضى يتعافون بشكل كامل أو يعانون فقط من أعراض جانبية طفيفة، فإن أكثر من خمسة وعشرين بالمئة قد يعانون من إعاقة دائمة وأربعة بالمئة يموتون، حتى مع التشخيص السريع. وتلك الأعراض الجانبية الطفيفة قد تكون الفرق بين ذاتي القديمة وسوزانا الجديدة، التي لا تملك حس الدعابة ولا الحيوية ولا الاندفاع الذي كان يميزني من قبل. «طفيفة» تعبير مبهم وغير محدد.

تابعت د. روسو: «في خمسين بالمئة من الحالات يحفز المرض ورم في المبيض اسمه تيراتوما، لكن في خمسين بالمئة ما زال السبب مجهولًا». نظر إليها أبي في تساؤل: بحق الجحيم ما هي تلك التيراتوما؟! ربما من الأفضل أنه لم يكن يعرف شيئًا عنها.

عندما أُكتشف هذا الورم في نهايات القرن التاسع عشر، سماه الطبيب الألماني «تيراتوما» من الكلمة اليونانية «تيراتون» أي الوحش أو المسخ. تلك الحويصلات المعقدة كانت مصدر للدهشة حتى قبل أن يصبح لها اسم. يرجع أول وصف للمرض إلى كتاب من عصر البابليين عام 600 قبل الميلاد.

تتراوح تلك الكتل من الأنسجة الورمية في حجمها من حجم مجهريّ لا يُرى بالعين المجردة إلى حجم قبضة يد (أو أكبر)، ويحتوي على شعر وأسنان وعظم وأحيانًا عيون وأطراف وأنسجة دماغية. عادة ما تتكون في الأعضاء التناسلية والمخ والجمجمة واللسان والعنق، وتشبه كرة شعر مشبعة بالصديد. تشبه تلك الأورام الكائنات القبيحة المشعرة ذات الأسنان الصفراء في سلسلة أفلام الرعب الشهيرة «Critters»في الثمانينيات. الخبر الجيد الوحيد أنها عادةً – وليس دائمًا – أورامًا حميدة.

قالت د. روسو: «سنحتاج إلى إجراء فحص عبر المهبل لنرى إذا كان هنالك أي دلائل على وجود الورم. وسنحتاج إلى إجراء فحص شامل عليها لنرى إذا كان هنالك أي علاقة لمرضها بإصابتها السابقة بالميلانوما. إذا وجدنا ورمًا فسنحتاج للبدء سريعًا في العلاج الكيمياوي».

«علاج كيمياوي؟» كرر أبي الكلمة أملًا في أنها تفوهت بالكلمة بشكل خاطئ. لكنها لم تفعل.

تطلع أبي نحوي. كنت قد أشحت وجهي جانبًا عازلة نفسي عن حوارهما، ولا يبدو علي أنني مدركة لضخامة اللحظة. لكن فجأة، عند سماع كلمة «علاج كيمياوي»، شعرت بثقل في صدري، وأطلقت تنهيدة عميقة. انسابت الدموع على وجهي. هب أبي من كرسيه، وأحاطني بذراعيه. واصلت البكاء دون أن أتفوه بكلمة. انتظرت د. روسو بهدوء، وهي تراقب أبي يهدهدني كطفلة. لم يستطع أبي أن يميز إن كنت قد فهمت ما يحدث أم أنني انجرفت مع التوتر المتضخم الذي يسري في الحجرة من دون وعي.

قلت بنبرة عالية لكن خالية من أي عاطفة رغم استمراري في البكاء: «إنه يقتلني. أنا أموت هنا».

قال ورأسي بين ذراعيه: «أعرف. أعرف». يمكنه أن يشم المادة الصمغية العالقة في شعري بسبب أقطاب رسم المخ.

وعدني: «سنخرجك معافاة من هنا».

بعد عدة لحظات توقف نحيبي، واستلقيت على السرير من جديد، رأسي مستندة على الوسادة. بهدوء واصلت د. روسو كلامها كأن شيئًا لم يحدث.

«بشكل عام، الأخبار مبشّرة يا سيد كهالان. يعتقد د. نجار أن هنالك احتمالاً بنسبة تسعين بالمئة أن تعود سوزانا إلى حالتها الطبيعية قبل الإصابة بالمرض».

«يمكننا أن نستعيدها؟»

«يبدو ذلك احتمالًا قويًا».

«أريد أن أعود إلى البيت».

أجابتني د. روسو بابتسامة: «هذا ما نعمل لأجله».

***

خلال الأسابيع التالية تحولت من كوني المريضة صعبة المراس إلى المريضة المفضلة. أصبحتُ الحالة الأكثر إثارةً لمجموعة من الأطباء الزائرين والمقيمين والمتدربين الذين باتوا يأملون في إلقاء نظرة على الفتاة ذات المرض المجهول. الآن وقد شُخّصتُ بمرض لم يُشخّص من قبل أبدًا في مستشفى جامعة نيويورك، فإن خريجي الطب الشبان الذين لا يكادون يكبرونني بيوم، صاروا يحدقون فيّ كأنني حيوان في قفص في حديقة حيوان؛ يضيّقون حدقات عيونهم وهم يشيرون إلي، ويشرأبون برؤوسهم بينما يشرح الأطباء الأكثر خبرة ملخصًا عن مرضي.

في الصباح التالي، بينما يطعمني والدي الشوفان وقطعًا صغيرة من الموز،

وصلت مجموعة من الأطباء المقيمين وطلاب الطب. بدأ الشاب الذي يقود تلك المجموعة من الأطباء حديثي التخرج في تقديم حالتي كما لو أنني لم أكن موجودة في الحجرة.

قال وهو يقود مجموعة من ستة أطباء آخرين إلى داخل الحجرة: «إنها حالة مثيرة للغاية. تعاني مما يسمى بالتهاب المخ ذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA».

غمرتني المجموعة بنظراتها، وقليل منهم أطلق بعضًا من عبارات التعجب الخافتة «أوو» و «آهـ». كزّ أبي على أسنانه، وحاول تجاهلهم.

«في خمسين بالمئة من الحالات، نجد تيراتوما في المبيضين. في تلك الحالة يجري استئصال المبيضين كإجراء احترازي».

بينما المتفرجون يهزون رؤوسهم، سمعتُ العبارة الأخيرة بطريقة ما، وبدأت في البكاء.

هب أبي من مقعده. كانت المرة الأولى التي يسمع فيها أي شيء عن إزالة مبيضي، وبكل تأكيد لم يرد أن يسمع ذلك من هذا الطبيب المبتدئ المزهو بمعلوماته. ولأنه مقاتل بالفطرة ورجل قوي البنية بالنسبة لعمره (وأي عمر)، اندفع أبي وارتطم بجسد الطبيب الشاب الهزيل، ثم رفع إصبعه الوسطى في وجهه.

تردد صدى صوت أبي في الحجرة: «اخرج من هنا الآن، عليك اللعنة!! لا تعد أبدًا. اخرج من الحجرة».

تبخرت ثقة الطبيب، وبدلًا من أن يعتذر لوح بيده كي يحث من معه من أطباء متدربين أن يتبعوه باتجاه الباب قبل أن يلوذ بالهرب.

قال أبي: «انسي ما سمعتيه. لا يعرفون أي شيء عما يتحدثون عنه».

(32)

% 90

في نفس اليوم، أتى طبيب جلدية وأجرى فحصًا جلديًا شاملًا على جسمي كله ليتأكد من خلوه من أي ميلانوما. استغرق الفحص نصف ساعة لأن الشامات كانت تملأ جسمي. بعد البحث الدقيق، أعلن الطبيب بسعادة عدم وجود أثر للميلانوما.

في المساء جروني على كرسي متحرك إلى قسم الأشعة في الطابق الثاني حيث سأخضع لأشعة سونار على منطقة الحوض بحثًا عن تيراتوما.

ما زلت يقظة رغم أني لم أنم منذ مدة طويلة. لقد تخيلت تلك اللحظة: اللحظة التي سأعرف فيها جنس طفلي. للحظة فكرت: «أتمنى أن يكون ولدًا». لكن تلاشى هذا الإحساس. سأكون سعيدة سواءً كانت بنتًا أو ولدًا. يمكنني الشعور بالمعدن البارد لجهاز السونار يلامس بطني. قفز صدري إلى حلقي كردة فعل على البرودة القاسية. كان تمامًا كما توقعت. لكن لم يكن كذلك على الإطلاق.

***

كنت ما أزال مضطربة من أثر السونار الخارجي الأول، فرفضت أن أخضع للسونار عبر المهبل، وهو فحص الحوض الأكثر توغلًا. حمل الفحص الأول غير المثالي أخبارًا جيدة: لا أثر لوجود التيراتوما. الخبر السيء

هو أن المفارقة تكمن في أن مرضى التهاب المخ المصابين بالتيراتوما عادةً ما يتحسنون أسرع من المرضى غير المصابين بالتيراتوما، لأسباب لا يفهمها الباحثون بعد.

وصل د. نجار في الصباح التالي بمفرده. حيا والديّ كما لو كانا صديقين قديمين. الآن وقد تعرفوا على المرض، وعرفوا أن لا وجود للتيراتوما، فقد حان الوقت لتحديد العلاج الذي يمكنه إنقاذي.

لو أخطأ في حساباته، فربما لن أتعافى أبدًا. قضى د. نجار ليلة الأمس يفكر فيما عليه فعله. كان يستيقظ غارقًا في العرق وهو يرتجف ويهذي لزوجته. قرر في النهاية أن يلجأ إلى العلاج الأكثر عنفًا ومخاطرة. لم يرد أن ينتظر أن تسوء الأمور. كنت قريبة جدًا من حافة الهاوية. شرح الخطة التي سينتهجها وهو يبرم طرفي شاربه مستغرقًا في أفكاره.

«سنخضعها لعلاج مكثف من الستيرويدات والـ IVIG واستخراج البلازما». رغم أسلوبه الحميمي والرائع في تعامله مع مرضاه، أحيانًا يتحدث د. نجار معهم متوقعًا منهم استيعاب ما يقوله كما لو أنهم أطباء أعصاب متمرسون.

سألته أمي: «ما تأثير كل هذا؟».

قال د. نجار: «إنها خطة هجوم من ثلاث جهات. لا ثغرة ستُترك مغلقة». أخطأ الطبيب في المثل الإنجليزي.[1] «سوف نقلّص الالتهاب باستخدام الستيرويدات. سنطهر الجسم من الأجسام المضادة باستخدام تقنية معالجة البلازما، ثم سنتأكد من القضاء على كل الأجسام المضادة وتحييد أثرها باستخدام الـ IVIG. وبالتالي لا نترك مجالًا لأي خطأ».

1 – التعبير الصحيح هو «لا ثغرة ستُترك مفتوحة»، وهو تعبير يدل على كفاءة العمل.

«متى ستتمكن من العودة إلى البيت؟»

رد د. نجار: «من ناحيتي يمكنها العودة إلى البيت غدًا. يمكن أخذ الستيرويدات عن طريق الفم. يمكنها الحضور إلى المستشفى من أجل معالجة البلازما. ويمكن إجراء علاج الـIVIG تحت إشراف ممرضة تحضر للبيت في حالة موافقة شركة التأمين. مع كل وسائل العلاج هذه، أعتقد أن سوزانا سوف تستعيد غالبًا 90 ٪ من حالتها القديمة قبل المرض».

رغم أنني لا أتذكر شيئًا عن تشخيصي إلا أن والديّ أخبراني أن مزاجي تغير فور سماعي ذلك، وأن خبر عودتي إلى البيت قريبًا قد رفع من معنوياتي. دوّنت د. روسو في دفتر متابعتها أنني بدوت «أكثر إشراقًا»، وأن طريقتي في الكلام قد «تحسنت».

في صباح اليوم التالي، السبت 18 أبريل، أُصدرت الموافقة على خروجي. قضيت في المستشفى ثمانية وعشرين يومًا. أتت الكثير من الممرضات لتوديعي - بعضهن ساعدنني على الاستحمام، وبعضهن حقنني بالمهدئات، وقليل منهن أطعمنني حين كنت عاجزة عن إطعام نفسي. نادرًا ما تكتشف الممرضات مصير المريض بعد أن يترك المستشفى، وكنت ما أزال في حالة متدهورة.

حضر رجل قصير أحدب الظهر من التأمين الصحي إلى حجرتي ممسكًا بأوراق. كان قد تمكن من تأمين ممرضة لترعاني في البيت، ورشح لي عيادة يمكنني أن أقضي فيها مدة التعافي كاملة. التقطت أمي الأوراق، وقلبت فيها سريعًا. سنتناقش فيها لاحقًا. لكن الآن سنعود إلى البيت، وكان هذا هو كل ما يهم في تلك اللحظة. حزمت أمي وأبي وستيفن وصديقتي من أيام الجامعة ليندسي التي استقلت الطائرة من سانت لويس بالأمس كي تكون معي، حاجياتي - حيوانات محشوة (دمى) وشرائط فيديو وملابس وكتب

وأدوات تنظيف - وحشروها في حقائب بلاستيكية من المستشفى مكتوب عليها «متعلقات المريض». تركوا خلفهم الزهور وأعداد المجلات.

ساعدني عامل في الجلوس على كرسي متحرك بينما تلبسني أمي حذاءً دون كعب. كانت أول مرة أرتدي حذاءً منذ شهر.

أعد أبي لافتة ليلة الأمس ليقدم الشكر للممرضات على دعمهن. ألصقها الآن قرب المصعد.

شكرًا

بالنيابة عن ابنتنا سوزانا كهالان، نود أن نقدم شكرنا العميق لكل طاقم التمريض في جناح الصرع في المركز الطبي لجامعة نيويورك. لقد أتينا إليكم في موقف صعب وحرج فتعاملتن معنا بمهارة وتعاطف. سوزانا امرأة شابة رائعة استحقت عملكن الدؤوب. سنظل أنا وأمها مدينين لكم للأبد. لا يمكنني التفكير في عمل أكثر نبلًا مما فعلتن كل يوم مع سوزانا.

رونا نيك

توم كهالان

***

كان مسار المرض ما يزال غير واضح ولا يمكن لأي أحد أن يقول بأي درجة من اليقين أنني سأصل إلى تلك الـ 90 ٪ المتفائلة، أو أنني سأشبه ولو قليلًا شخصيتي القديمة. لكن كان لديهم خطة:

أولًا: علي المتابعة مع د. نجار يوم الأربعاء كل أسبوعين.

ثانيًا: سوف أجري تصويرًا مقطعيًا بوزيترونيًا لكامل الجسم (PET

scan). هذا النوع من الأشعة يقدم صورة ثلاثية الأبعاد للجسم، وهي تختلف عن الرنين المغناطيسي والأشعة المقطعية أنها تظهر الجسم أثناء أدائه لوظائفه.

ثالثًا: سوف أخضع لإعادة تأهيل لقدرتي على الكلام والإدراك، وسوف يوفرون لي ممرضة تعتني بي طوال 24 ساعة.

رابعًا: سوف أتناول الستيرويدات عن طريق الفم، وسأخضع لمعالجة البلازما ومزيد من جرعات الـIVIG.

لكن كان الأطباء يعرفون أنه حتى بعد مرور شهور من المرض، وبدء مثبطات المناعة في العمل، فإن الأجسام المضادة المهاجمة لدماغي يمكنها أن تواصل البقاء في جسدي جاعلة من التعافي مسيرة مؤلمة، أخطو فيها خطوتين للأمام وخطوة للوراء.

أعطوا أمي قائمة بالأدوية التي أتناولها الآن:

بريدنيزون: ستيرويد (كورتيزون) عن طريق الفم.

أتيفان: مضاد للقلق يستخدم لعلاج ومنع أعراض الكاتاتونيا.

جيودين: مضاد للذُهان.

لبيتولول: لعلاج ارتفاع ضغط الدم.

تريليبتال: مضاد لنوبات الصرع.

نيكسيوم: يعالج ارتجاع المعدة الذي يتسبب فيه تناول الستيرويد.

مليّن الكولاس: لعلاج الإمساك الذي يسببه هذا الخليط من الأدوية.

رغم هذه الخطة فإن نسبة الـ4 ٪ من المصابين الذي يفضي المرض بهم إلى

الوفاة ظلت تحوم في رأس الجميع. حتى مع كل الإجراءات المناسبة التي تُتبع لوقف المرض، لا يزال المرضى يموتون. صحيح أنهم اكتشفوا مرضي، وثمة إجراءات يمكنهم اتخاذها لكن ما تزال أمامي رحلة طويلة وغير مؤكدة النتائج.

جلست أنا وستيفن وليندسي في المقعد الخلفي لسيارة آلن السوبارو. دخلت المستشفى في أوائل مارس، كان الوقت ما زال شتاء. الآن كان الربيع قد حل في نيويورك.

قدنا السيارة إلى سوميت في صمت. شغل آلن الراديو على قناة إذاعية محلية. التفتت ليندسي إلي لترى إذا كنت قد تعرفت على الأغنية.

انبعث صوت رجولي: «لا تحطمي قلبي».

رد صوت امرأة: «لن أستطيع حتى لو حاولت».

كانت أغنية الكاريوكي المفضلة لدي في الكلية في سانت لويس. عند تلك النقطة شكت ليندسي أنني قادرة على تذكر الأغنية. ثم بدأت أتمايل برأسي وذراعي ببطء في زاوية قائمة. حركت ساعديّ للأمام والخلف بشكل غريب. هل كانت تلك لحظة من اللحظات غريبة الأطوار التي تشبه نوبة الصرع أم أنني كنت أرقص مع لحن أغنية من أغانيّ القديمة المفضلة؟ لم تستطع ليندسي معرفة الإجابة.

(33)

العودة إلى البيت

بدا بيت أمي في سوميت ملفتًا للنظر بشكل خاص في ذلك اليوم الربيعي، يوم عودتي للبيت. المرج أمام البيت كان زاهيًا بعشب أخضر منتعش، وشجيرات الأزالية البيضاء وأزهار الردندرة البنفسجية والنرجس الصفراء. ألقت الشمس بأشعتها على أشجار البلوط العتيقة التي بدورها ألقت بظلالها على البوابة الكستنائية اللون عند المدخل والواجهة الأمامية للمنزل العائد بنائه إلى الحقبة الاستعمارية. كان منظرًا بديعًا لكن لم يستطع أي منهم أن يميز إن كنت قد لاحظت ذلك أم لا. بالطبع لا أتذكر ذلك. لقد حدقت أمامي بانشداه، وفمي يتحرك بحركات المضغ اللاإرادية بصورة مستمرة بينما يقود آلن السيارة في الممر الذي يقود إلى المكان الذي كنت أطلق عليه «بيتي» في معظم سنوات مراهقتي.

أول شيء أردت فعله هو أن أستحم حمامًا حقيقيًا. ما تزال أجزاء من شعر فروة رأسي تبدو كقطع بحجم الحصى بسبب القشرة، وما تزال هنالك براغي معدنية مثبتة في رأسي من العملية، لذا لم يكن بإمكاني استخدام الماء كما يحلو لي. عرضت أمي المساعدة لكني رفضت. كنت مصممة على فعل هذا الأمر الصغير بنفسي على الأقل.

بعد نصف ساعة، صعدت ليندسي الدرج لتطمئن علي. من خلال الفتحة في باب حجرة نومي، كان بإمكانها رؤيتي جالسة على السرير، وقد

انتهيت لتوي من الاستحمام، وساقاي مطويتان بشكل مؤلم، بينما أعبث بعصبية في سحّاب السترة الهودج الأسود. كنت أصارع كي أضع السحّاب في مكانه. راقبتني ليندسي للحظة، وهي غير متأكدة مما عليها فعله: لم ترد أن تحرجني وتطرق الباب وتعرض المساعدة لأنها تعرف أنني لا أحب أن أعامل كطفلة. لكن حين رأتني أترنح، وأترك السحّاب، وأبدأ في البكاء من العجز والغضب. دلفت إلى الحجرة. جلست بجواري وقالت: «هيا، دعيني أساعدكِ»، ثم تمكنت من إغلاق سحّاب الجاكيت بحركة واحدة سلسة.

***

لاحقًا في مساء ذلك اليوم، طبخ لي ستيفن عشاء من الباستا كاحتفال بسيط بعودتي. غادرت أمي وآلن البيت كي نحظى أنا وستيفن وليندسي ببعض الوقت بمفردنا. تنفست والدتي الصعداء حين صار للمرض الذي ألمّ بي اسمًا لدرجة أنها باتت مقتنعة تمامًا أن الأسوأ بات وراء ظهورنا.

بعد العشاء جلسنا خارج البيت في الفناء الخلفي. تبادل ستيفن وليندسي حديثًا قصيرًا بينما جلست أحدق أمامي كما لو أنني لا أسمعهما. لكن حين أشعلا السجائر، نهضت ودون أن أتفوه بكلمة عدت إلى الداخل.

سألت ليندسي: «هل هي على ما يرام؟».

«نعم، أعتقد أنها تتأقلم فقط مع هذا التغيير. يجب أن نمنحها بعضًا من الوقت لتنفرد بنفسها».

إنهما يدخنان سويًا، ومن يعلم ماذا سيفعلان سويًا غير ذلك في المستقبل؟!! التقطت هاتف البيت. لسبب ما، لا أستطيع تذكر رقم هاتف أمي لذا بحثت عنه في هاتفي المحمول. يرن. يرن. يرن دون جدوى.

«لقد اتصلت بهاتف رونا نيك. رجاءً اترك رسالة بعد سماع صوت الصفارة».

الصفارة!!

«ماما، سيتركني من أجلها. رجاءً عودي للبيت وأوقفيهما».

تسللت عائدة وراقبته من نافذة المطبخ. لمحني ولوح لي.

تساءلت: لماذا يختار البقاء مع فتاة مريضة؟!! ماذا يفعل هنا معي؟ نظرت إليه وهو يلوح لي، وفي داخلي يقين أني فقدته للأبد.

***

عندما استمعت أمي لرسالتي الصوتية، انتابها الذعر. لقد مسني الجنون من جديد. ونظرًا أنه من الصعب عادةً الوصول إلى د. نجار، اتصلت برقم د. أرسلان الخاص الذي منحه لها قبل مغادرتي المستشفى بيوم. بدأت أمي تقلق أن المستشفى سمح لي بالعودة إلى البيت قبل الأوان.

قالت: «لقد أصابها جنون الارتياب من جديد. إنها تعتقد أن حبيبها سيهجرها ويهرب مع أعز صديقاتها».

أقلق هذا د. أرسلان، فقال: «أنا قلق من أن تكون قد بدأت في الدخول في اضطراب عقلي ثانية. من الأفضل أن تضاعِفِي جرعة الأليفان لتهدئتها الليلة ثم يمكنك الاتصال بي غدًا عند وقوع أي تطورات جديدة».

في حالتي كانت العودة إلى الاضطراب العقلي في الحقيقة مؤشرًا على تحسني لأن مراحل التعافي تحدث عادة بصورة عكسية. لقد مررت باضطراب عقلي قبل مرحلة التخشب والآن عليّ أن أمرّ به ثانيةً في طريق

عودتي إلى حالتي الطبيعية. لم يحذرنا د. أرسلان بخصوص هذه النقطة لأن لا أحد كان يعرف وقتها أن المرضى عادةً يمرون بالاضطراب العقلي من جديد في طريق التعافي. بعد مرور عامين، في 2011م، عندما نشر د. دالماو ورقة بحثية تتضمن جزءًا يتحدث عن ذلك الموضوع بالتحديد، أصبحت مراحل تطور المرض معروفة على نطاق واسع.

***

انتهت عطلة ليندسي. كانت هي وصديقنا جيف (شريكي في غناء الكاريوكي أيام الدراسة) الذي تصادف وجوده في سوميت لسبب غير متعلق بي، يخططان للقيادة معًا ست عشرة ساعة من هنا إلى سانت لويس. حين اتصلت به لتدله على مكان البيت، قال إنه يريد رؤيتي. حذرته أنني لم أعد كما كنت من قبل.

رنّ جيف جرس الباب فدعته أمي إلى الدخول. لمحني أترنح نازلة السلم مقتربة ببطء من الباب. في البداية لاحظ ابتسامتي. تكشيرة جامدة وخاوية وبلهاء أرعبته. رفعت ذراعي أمامي، وجسمي منحنٍ قليلًا كما لو كنت أدفع جسمي في مواجهة باب مغلق. بادلني الابتسام بتوتر.

«كيف حالك؟»

قلت: «جيييييدة»، وأنا أمدّ مقاطع الكلمة لدرجة أن كلمة واحدة استغرقت عدة ثوان. لم أكد أحرّك شفتي لكن حافظت على عينيّ مثبتتين نحوه في حدة. تساءل جيف إن كنت أحاول التواصل معه من خلال العينين. ذكره ذلك بفيلم عن الزومبي.

«هل أنت سعيدة بالعودة إلى البيت؟»

أجبت: «نعمممممممم» وأنا أمد الكلمة فخرجت كأنها هسيس غريب.

لم يعرف جيف ما عليه فعله بعد ذلك لذا انحنى للأمام عانقني. همس في أذني. «سوزانا، أريدك أن تعرفي أننا جميعًا هنا من أجلك ونفكر فيك دائمًا».

لم أستطع أن أثني ذراعيّ كي أبادله العناق.

وقفت ليندسي بجوارنا تراقب المشهد وهي تستعد بدورها كي تودعني. لم تكن جياشة في إظهار مشاعرها ونادرًا ما تبكي أمام الآخرين. كانت رزينة ومتماسكة طوال زيارتها لي، ولم تدع نفسها تظهر ولو مرة واحدة كم كانت تلك الزيارة موجعة بالنسبة إليها لكنها لم تستطع تمالك نفسها بعد الآن. ألقت بأمتعتها على الأرض وطوقتني بذراعيها باكية. فجأة بدأت أبكي أيضًا.

غادرت ليندسي ذلك الصباح وهي لا تعلم إذا كانت ستستعيد أعز صديقاتها من جديد أم لا.

(34)

كاليفورنيا تحلم[1]

في يوم 29 أبريل، بعد أقل من أسبوعين من مغادرتي المستشفى، عدت إليه من جديد لقضاء أسبوع من أجل علاج استخراج البلازما ومعالجتها. لأن أعراضي لم تعد تندرج تحت مرض الصرع بل مرتبطة بالتهاب المخ ذاتي المناعة، أقمت في الطابق السابع عشر، في جناح الأمراض العصبية. على عكس وحدة الصرع، فإن جناح الأمراض العصبية الواقع في مبنى المستشفى القديم لم يُجدّد بعد. فلا توجد شاشات تلفاز، وبدا كل شيء أكثر قتامة، وبدا المرضى هنا أكبر سنًا وأكثر هشاشة وبطريقة ما أقرب إلى الموت. علت صيحات الظهيرة المعتادة لامرأة عجوز في حجرة خاصة في نهاية الممر: «بيتزا!!» دون توقف. عندما سأل أبي عن سبب صياحها، شرحت الممرضات أنها تحب أيام الجمعة لأنه اليوم الذي تتناول فيه البيتزا وأنها لن تتوقف عن الصياح حتى تأتي البيتزا.

وُضعت في حجرة مشتركة مع امرأة سوداء سمينة اسمها ديبرا روبنسن. رغم أنها تعاني من داء السكري إلا أن الأطباء يعتقدون أن أعراضها تنبع من إصابتها بسرطان القولون لكن كانوا ينتظرون تأكيد الاختبارات لنظريتهم تلك. كان وزن ديبرا مفرطًا جدًا لدرجة أنها كانت عاجزة عن مغادرة السرير والذهاب إلى الحمام. لذا كانت تقضي حاجتها في مبولة بجوار السرير، مما كان

1- أغنية «California Dreamin'» هي أغنية كلاسيكية من الستينيات.

يملأ الحجرة من وقت لآخر بكل الروائح العفنة الممكنة. لكن كانت تعتذر في كل مرة وكان من الصعب ألا يحبها المرء. حتى فريق التمريض كان يهيم بها عشقًا.

تجري عملية استخراج البلازما ومعالجتها عن طريق قسطرة تُغرز مباشرة في عنقي.

قال ستيفن وهو يرى الممرضة تغرز الإبرة: «يا إلهي!».

كانت الإبرة تترك انتفاخًا بارزًا في المكان الذي تخترق فيه الوريد الوداجي. أمسكت الممرضة بالقسطرة بيدها بينما تقطع من شريط لاصق ثم أحاطت القسطرة بقطعة الشريط كي تبقيها ثابتة في مكانها، في وضع عمودي على الجانب الأيمن لعنقي. كان الشريط اللاصق خشنًا جدًا لدرجة أنه ترك كدمات حمراء على جلدي. رغم أن القسطرة كانت غير مريحة ومؤلمة، كان يجب أن تبقى مثبتة في مكانها طوال الأسبوع خلال مدة العلاج.

تولدت فكرة استخراج البلازما ومعالجتها من فكرة جهاز سويدي لفصل قشدة اللبن في أوآخر القرن التاسع عشر. كان الجهاز يفصل اللبن إلى خثارة اللبن[1] (اللبن الرائب) ومصل اللبن[2]. ألهمت هذه الآلية البسيطة العلماء لدرجة أنهم حاولوا استخدامها لفصل البلازما (سائل أصفر تسبح فيه خلايا الدم ويحتوي على أجسام مضادة) عن الدم (خلايا الدم الحمراء والبيضاء). يُمرّر الدم في جهاز الفصل الخلوي الذي يشبه الخلاط فيخفق الدم، مما يؤدي إلى فصله إلى مكونين منفصلين: بلازما وخلايا الدم، ثم يُعاد

1- خثارة اللبن أو الروائب: هو أحد منتجات اللبن التي تنتج عن عملية التخثر بإضافة بكتيريا أو خميرة.

2- مصل اللبن أو شرش اللبن: السائل المتبقي أو المفصول عن اللبن الرائب. وهو خليط من البروتينات والإنزيمات.

الدم إلى الجسم بعد استبدال البلازما الأصلية - المليئة بالأجسام المضادة الضارة التي تهاجم الجسم - بسائل جديد غني بالبروتينات لا يحتوي على أجسام مضادة. كل دورة تتطلب ثلاث ساعات. قرر الأطباء أن أخضع لخمس جلسات.

كان مسموحًا لصديقاتي بزيارتي كما يرغبن هذه المرة وتلقت كل واحدة طلبًا خاصًا مني؛ جلبت هانا المزيد من المجلات، بينما أحضرت صديقتي من أيام الثانوية جين بايغل خبز الجاودار مع الزبدة وشرائح الطماطم، وأتت كاتي بزجاجة كولا دايت.

في يومي الرابع في المستشفى، زارتني أنجيلا. كانت ما تزال مذهولة من شكلي الفظيع. لاحقًا أرسلت رسالة إلى بول تصفني فيها بأنني: «شاحبة، هزيلة، غير طبيعية... ومخيفة جدًا. ما زال أمامها وقت طويل».

***

هذه ليلتي الأخيرة في المستشفى. تلقّت زميلتي في الحجرة ديبرا نتيجة التحاليل: إنها مصابة بسرطان القولون لكنه اُكتشف في مرحلة مبكرة. كانت ديبرا تحتفل مع طاقم التمريض. أتت الممرضات لمشاركتها الصلاة. فهمت شعورها بالارتياح، كم هو مهم أن تعرف لمرضك اسمًا. عدم المعرفة أسوأ بكثير. بينما تصلي مع الممرضات، كررت ديبرا مرارًا وتكرارًا:

«الرب خيِّر. الرب خيِّر».

بينما أمد يدي لأطفئ الأنوار، شعرت برغبة ملحة كي أقول شيئًا لها.

«ديبرا؟»

«نعم عزيزتي؟»

«الرب خيِّر، ديبرا. الرب خيِّر».

***

في صباح اليوم التالي خرجت من المستشفى مجددًا. أخذني ستيفن في جولة بسيارة أمي وآلن حول سوميت. مررنا بمستشفى أمراض عقلية قديم يُسمى فير أوكس صار الآن مركزًا للتعافي من الإدمان. مررنا بملعب اللاكروس الخاص بالمدرسة الثانوية حيث كنت أشارك في فريق المدرسة حارسة مرمى. مررنا أيضًا بـ«Aera»: منزل على أطراف سوميت حيث كان يعيش أصدقاء لنا، ويقيمون الحفلات من عدة سنوات.

حين توقفنا عند إشارة مرور حمراء، شغّل ستيفن مسجل الإسطوانات. صدح رنين عزف غيتار الفلامينكو الإسباني عبر السماعات.

كل الأوراق بنية والسماء رمادية،

كنت أتمشي في يوم شتوي.

تعرف ستيفن على الأغنية. كانت إحدى أغانيه المفضلة. أغنية أعادت إليه ذكريات طفولته، حين كانت والدته تستمع لأغاني فرقة «Mamas & Papas» أثناء طريقها لإنجاز مهمة عمل.

وقفت عند كنيسة، واجتزت الطريق

انحنيت على ركبتي، وبدأت في الصلاة

كما لو أننا تلقينا إشارة من قائد أوركسترا، انطلقنا نغني بقوة مع الكورال.

كاليفورنيا تحلم

في يوم شتوي كهذا!!

للحظة، أبعد ستيفن عينيه عن الطريق، وحدق نحوي بدهشة وسعادة. أخيرًا حصل على التأكيد الذي كان ينتظره طوال هذه الأسابيع.

أنني ما زلت موجودة.

الجزء الثالث

البحث عن الزمن المفقود

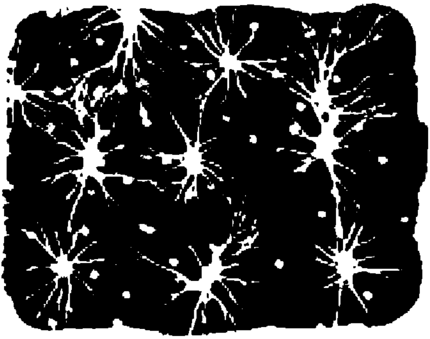

«كنت أملك فقط شعورًا بدائيًا جدًا بكينونتي، شعورًا قد يتوارى مرتجفًا في أعماق وعي حيوان. كنت محرومًا من الصفات الإنسانية أكثر من ساكن الكهوف - إنسان ما قبل التاريخ. لكن فجأة أتتني ذكرى، ليست للمكان الذي كنت فيه، لكن لأماكن أخرى عديدة كنت فيها من قبل. أتتني الذكريات مثل حبل يتدلى من السماء ليسحبني من بئر العدم، البئر التي لم أكن لأستطيع أبدًا الهروب منها بمفردي».

مارسيل بروست

«جانب منازل سوان، البحث عن الزمن المفقود»

(35)

شريط فيديو

أدخلت شريطًا مُعنونًا «كهالان، سوزانا» في جهاز الفيديو. بدأ العرض. رأيت نفسي في مركز المشهد، أحدق في عدسات الكاميرا. انزلق رداء المستشفى كاشفًا عن كتفي الأيسر. شعري أشعث وقذر. في المشهد، كنت أحدق أمامي بينما أرقد على ظهري ساكنة كتمثال، عيناي هما الوحيدتان اللتان تفضحان الخوف الجنوني داخلي. ثم تحركت عيناي وركزتا على الكاميرا الموجهة إلي. خوف من هذا النوع ليس شيئًا نراه عادة في صور أو فيديوهات تُلتقط لنا، لكن ها أنا أحدق في الكاميرا كما لو كنت أنظر إلى وجه الموت. لم أر نفسي هكذا من قبل؛ مشوشة للغاية وضعيفة ومجردة من أي إحساس بالأمان، فأصابني ذلك بالرعب. الذعر التام الصريح الذي يعلو وجهي في الفيديو جعلني أشعر بالانزعاج لكن الشيء الذي زعزعني من الداخل هو إدراكي أن تلك المشاعر التي شعرت بها بعمق شديد وبقوة جارفة قد تلاشت تمامًا وللأبد، ولن يمكنني استعادتها. هذه المرأة المرعوبة بشكل مخيف في الفيديو هي شخص غير مألوف لدي، أشعر بأنها إنسانة غريبة، ومن المستحيل أن أتخيل نفسي في مكانها. دون هذا الدليل الإلكتروني الموثق، لم أكن لأستطيع أبدًا تخيل قدرتي على الوصول إلى هذه الحالة من الجنون والبؤس.

أخفت ذاتي الغريبة في الفيديو وجهها تحت البطانية وتشبثت بها بيدها بقوة لدرجة أن مفاصل أصابعها تحولت إلى الأبيض.

«رجاءً!» رأيت ذاتي تتوسل في الفيديو من جديد.

ربما يمكنني مساعدتها.

(36)

حيوانات محشوة

يسألني الناس «ما شعور أن تكوني شخصًا مختلفًا؟». هو سؤال لا يمكن الإجابة عنه بيقين، لأنني بالطبع لم أكن أملك أثناء المدة المظلمة لمرضي أي وعي حقيقي بالذات يسمح لي برفاهية التأمل وإدراك الاختلاف، والقدرة على أن أقول «هذه هي أنا وتلك هي ما كنت عليه». رغم هذا ما تزال ذاكرتي تحتفظ بذكريات قليلة من تلك الأسابيع التي تلت خروجي من المستشفى. هي أقرب شيء يمكنني استخدامه لفهم كيف هو الشعور بالانفصال التام عن ذاتي.

بعد أيام قليلة من خروجي من المستشفى، قادني ستيفن بالسيارة إلى بيت أخته رايتشل في تشاتام في نيوجيرسي. أتذكر المنظر من نافذة مقعد الراكب بينما تنطلق السيارة في شوارع الضاحية المألوفة التي تحدها الأشجار. حدقت خارج النافذة بينما يد ستيفن غير الممسكة بالمقود تمسك بيدي. أعتقد أنه كان متوترًا مثلي تمامًا بخصوص إعادة تقديمي للعالم الحقيقي بعد مرضي.

«كان ديكًا روميًا لذيذًا».

قلت فجأة بينما نسير في الممر المفضي إلى بيت أخته. كانت إشارة بسيطة لتلك الليلة في المستشفى عندما أحضر ستيفن بعضًا من الديك الرومي المحمر من احتفال عائلته بعيد الفصح. لم يستطع منع نفسه من الضحك فابتسمت أيضًا دون أن أعرف سبب ضحكه.

ركن ستيفن سيارته بجوار مستودع الحطب أسفل طوق كرة سلة. مددت يدي نحو مقبض الباب لكن مهارات الحركة الدقيقة لدي كانت ما تزال ضعيفة جدًا لدرجة أنني لم أتمكن من فتح باب السيارة، لذا دار ستيفن حول السيارة وساعدني على الخروج بأمان.

كانت أختا ستيفن، رايتشل وبريجيت، وأطفالهما الصغار أودري وجريس وأيدين في انتظارنا في فناء البيت. كانت لديهم فكرة عامة عن حالتي لكن كان من المؤلم جدًا على ستيفن أن يعيد حكاية معظم أجزاء القصة لهم لذا لم يكونوا مستعدين تمامًا لرؤيتي. كانت بريجيت أكثر المصدومين بحالتي. كان شعري أشعث، والبقعة الصلعاء شديدة الاحمرار التي خلفتها خزعة الدماغ في مقدمة رأسي واضحة للعيان، بالإضافة إلى البراغي المعدنية التي تُبقي جلد رأسي ملتحمًا حتى يكتمل التئام الجرح. كانت ثمة قشرة صفراء تغطي جفوني. كانت مشيتي غير ثابتة مثل شخص يسير أثناء نومه. ذراعاي ممدودتان أمامي ومتصلبتان، وعيناي مفتوحتان لكن غير مركزتين على أي شيء.

في ذلك الوقت كنت مدركة أنني لست على طبيعتي لكن لم أملك أي فكرة عن مدى الصدمة التي تنتاب معارفي حين يرون مظهري المختلف. عندما أتذكر لحظات كتلك التي كانت تحدث بشكل متكرر أثناء المرحلة المبكرة من تعافيّ، أتمنى لو كنت ملاكًا حارسًا يهبط من السماء ليحمي نفسي التائهة.

حاولت بريجيت إخفاء توترها وتجنب التحديق فيّ بذهول. كانت قلقة أن أشعر بارتباكها لكن لم يزدها هذا إلا ارتباكًا. قابلت رايتشل لأول مرة في عيد ميلاد ابنتها الأول في أكتوبر الماضي عندما كنت شخصية منفتحة محبة للكلام، وعلى عكس الكثير من حبيبات ستيفن السابقات، لم ترهبني الطبيعة

المنغلقة لأسرتهم. لذا كان التحول الذي طرأ علي ضخمًا، مثل تحول طائر الطنان إلى حيوان الكسلان.

ونظرًا لأن أودري وجريس ما زالتا طفلتين صغيرتين، فلم تلاحظا أي شيء خاطئ فيّ. بينما ظل أيدين الذي وصل إلى سن السادسة يتحاشاني. من الواضح أنه خائف من سوزانا الجديدة هذه، المختلفة كلية عن سوزانا التي كانت تلعب وتمزح معه منذ شهور قليلة فقط. (لاحقًا أخبر أمه أنني أذكره بالرجل المعاق ذهنيًا الذي يراه عادة في المكتبة العامة. حتى بحالتي غير الواعية تمامًا وقتها، كان يمكنني الإحساس بتجنبه لي لكنني كنت مندهشة من خوفه الشديد مني).

وقفنا جميعًا في مدخل البيت بينما يقدم ستيفن الهدايا للأطفال. بعد خروجي من المستشفى، شعرت برغبة ملحة في التخلص من الحيوانات المحشوة، الدمى التي كان يهديها الزائرون لي والتي تراكمت أثناء مرضي. رغم امتناني الشديد تجاه من أهداها لي، كانت تذكارًا مزعجًا بحالتي المزرية التي كانت تجعل الآخرين يعاملوني كطفلة. لذا أردت أن أحرر نفسي منها بإهدائها للأطفال. قال أيدين باقتضاب: «شكرًا»، ثم وقف بسرعة وراء أمه بينما أحاطت الطفلتان ساقيّ بذراعيهما وهما ترددان بنبرة عالية وطفولية: «شكرا لك!»

استغرقت تلك الذكرى، الأولى من بين الكثير من المواقف التي وجدت نفسي فيها وجهًا لوجه مع العالم الخارجي، ما لا يزيد عن خمس دقائق.

بعد أن أعطى ستيفن الهدايا، خمد الحوار تدريجيًا. كان الجميع من حولي يصارع للإبقاء على مجرى الحديث السطحي بينما يركزون على تجاهل الغيمة التي فوق رؤوسنا: حالتي الصادمة. هل سيكون الأمر هكذا دائمًا؟ في الظروف الطبيعية، كنت سأحاول كسر الصمت بدعابة، لكن اليوم وقفت

خرساء جامدة، بينما أتمنى بيأس الهروب من هذا اللقاء المؤلم.

كان ستيفن متفهمًا تمامًا لضيقي المتزايد. لذا وضع يده أسفل ظهري وقادني لأمان السيارة عائدين لخلوة عالمنا الصغير المحمي.

رغم أن هذا الموقف كان مقتضبًا وخاليًا من أي دراما وقد يكون عديم الأهمية في المنظور العام للأشياء، لكنه ظل محفورًا في رأسي كلحظة مفصلية في المرحلة الأولى من التعافي، لحظة تشير بوضوح كم أن الطريق نحو التعافي الكامل طويل ومؤلم.

***

أحد المواقف الأخرى المميزة أثناء تلك المدة الضبابية التي تلت خروجي من المستشفى كانت رؤيتي أخي لأول مرة خارج المستشفى. بينما تتغير حياتي للأبد بفعل المرض، كان جيمس ينهي سنته الأولى في جامعة باتسبورغ. رغم أنه قد توسل والديّ كي يزورني في المستشفى، ظل والداي مصممين على انتهاء العام الدراسي أولًا. عندما انتهت الدراسة أخيرًا، سافر أبي إلى باتسبورغ لإحضار أخي للبيت. أثناء رحلة العودة التي استغرقت ست ساعات بالسيارة، حكى له أبي ما أمكنه عن أحداث الشهور القليلة الماضية.

حذره أبي: «جهز نفسك للأمر يا جيمس. الأمر صادم لكن علينا أن نركز على الجانب الإيجابي».

كنت مع ستيفن خارج البيت عندما وصلا. أنزل أبي جيمس عند مدخل البيت لأنه رغم تحسن العلاقة كثيرًا بينه وبين أمي مقارنة بالسابق، لم يصلا بعد لدرجة من الود الذي يكفي كي يتبادلا الزيارات المنزلية.

شاهد جيمس مباراة لليانكيز بينما يترقب بتوتر وصولي في أي لحظة. عندما سمع صوت الباب الخلفي يُفتح، قفز من مكانه فوق الأريكة. سيظل مشهد دخولي إلى البيت عالقًا في ذاكرته للأبد، هكذا قال لي لاحقًا. كنت أرتدي نظارات كبيرة الحجم مليئة بالخدوش وسترة صوفية أكبر من مقاسي قبل مرضي مرتين، فوق فستان أسود فضفاض منفوش من حولي. كان وجهي منتفخًا ومشوهًا بحيث لا يمكن التعرف علي. بينما أتمايل فوق درجات السلم وأعبر الباب مستندة على ذراع ستيفن، بدوت كما لو أنني كبرت خمسين عامًا وصغرت خمسة عشر عامًا في آن واحد. هجين متناقض من سيدة عجوز بدون عصا تستند عليها وطفلة تتعلم المشي لأول مرة.

رغم أنه كان يراقبني منذ دخولي إلى البيت، مرت مدة طويلة قبل أن ألاحظ وجوده في الحجرة. بالنسبة إلي كان اللقاء مماثلًا في قوته العاطفية. كان دائمًا أخي الصغير الذي أعتني به لكنه الآن صار رجلًا بين ليلة وضحاها، لحية كثيفة وكتفان عريضان. نظر إليّ بمزيج من الدهشة والتعاطف، نظرة مليئة بالمشاعر لدرجة أنني كدت أنهار على ركبتي. لم أدرك مدى مرضي إلا حين رأيت النظرة على وجهه. ربما كان مدى قربنا من بعضنا البعض كأخوة هو الذي جعلني أدرك ذلك بوضوح شديد أو ربما لأنني كنت أعتبر نفسي قيّمة ومسؤولة عن الطفل جيمس، لكن الآن من الواضح أن الأدوار قد انعكست. بينما أقف عند الباب مترددة، اندفع جيمس وأمي إلي وعانقاني. بكينا جميعًا وهمسنا لبعضنا البعض: «أحبكم».

(37)

جموح القلب

عندما كنت لا أذهب لمواعيد الأطباء، كان والداي يسمحان لي بالمشي لوحدي في وسط مدينة سوميت القديم لأشتري القهوة من ستاربكس لكن لم يسمحوا لي بعد باستقلال القطار بمفردي لزيارة ستيفن في مدينة جيرسي. كان جيمس يقود السيارة بنا في أرجاء المدينة من وقت لآخر. استغرق الأمر من جيمس أسبوعًا بعد عودته من الجامعة كي يتأقلم مع هذه الصورة الجديدة المشوشة والباهتة من أخته. أحب أن أعتقد أنني خلال مسار حياتنا، قد أديت دورًا محوريًا في تعريف جيمس على كل ما هو جديد - كنت أرسل إليه أسطوانات فرقة ريد هوت تشيلي بيبرز في الجامعة وعرّفته على فرقة راديوهيد وأهديته تذاكر لحفل المطرب ديفيد بيرن في باتسبورغ - لكن الآن انقلبت الآية وحان دوره لتعريفي بأشياء جديدة. كان يثرثر عن هذه الأغنية التي يجب أن نسمعها أو ذلك الفيلم الذي يجب أن نشاهده، بينما أستمع إليه دون أن أملك أن أضيف شيئًا.

رغم أن صحبتي كانت مملة، إلا أن جيمس كان يقضي معي الكثير من وقته. كان يعمل ليلًا في مطعم قريب لكن حين يملك وقت فراغ، كان يصطحبني بالسيارة إلى محل آيس كريم لنتناول كأسًا من آيس كريم الشوكولاتة بالنعناع المزين بحبيبات الشوكولاتة، تكررت تلك المتعة الخاصة التي انغمست فيها حتى النخاع على الأقل ثلاثين مرة خلال مدة تعافيّ الغريبة التي دامت طوال

الربيع والصيف. أحيانًا كنا نذهب مرتين في اليوم الواحد. كثيرًا ما كنا نقضي الظهيرة في مشاهدة فريدز المسلسل الذي لم أحبه أبدًا من قبل لكن صرت الآن مهووسة به. ما يزال جيمس لا يستسيغه. عندما أضحك، أغطي فمي بيديّ ثم أتوقف عن الضحك وأنسى تمامًا أني أغطي فمي بيديّ لعدة دقائق قبل أن أعيدهما بآلية إلى جانبي.

في وقت ما سألت أخي أن يقلني بالسيارة للمدينة كي أقوم بالعناية بأظافري (الباديكير) استعدادًا لحفل زفاف أخي غير الشقيق. أوصلني جيمس إلى المكان وأخبرته أنني سأتصل به بعد ساعة لكن حين وصل أبي من بروكلين إلى سوميت للاطمئنان علي واكتشف أنني تأخرت ساعة كاملة دون أن أتصل (كنت قد توقفت لتناول القهوة من ستاربكس قبل توجهي للصالون مما تسبب في تأخيري)، أصابه الفزع. طافوا المدينة في هلع حتى مر أبي أمام صالون كيم للعناية بالأظافر، حدق من خلال الواجهات الزجاجية الأمامية المعتمة للصالون فوقعت عيناه عليّ جالسة على كرسي مساج، وعلى وجهي نظرة انشداه غريبة بينما أحدق أمامي مباشرة كما لو كنت نائمة وعيناي مفتوحتان. كان هنالك قدر من اللعاب قد خرج من فمي وتجمع حول شفتي السفلية. وقلة من السيدات في منتصف العمر، «أمهات سوميت» كما يُطلق عليهن، يحدقن بنظرات حادة اتجاهي. بدا أنهن يشجعن بعضهن البعض في صمت على «تأمل» تلك الفتاة المجنونة.

أخبرني أبي لاحقًا أنه كان غاضبًا جدًا لدرجة أنه اضطر إلى الابتعاد عن الواجهة والوقوف أمام واجهة المحل المجاور للصالون كي يهدئ أعصابه ويتمالك نفسه. بعد لحظة أخذ نفسًا عميقًا ودخل إلى الصالون راسمًا على وجهه ابتسامة كبيرة، ثم قال بصوت دوى في أرجاء الحجرة كلها:

«ها أنت هنا، سوزانا، لقد كنا نبحث عنك في كل مكان!»

لاحقًا، في نفس الأسبوع، أخذت أمي يوم إجازة من العمل واقترحت أن نذهب لشراء حذاء من مانهاتن. بينما أجرب عدة أحذية دون كعب في متجر أبر إيست سايد، اقتربت البائعة من أمي وعلقت بوجه بشوش: «أوه، كم هي هادئة ولطيفة! يا لها من فتاة حلوة». من الواضح أنها اعتقدت أنني معاقة عقليًا.

قالت أمي باستهجان متولية الدفاع عني وقد استوعبت التلميح المبطن في كلام البائعة: «إنها ليست حلوة!»

لحسن الحظ لم أسمع أي شيء من الحوار. نمت مستندة على كتف أمي في القطار أثناء رحلة العودة. الأدوية والضعف الذهني الشديد الذي يعانيه عقلي الذي ما زال في مرحلة الشفاء جعل تركيزي على أداء الأمور الطبيعية البسيطة مسألة شديدة الإجهاد.

عند وصولنا إلى سوميت، وبينما نهبط سلالم المحطة، سمعت اسمي. اخترت أن أتجاهل الصوت في البداية. ليس فقط لأنني ما زلت غير قادرة على التفريق بشكل كامل بين ما هو حقيقي وما هو وهم يدور في عقلي، ولكن لأن آخر شيء أردته هو أن أقابل شخصًا أعرفه. لكن حين سمعت اسمي مرة ثانية، التفتُّ ووقع بصري على صديقتي القديمة من أيام الثانوية كريستي تسير نحوي.

قلت: «مرحبًا كريستي». حاولت أن أجعل صوتي عاليًا وواثقًا لكن خرجت الكلمات مني همسًا. لاحظت أمي ذلك فتحدثت بالنيابة عني.

قالت أمي مشيرةً إلى الأكياس التي نحملها: «كنا نتسوق في المدينة. اشترينا بعض الأحذية».

قالت كريستي وهي تبتسم بأدب: «هذا جميل». سمعت أنني مريضة

لكن لم تكن تعرف أن المشكلة في دماغي. ربما كانت تعتقد أنها مجرد ساق مكسورة.

سألتني: «كيف حالك؟».

حاولت أن أستدعي قدرتي على الحديث بطلاقة وفي أي موضوع، وهي سمة كانت رئيسية في شخصيتي، لكن في مكانها وجدت فراغًا عميقًا. كانت حياتي مضطربة ومنعزلة لدرجة أنني لم أستطع أن أفتح معها محادثة مرحة. وجدت نفسي أركز على مدى احمرار وجهي والعرق الذي يتكون بغزارة تحت إبطيّ. أدركت كم هي مهارة عظيمة أن يكون المرء اجتماعيًا ومنفتحًا على الجميع.

«جيددددة».

تفوهت بالكلمة كما لو كان فمي محشوًا بعدد كبير من خرز لعبة المانجالا[1]. ظل رأسي يدور في ذلك الفراغ الشاسع. صرخت في داخلي: **قولي شيئًا!** لكن لم أتلق إجابة. في قلب الصمت، شعرت وكأن الشمس ملقاة على كتفيّ. حدقت كريستي نحوي بقلق. بعد لحظة من الارتباك، لوحت بيدها وشرحت بكلمات سريعة أنها قد تأخرت على موعد ما.

قالت: «سعدتُ برؤيتك ثانية»، ثم التفتت ومشت مبتعدة.

أومأت بينما أشاهدها تعبر الباب إلى داخل المحطة. كدت أنهار عصبيًا في مكاني في وسط الشارع. كم شعرت بالعجز في تلك اللحظة، خاصةً حين أقارن ذلك بشعور السيطرة الخارقة والمعرفة ببواطن الأمور الذي استمتعت به خلال معاناتي من الذُهان.

---

1 - لعبة المانجالا أو المنقلة: لعبة قديمة يرجع تاريخها للقرن السادس الميلادي، وهي عبارة عن لوح يتكون من 12 حفرة صغيرة والرابح هو من ينجح في تجميع أكبر عدد من الحجارة أو الخرز في حفرته.

أمسكت أمي بيدي، مدركة مدى قوة هذه اللحظة المحطمة للمعنويات ومدى تأثيرها عليّ نفسيًا، وقادتني للسيارة.

***

رغم سلوكي الأشبه بالزومبي المدمر لأعصابي وأعصاب من حولي، شهد جيمس -مثل ستيفن - لحظات كانت تبرز فيها سوزانا القديمة لمدة قصيرة. لم يفقد الجميع الأمل في أنني سأعود إلى طبيعتي في النهاية.

في ليلة ما، عندما أتت هانا لزيارتي، كنا نجلس في حجرة العائلة نشاهد فيلم «مخمل أزرق» لديفيد لينش، وهو أحد المخرجين المفضلين لديّ. خلال الربع ساعة الأولى من الفيلم، تبادل جيمس وهانا دعابة حول التمثيل السيء في الفيلم. لم أتفوه بكلمة. لكن بعد مدة طويلة، بعد أن كانا قد انتقلا إلى موضوع مختلف، قاطعتهما لأوضح: «التمثيل غير المتقن مقصودٌ. إنه جزء من أسلوب ديفيد لينش. يتضح ذلك بشكل أفضل في جموح القلب».

توقف جيمس وهانا عن الحديث. أومأ كلاهما بجدية.

رغم أنهما لم يتحدثا عما قلت في تلك الليلة، لكن كلاهما يتذكر تلك اللحظة لاحقًا كتأكيد آخرعلى أن شخصيتي القديمة ما تزال موجودة لكنها مدفونة فقط في مكان ما داخلي.

(38)

أصدقاء

بالإضافة لتناولي القهوة في ستاربكس، ومشاهدة حلقات فريدز، واصطحاب أخي لي إلى محل الآيس كريم، كنت أقضي معظم وقتي في حالة من الترقب الدائم بينما أنتظر مثل جرو قدوم ستيفن في القطار إلى سوميت. ولأني غير قادرة على القيادة، كان على أمي أو آلن أو جيمس اصطحابي بالسيارة للمحطة.

في ظهيرة يوم ما، بينما أجلس وأمي في السيارة أمام المحطة في انتظاره، أشارت أمي وهي تقول: «هاهو ذا! يبدو مختلفًا تمامًا!»

قلت وأنا أتفحص الحشود الخارجة: «أين؟»

لم أتعرف عليه إلا حين وقف أمام نافذة مقعد الراكب. كان قد حلق لحيته وقص شعره الطويل الأشعث وأعاده إلى الوراء في أناقة، فصار أقرب لتسريحة الشعر التي كانت رائجة في الأربعينيات. بدا أكثر وسامة من المعتاد. بينما أراقبه وهو يركب السيارة، امتلأت فجأة بشعور قوي بالامتنان أنني عثرت على إنسان مخلص وغير أناني مثله. لا يعني أنني لم أكن أدرك أنه كذلك طوال هذا الوقت، ولكن في تلك اللحظة بالتحديد، لم أستطع أن أحتوي مشاعر الحب العميق الذي أكنه له، ليس فقط لأنه بقي معي، لكن لأنه يمنح لحياتي معنى وإحساسًا بالأمان في وقت عصيب للغاية.

سألته كثيرًا لماذا بقي معي، وكان يجيب دائمًا بنفس الإجابة: «لأني أحبك. لأني أريد البقاء، ولأني عرفت أنك - سوزانا التي أحببت - موجودة هناك».

لا يهم كم كنت مُدمرة، أحبني لدرجة أنه ظلّ يراني في مكان ما في أعماقي. بينما كان يصر أن بمقدرته رؤية ذاتي القديمة، فإن معظم من حولي وجدوا صعوبة في تصديق ذلك.

بعد عدة أيام، وافقت على حضور حفل بمناسبة عودة أحد أصدقائنا المقربين، براين الذي عاد للمدينة لمدة وجيزة من أوستن في تكساس. عندما وصلنا، كان هنالك حفل شواء في فناء منزل والدة براين بينما المدعوون من أعمار مختلفة يجلسون في أرجاء المكان يتناولون البرجر ويلعبون كرة البوتشي[1] ويثرثرون. عندما انضممت مع ستيفن وأختيه للحفل، شعرت أن الأكسجين يُسحب من الجو بينما يبدو أن الجميع يحدقون ببلاهة نحو الفتاة المريضة. رغم أن ذلك كله كان غالبًا في رأسي فقط - الكثير من المدعوين لا يعرفون بمرضي والكثير منهم لم يقابلني من قبل - شعرت أني محط الأنظار بشكل فظيع. أخبرني لاحقًا أصدقائي الذين حضروا الحفل أنني بدوت سعيدة بشكل استثنائي، وأن وجهي كان مشرقًا بابتسامة كبيرة ومصطنعة. ربما كان ذلك درعًا من نوع ما استخدمه جسمي، قناعًا ليخفي خوفي الشديد.

في الحفل، لم يسألني أحد عن مرضي، ولكن من يعرف عن مرضي كان يعاملني بشكل مختلف، عيونهم للأسفل عاجزين عن النظر مباشرة في عينيّ، ويبدو عليهم الخجل من معرفتهم حتى وإن كانت معرفة سطحية بما أصابني. بالنسبة لهؤلاء الأصدقاء، كان الأمر كأنهم يخسرونني على مرأى من أبصارهم بينما سوزانا البديلة المختلفة عن صديقتهم التي يعرفونها ما تزال

1- لعبة تشبه البولينج تعود للعصر الروماني.

هناك لتذكّرهم بالشخص الذي كنته من قبل. أثناء ذلك، أحاط عقلي نفسه بدوامة من الأسئلة: هل سمعوا أنني كنت في المستشفى؟ هل سمعوا أنني كنت مجنونة؟ بدلًا من الانخراط في الحفل، وجدت نفسي أحدق نحوهم بجمود عاجزة عن تبادل الحديث معهم. في النهاية استسلمت وركزت في تناول البطيخ اللذيذ والهمبرجر المعد على الشواية.

مع هذا كنت أملك «منقذي» إلى جانبي. سماه الآخرون «قارئ سوزانا» لأنه كان يشعر دائمًا بما لا أقوله. في الحفل وقف بجواري ولم يتركني أبتعد كثيرًا عن ناظريه. عندما يأتي شخص لا يعرف بمرضي للحديث معي، كان ستيفن يتولى زمام الحديث، وهذا أمر لا يفعله ستيفن الهادئ عادةً لكنه كان شيئًا ضروريًا الآن. عندما لا أستطيع الحديث، كان يتكلم نيابة عني. مثل ابتسامتي المصطنعة، صار ستيفن طبقة أخرى في درع حمايتي.

في لحظة ما، لاحظت كولين، وكانت صديقة قديمة سمعت عن مرضي من بريجيت أخت ستيفن، أن عصارة حمراء قد سالت على ذقني وسقطت على فستاني أثناء تناولي قطعة من البطيخ. شعرت بالحيرة. أتخبرني أم تتجاهل الأمر؟ لم ترد أن تحرجني لكن لم ترد أيضًا أن أبدو كطفلة صغيرة لا تعرف ما تفعل. لحسن الحظ قبل أن تتخذ القرار، مسح ستيفن بيده عصارة البطيخ عن ذقني.

بعد ساعة، نظرت إلى ستيفن فأومأ لي متفهمًا. حان وقت الذهاب.

***

ثاني تجربة اجتماعية منظمة مررت بها كانت في آخر أسبوع من مايو في حفل زفاف أخي غير الشقيق ديفيد. كان من المفترض في البداية أن أكون إشبينة للعروس وكنت قد اشتريت الفستان قبل مرضي بمدة وجيزة. لكن بعد

خروجي من المستشفى، اقترحت العروس بلطف أنه قد يكون من الأفضل ألا أشترك في مراسم الزفاف. من الواضح، فكرتُ وقتها، أنها محرجة مني. الآن أدرك أنها فعلت هذا بسبب قلقها علي، لكن كان ذلك دليلًا على أنني صرت عبئًا على الجميع. كنت دائمًا شخصًا يود الجميع أن أشاركه في أي مهمة - اُخترتُ أنا وستيفن الثنائي الأكثر مرحًا في زفاف حضرناه قبل مرضي - لكن الآن صرت مصدرًا للخجل. هزني هذا الاكتشاف وأصاب ثقتي الهشة بنفسي التي كانت تتدهور طوال الشهور السابقة في مقتل. رغم كل ذلك، كنت مصممة أن أثبت لها ولبقية الحضور في الحفل أنني «ما زلت» متمكنة. صففت شعري بحيث أخفي ندبة خزعة المخ عن الأعين واشتريت فستانًا ورديًا، بينما ارتدى ستيفن بدلة وربطة عنق رفيعة. لم يكد يمر شهر على اللقاء العائلي في بيت رايتشل، لذا كان ذهابي للزفاف خطوة مهمة في عملية التعافي. كنت قد اقتربت من تجاوز المرحلة التي كنت أبدو فيها وأتصرف بغرابة واضحة لكن ما زال وجهي منتفخًا بفعل الستيرويدات وما زالت الكلمات تخرج من فمي بتلعثم وبطء. لو لم يدقق أحد النظر فسأبدو وستيفن ثنائيًا عاديًا مواكبًا للموضة.

جرى الاحتفال في مزرعة في وادي هدسون في نيويورك حيث تتدلى أشجار العنب بمحاذاة البوابات وتلمع الأزهار البرية المتفتحة على امتداد البصر. قضيت وستيفن معظم الحفل واقفين أمام باب المطبخ حيث كان النُدل يدخلون ويخرجون حاملين صحون المقبلات. لا أدرى إن كانت الستيرويدات تزيد من الشهية أم لا، لكنني كنت أشعر بشراهة للطعام. في بداية الأمسية، جعلتني أمي أعدها أنني لن أشرب سوى كأسًا واحدةً من النبيذ فحركت عينيّ لأعلى بانزعاج وأنا أعدها، لكنني لم ألتزم بوعدي وشربت عدة كؤوس من الشامبانيا. لو كان هنالك صفة كانت موجودة فيّ

وأبرزها المرض أكثر فهي عنادي أو تحجر رأسي أو سمها كما شئت. مع أن عقلي كان في طور التعافي وأن من الخطر المزج بين الكحول والأدوية المضادة للذُهان التي أتناولها، لم أهتم بالتأثير التدميري لما أفعله - كان عنادي شيئًا ملموسًا يربطني بطريقة ما بسوزانا «الطبيعية». لو كانت سوزانا القديمة تشرب كأسًا أو اثنين من النبيذ مع العشاء فستفعل سوزانا الجديدة هذه الشيء نفسه. كنت عاجزة عن القراءة بنفسي ولا أكاد أجرى محادثة صغيرة، وممنوعة من قيادة السيارة لكن اللعنة على كل ذلك، سوف أشرب كؤوسًا قليلة من الشمبانيا في حفل زفاف. حاولت أمي إيقافي لكنها كانت تعلم أنها لا تستطيع السيطرة على أفعالي المتهورة فسوف أفعل ما أريد. بشكل ما، مثّل شربي النبيذ نوعًا من الاستقلالية، وقرر جميع من حولي أن من الأفضل عدم حرماني من الجزء الضئيل الباقي من شعوري بالكرامة.

عندما بدأت أغنية «Build Me Up Buttercup»، رقصت رقصة التويست مع ستيفن. في عقلي، رقصت بجنون، متجاهلة آلام وأوجاع ساقيّ وحقيقة أنني صرت أجهد بسرعة أكبر بكثير من السابق (لاحقًا سأعلم من عائلة أبي، أنني لم أكن أتحرك برشاقة أثناء الرقص بل بدوت دائخة وحركاتي أشبه بالروبوت).

رغم محاولاتي كي أبدو مرحة وغير مبالية، كنت حساسة جدًا لأي معاملة مختلفة من الحضور. وحيث إن الحفل كان عائليًا، كان السؤال الأول الذي يخرج من فم أي أحد هو «كيف حالك الآن؟» كان سؤالًا لا إجابة له في هذه المرحلة. لكن لم يكن السؤال هو أسوأ ما في الأمر، بل النبرة المفعمة بحماس زائف والحرص الزائد في انتقاء الكلمات. كانوا يتحدثون إلي كما لو كنت طفلة أو عجوزًا بلغت من العمر أرذله. كان أمرًا مُحبطًا لكن لا يمكنني لوم أحد حقًا. لا أحد كان بإمكانه أن يعرف شيئًا مما يدور داخل عقلي. مع

ذلك كانت أمي فخورة لرؤيتي أستمتع بوقتي. دام ذلك حتى قطعت مدعوة أخرى نظرات الإعجاب الصامتة التي توجهها نحوي.

قالت المرأة وهي تحتضن أمي: «آسفة جدًا لسماع ما حدث لسوزانا».

لا تحب أمي أن يلمسها غرباء. قالت محاولة أن تبقي عينيها عليّ: «شكرًا».

«أمر محزن حقًا. إنها مختلفة جدًا. لقد فقدت توهجها تمامًا».

هذه المرة أبعدت أمي عينيها عن المرقص ورمت المرأة بنظرة مميتة. مرت أمي بلحظات كثيرة تشي بانعدام الإحساس لدى الناس، لكن كانت تلك اللحظة ضمن الأسوأ. تابعت المرأة: «أعني، هل تعتقدين أنها ستعود إلى شخصيتها القديمة ثانية؟»

عدلت أمي من فستانها البنفسجي ومشت مبتعدة عن المرأة. ارتطمت بكتفها عمدًا وهي تتجاوزها وتقول من بين أسنانها المطبقة. «سوزانا في حالة جيدة جدًا».

(39)

في الحدود الطبيعية

رغم تحقيقي لقفزات ملحوظة في طريقي نحو التعافي، ظل يومي لشهور عديدة يتمحور حول حبوب متعددة الألوان كان علي تناولها ست مرات يوميًا. كل أسبوع، كانت أمي تقضي ساعة في تجهيز الحبوب في حاوية بحجم غطاء صندوق الأحذية. كان الأمر يتطلب منها عدة محاولات كي تنجح في تجهيز الجرعات بشكل صحيح لأن الجرعات معقدة وتتغير دائمًا. تنقسم حاوية الأدوية إلى أقسام صفراء ووردية وزرقاء وخضراء، وسبعة أعمدة يمثل كل منها يومًا من أيام الأسبوع، وأربعة صفوف تمثل: النهار، ومنتصف الظهيرة، والمساء، وقبل النوم. شعرت أنني أسيرة حاوية الأدوية هذه. اعتمادي على الحبوب يعني أنني غير قادرة على الاعتماد على نفسي، لذا كرهتها من كل قلبي. لم تكن الأدوية مجرد رمز لمدة الطفولة التي قضيتها في بيت أمي لكن كانت تلك الحبوب تجعلني بطيئة وراغبة في النوم. أحيانًا أنسى (أو بالأحرى أتناسى) تناولها - وهذا شيء خطير للغاية - ولأني لم أكن بارعة المكر في حالتي تلك، فلم أكن أرمي الدواء في القمامة، بل كنتُ عادةً ما أترك دليلًا على عدم تناولي الدواء، مما كان يثير غضب أمي ويدفعها إلى توبيخي، كما كانت تفعل وأنا طفلة. ولذلك ربطت أثناء مدة تعافيّ في بيت أمي ومن عدة نواحٍ بين الحبوب - والمشاحنات التي كانت تسبّبها - وأمي. من منظور عملي كنت بحاجة إليها كي تنظّم الأدوية لأنه أمر معقد

جدًا بالنسبة إلي في ذلك الوقت، ولكن من منظور أكثر عاطفية، بدأت أشعر أنها مثل الدواء، أي أنها باتت تجسيدًا لعجزي واعتمادي المهين على غيري. يمكنني الاعتراف الآن أنني كنت قاسية أحيانًا معها.

كانت تسألني عندما تعود إلى البيت بعد يوم طويل من العمل في مكتب النائب العام: «كيف كان يومك؟»

فكنت أجيب ببرود دونما سبب: «جيد».

«ماذا فعلت خلال اليوم؟»

«لم أفعل الكثير».

«كيف تشعرين؟»

«بخير».

أشعر بالاشمئزاز من نفسي الآن عندما أتذكر تلك المحادثات، لأني نادرًا ما كنت أفترق عن أمي أثناء تلك المدة، وبإمكاني تخيل كم آلمتها كلماتي تلك. أدركت أنني كنت أحمل نحوها ضغينة لأسباب تبدو لي الآن تافهة جدًا. خلّفت إقامتي في المستشفى غضبًا ضبابيًا في مكان ما في عقلي الباطن، فكنت أفرّغه دون قصد على أمي. لسبب أجهله، أقنعت نفسي أنها لم تقضِ الوقت الكافي بجواري في المستشفى، رغم أن هذا لم يكن عادلًا أو حتى صحيحًا. بطريقة ما، بدأت المعاناة المدفونة بعمق داخل أمي تتسلل دون وعي خارجة منها، لتجد طريقها إليّ. الجزء الأسوأ أن معاناة أمي لم تنته بانتهاء إقامتي في المستشفى بل كان عليها أن تعيش مع شخص غريب وعدواني: ابنتها، التي كانت من قبل تعاملها كأنها إحدى صديقاتها المقربات. لكن بدلًا من التعاطف مع ألمها الذي كان بكل تأكيد يوازي ألمي وقد يتجاوزه، اعتبرت معاناتها نوعًا من الإهانة لي، وعلامة على عجزها عن التعامل مع التحول

الذي أحدثه المرض في شخصيتي.

تحدثت أمي مع آلن باستفاضة عن تلك المشاعر، ولأسباب واضحة أخفتها عن أبي. عندما كان والداي يتحدثان، كان الحوار يقتصر على الحديث عني وعن تطور حالتي، ونادرًا ما كان يتطرق إلى أمور شخصية أو بوح بمكنونات النفس. كل أسبوعين كانا يلتقيان كي يصحباني إلى د. نجار في عيادته. في كل مرة كان يقرر د. نجار تخفيض جرعات الستيرويدات. ثم نذهب إلى د. أرسلان الذي بدوره يقلّل من الأدوية المضادة للذُهان والتوتر بالتوافق مع جرعة الستيرويدات. كانت تلك الزيارات ترفع من روحي المعنوية لأن في كل مرة كان يبدو أني أحرز تقدمًا ثابتًا ويبدو على والديّ تفاهم وانسجام أكبر.

كان د. أرسلان دائمًا ما يسألني نفس السؤال: «كم نسبة شعورك بعودتك إلى طبيعتك؟»

في كل مرة أجيب بثقة بينما يشي وجهي المتورد بالحمرة بشكي الداخلي: «تسعون بالمئة». أو عندما أشعر بثقة زائدة: «خمسة وتسعون بالمئة».

كان أبي دائمًا ما يتفق معي حتى لو كان له رأي مختلف. لكن أمي كانت تتدخل بلطف في الحديث: «أعتقد أن ثمانين بالمئة أقرب للحقيقة». وقد اعترفت لي لاحقًا أن حتى نسبة الثمانين بالمئة كانت مبالغًا فيها.

رغم أن التعافي عملية نسبية (تحتاج أن تعرف جيدًا من أين أتيت كي تدرك مدى التقدم الذي حققته)، كنا على وشك الحصول على رأي خبير أثناء حضورنا لجلستي تقييم لحالتي في معهد راسك للطب التأهيلي التابع لمستشفى نيويورك الجامعي. كنت مرعوبة من تلك الرحلة. رغم أنه كان من الواضح أنني أتحسن، لم أرد أن أحصل على تأكيد على عجزي المتواصل

عن أداء المهام البسيطة. لكن كانت أمي مصممة على ذهابي. أتذكر القليل من الجلسة الأولى لأني كنت شديدة الإجهاد. كل ما أتذكره هو عينا الطبيبة النفسية الزرقاوان الواسعتان الودودتان. في الجلسة الثانية، قادني والداي للحجرة رقم 315 في معهد راسك حيث كانت نفس الطبيبة النفسية، د. هيلاري بيريتيتش في انتظاري في عيادتها. انتظر والداي في حجرة الانتظار. لاحقًا أخبرتني د. بيريتيتش أنني حتى في تلك المرحلة المتقدمة من التعافي، بدوت كأني منعزلة عن العالم الخارجي، وأنني كثيرًا ما كنت أستجيب لاستفساراتها ببطء شديد، لدرجة أنها تساءلت إن كنت قادرة على سماعها على الإطلاق. قالت لي إن تصرفاتي تشبه إلى حد بعيد الأعراض السلبية لمريض الفصام: التبلد، والتشتت الذهني، والكلام المتلعثم البطيء.

قيّمت د. بيريتيتش قدرتي على التركيز والتذكر عن طريق اختبار إزالة الحروف، وفيه كان علي شطب كلمات أو حروف معينة في مقال صحفي (يا لها من صدفة!). في البداية طلبت مني أن أشطب كل حرف h في المقالة. نجحت في شطبها جميعًا لكن أخذ ذلك مني 94 ثانية، مما وضعني في تصنيف «الحد الأدنى من المعدل الطبيعي». ثم طلبت مني شطب كل حرف c و e. شطبتها إلا أربع حروف، واستغرقت المهمة مني 114 ثانية. مرة أخرى كنت في أدنى حد طبيعي. ثم أتى الجزء الأصعب وهو تحديد كل «and» [واو العطف] و«but» [لكن] و «the» [أل التعريف] في المقالة. أتذكر شعوري بالارتباك ونسياني المستمر لأي كلمة يجب علي التركيز عليها. من 173، أغفلت تحديد خمس وعشرين كلمة. أي رقم أكبر من خمسة عشر يعتبر «ضعيف بشدة». كانت سرعتي ودقتي وتركيزي في مراحل متدهورة.

انتقلت د. بيريتيتش إلى اختبار ذاكرتي عن طريق التأكد من احتفاظي بالمعلومات في ذهني لمدة قصيرة من الزمن. قرأت الطبيبة بصوت عالٍ

مسائل كلامية حسابية بسيطة، كانت حلولها بديهية لكني تمكنت من حل خمسة وعشرين بالمئة فقط منها. كانت ذاكرتي البصرية أسوأ. عرضت علي د. بيريتيتش صورة لشكل هندسي لعدة ثوانٍ ثم طلبت مني رسمه من الذاكرة. لم أتمكن من تصوّر الشكل الأصلي قط مهما حاولت اعتصار ذاكرتي. هنا كنت في نسبة الواحد بالمئة، أي الحالات الأكثر تدهورًا. قدرتي على استدعاء كلمات من الذاكرة كانت ضعيفة جدًا. كررت د. بريتيش اختبارًا مشابهًا للذي خضعتُ له في أبريل الماضي حين طلبت مني د. موريس أن أذكر أسماء فاكهة وخضراوات، لكن هذه المرة طلبت مني د. بيريتيتش ذكر أكبر عدد من الكلمات التي تبدأ بحرف الـ F وA وS خلال دقيقة واحدة لكل حرف.

F: Fable, fact, fiction, finger, fat, fantastic, fan, fastidious, fantasy, fart, farm.

A: Apple, animal, after, able, an, appeal, antiquity, animosity, after, agile.

(بما أنني كررت كلمة after، فكانت المحصلة تسع كلمات فقط).

S: Scratch, stomach, shingle, shit, shunt, sex, sing, song, swim, summer, situation, shut

وهكذا كان مجموع الكلمات التي تمكنت من ذكرها في ثلاث دقائق هو اثنتين وثلاثين كلمة. ورغم أن هذا كان يمثل تحسنًا ملحوظًا مقارنة بأبريل، حين لم أستطع سوى ذكر خمس كلمات فقط في الدقيقة، فإن متوسط الكلمات التي يمكن للإنسان السليم ذكرها في ثلاث دقائق هو خمس وأربعون.

ومع ذلك، أظهرت تقدمًا كبيرًا في اختبارات أخرى. الآن تحسنت قدراتي الكلامية، وبلغت نسبة واحد وتسعين بالمئة، أي في مستوى أعلى من الطبيعي.

بينما قدرتي على التفكير المنطقي التي فُحصت من خلال أسئلة قياسية مثل: «ما العامل المشترك بين الصين وروسيا؟» بلغت خمسة وثمانين بالمئة. رغم الصعوبات التي أوجهها في أداء الوظائف الذهنية البسيطة، كنت ما أزال قادرة على التفكير التحليلي المعقد، وهو ما فاجأ د. بيريتيتش. في اختبار يتضمن التعرف على النمط المشترك بين مجموعة من الأشياء أجبت عن كل الأسئلة بشكل صحيح، وإن استغرقني الأمر وقتًا أطول من الطبيعي.

فكرت: لا يمكنني رسم شكل ثماني الأضلاع بناءً على ذاكرتي البصرية، لكن يمكنني القيام بتحليلات منطقية شديدة التعقيد!

لاحقًا قالت لي د. بيريتيتش أن الطريقة التي أقدّم بها نفسي للناس لا تتوافق مع ما يحدث داخلي. هنالك انعزال حقيقي بين العالم الخارجي وعالمي الدخلي، وربما تكون ذاتي الحقيقية حاضرة أكثر بكثير مما يبدو عليه الأمر. شعرتُ بهذا الانقسام أيضًا. بين حين وآخر، مثل الاحتفال بعودة صديقنا وحفل الزفاف، أشعر بأن «ذاتي» تحاول التواصل مع العالم الخارجي لكن لا يمكنها أن تحطّم جدران السجن الذي يفصلها عنه: جسدي.

سألتني في آخر حواراتنا عن أكثر المشاكل التي أشعر بأنها تعوق تقدمي.

أجبت مستخدمة الكلمات الصحيحة: «مشكلة التركيز ومشكلة الذاكرة».

وجدت قدرتي الدقيقة على تحديد مشاكلي التي تتوافق مع نتائج الاختبارات أمرًا مُشجعًا. لا يستطيع المرضى الذين يعانون من اختلالات عصبية التعرف على مواضع الخلل عادةً. لا يمتلكون الوعي بذواتهم كي يفهموا أنهم مرضى. وهكذا فإن قدرتي المناقضة للمألوف على تحديد نقاط ضعفي كانت بمثابة مصدر قوة. يفسر ذلك كم كانت المواقف الاجتماعية

قاسية جدًا علي؛ لأني كنت مدركة تمامًا كم أبدو بطيئة وغريبة لمن يحيطون بي، خاصةً الأشخاص الذين كانوا يعرفونني جيدًا قبل مرضي. عبرت عن عدم ثقتي بنفسي للدكتورة بيريتيتش معترفة أنني أشعر بالاكتئاب والتوتر عندما أكون في مجموعة، فنصحتني بالخضوع لجلسات إعادة تأهيل ذهني فردية وجماعية، وجلسات علاج نفسي لأناقش أعراض الاكتئاب والتوتر مع الطبيب النفسي وفي لقاءات العلاج النفسي الجماعي مع مجموعة من البالغين القريبين لي في السن الذين يعانون من أعراض مماثلة. في النهاية كنت غير واثقة في نفسي وقدراتي فقررت تجاهل نصيحتها وعدم القيام بأي من ذلك.

عندما أنظر إلى الماضي الآن، أدرك أن هذا كان خطأً كبيرًا. فبعد أي إصابة أو مرض، يحاول المخ محاولات حثيثة ومستميتة لعلاج الخلايا المصابة تلقائيًا، ومن الأفضل انتهاز أي فرصة لتنشيط وظائف المخ في تلك المدة. ما يزال الدور الذي يؤديه علاج إعادة التأهيل الذهني في التعافي من هذا المرض غير واضح بعد، لكن من الأرجح أنني كنت سأتحسن بشكل أسرع لو أنني خضعت له.

عمقت تلك الجلسات التي حضرتها في معهد راسك من عزلتي الداخلية. كنت أكرهها لدرجة لم أستطيع حمل نفسي على مواصلتها. لم أعد ثانية لمتابعة حالتي. مضى عام كامل قبل أن أقرر البحث عن د. بيريتيتش والحصول على نتائج الاختبارات التي أجرتها لي. لم أستطع أبدًا أن أواجه كم كانت حالتي سيئة حقًا. وربما كان تأخر المواجهة هو ما أخّر شفائي.

(40)

مكتبة شمسية
t.me/t_pdf

لم أستطع منع نفسي من التفكير أن عودتي إلى الإقامة ثانيةً في المستشفى خطوة إلى الوراء في مسيرتي نحو التعافي، لذا عندما اتصل د. نجار بأمي في أواخر مايو ليخبرها أنني بحاجة إلى العودة إلى المستشفى من أجل تلقي جرعة إضافية من علاج الـIVIG، كنت مُحبطة. ارتجفت لمجرد التفكير في أضواء حجرة المستشفى المزعجة، ومقاطعات طاقم التمريض الدائمة ووجبات العشاء الرديئة.

كي يبعد والدي عن ذهني هذا التفكير، دعاني أنا وستيفن إلى قضاء الأمسية معه، وكان أمرًا نفعله في ذلك الوقت مرة في الأسبوع على الأقل، في باحة بيته الخلفية الظليلة الأشبه بواحة في قلب بروكلين هايتس. أكلنا من اللحم الذي شواه أبي في الهواء الطلق، وشربنا السانجريا، وارتدينا القبعات المكسيكية. ثبت أبي أسلاكًا تتدلى منها مصابيح عيد الميلاد متعددة الألوان حول الباحة بينما يصدح غناء راين أدمز في الخلفية.

بقيت صامتة معظم الأمسية بينما يتبادل أبي وجيزيل وستيفن أطراف الحديث.

كلما حاولوا إشراكي في الحديث، أهز رأسي وأعود إلى ضم شفتي معًا بشكل تلقائي.

ظللت أردد الكلمات نفسها: «أنا مملة. ليس لدي ما أقوله. لست مثيرة للاهتمام بعد الآن».

يرد علي والدي بعنادٍ من وقت إلى آخر: «قد تكونين أي شيء إلا مملة».

كان قلب أبي ينفطر لسماعي أقول أشياء كهذه. قال لي بعد أعوام قليلة إنه في نفس تلك الباحة تحت نفس مصابيح عيد الميلاد، كان يبكي بمفرده حتى ينام، وهو يفكر في تلك الكلمات. لكن في النهاية لم يستطع أي أحد – ولا حتى أبي – أن يقنعني أنني لم أكن مثيرة للكآبة والملل، لا شك في ذلك. ولربما كان التغير الأصعب في حياتي الجديدة هو أني كنت مملة. كان السبب في هذا يعود جزئيًا إلى الأدوية المضادة للذُهان التي كنت أتناولها لأن من الآثار الجانبية المعروفة لتلك الأدوية هي أنها تسبب النعاس وتشوش الذهن والتعب. لكن في الأغلب كان عقلي العليل هو نفسه السبب الأبرز لفتوري وانسحاق معنوياتي. كانت الإشارات العصبية بين الخلايا العصبية في فص مخي الجبهي لا تسري بشكل سليم، أو تعاني خللًا مما يجعلها تستغرق وقتًا أطول كي تصل إلى أهدافها.

يقع على عاتق فص المخ الجبهي مسؤولية أداء وظائف إدارية معقدة، مما يجعل الخبراء يشيرون إليه على أنه المدير التنفيذي للدماغ. لا يكتمل نضج الفص الجبهي تمامًا إلا في العشرينيات من عمر الإنسان. يستخدم الخبراء هذه الحقيقة لإثبات أن نضج الفص الجبهي هو ما يميز بين الأطفال والبالغين. لكن الشيء المؤكد هو أن الفص الجبهي هو ما يجعلنا مبدعين وآدميين، وببساطة أقل إثارةً للملل.

تمكّنا بطريقة بشعة من معرفة ماذا يحدث حينما يضعف الاتصال بين الفص الجبهي وبقية المخ من خلال الجراحات الفصية (جراحة فصل الفص الجبهي) المثيرة للجدل التي أجريت في الخمسينيات والستينيات. وانتشرت

سمعة سيئة لطريقة واحدة بعينها لإجراء العملية تسمى جراحة كسارة الثلج، بالذات بعد أن أجرتها روزميري كينيدي[1].

خلال العملية يُرفع حاجب المريض ثم تُدخل إبرة معدنية رفيعة فوق كرة العين حتى ترتطم بمحجر العين، ثم يبدأ الجراح بالطرق على نسيج المخ لعدة دقائق.

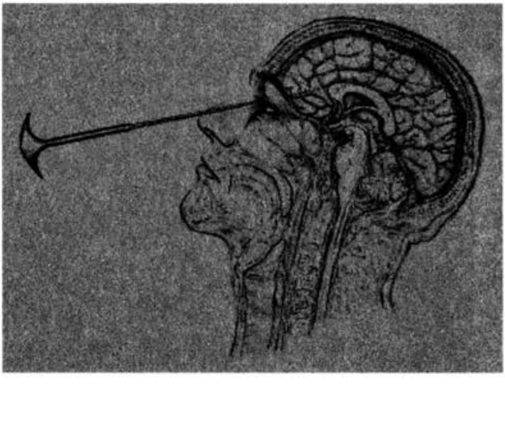

1 - أخت جون كينيدي رئيس الولايات المتحدة الأسبق. وكانت مصابة بمرض عقلي.

كان ذلك الإجراء غير الدقيق يُتلف العديد من الاتصالات العصبية التي تربط بين الفص الجبهي وبقية المخ، مما يؤدي إلى سلسلة من المضاعفات تتنوع بين تبلد في المشاعر (يتحول الإنسان إلى روبوت) إلى تصرفات طفولية. جرّدت العملية بعض المرضى تمامًا من أي قدرة على التفكير أو الشعور، مثلما حدث مع راندل ماكمرفي، الذي لعب دوره جاك نكيلسون في فيلم «أحدهم طار فوق عش الوقواق».

ورغم أن الفص الجبهي يستغرق غالبًا وقتًا أطول كي يتعافى من الالتهاب مقارنة ببقية أجزاء المخ (وفقًا لنتائج أبحاث حديثة)، إلا أن التحسن في حالتي كان محسوسًا. أثناء إقامتي في المستشفى وصف طبيب ما وظيفة فصي الجبهي أنه «يكاد يكون صفرًا». على الأقل تحسنت عن الصفر بكل تأكيد.

بنهاية العشاء، كنت دائخة جدًا لدرجة أنني وضعت رأسي على الطاولة، ونمت خلال الحوار حتى أيقظني صوت شخيري. هززت جسمي كي أوقظ نفسي ثم صعدت السلم المعدني لأحضر الآي بود المتصل لاسلكيًا بمكبرات الصوت. حمّلت مؤخرًا أغنية رهانا «شمسية» رغم أنها قد صدرت منذ عدة سنوات، وأنها ليست النمط التقليدي من الموسيقى التي أستمع إليه عادة. كان صوتها المميز الممتزج بأنغام الآر أند بي[1] يصدح خلال تلك الليلة الصيفية. نظرت من أعلى السلم بحب وامتنان نحو أبي وستيفن وجيزيل، وبدأت أتمايل مع الموسيقى. امتلأت فجأة بطاقة مُبهجة. دوت أنغام الموسيقى في أذني، وبدأت أحرك جسدي مع الإيقاع شاعرة بصفاء ذهني، حتى اندمجت تمامًا مع الموسيقى. لم تكن حركاتي رشيقة ونموذجية لكن بعيدة كل البعد عن حركاتي المصطنعة والآلية أثناء الزفاف منذ شهر.

1 - موسيقى أفرو - أمريكية تمزج بين البلوز والبوب والسول والهيب هوب.

تأثرت جيزيل بإشراقة وجه ستيفن حين نظر لأعلى ووقعت عيناه علي أرقص بتحرر واستمتاع. لمدة طويلة بدوت كما لو أنني موجودة في قلب غيبوبة متحركة، لكن في تلك اللحظة رأى الجميع حياة في رقصة الريغي[1] غير المتقنة التي كنت أوديها. انضم إليّ ستيفن على درجات السلم. احتواني بذراعيه ثم أدار جسدي، بينما نضحك على منظرنا الأبله. تشابكت يدا أبي وجيزيل، ورقصا ببطء على إيقاع الأغنية.

1 – الريغي: موسيقى راقصة جاميكية – أفريقية. كان بوب مارلي السفير الأشهر لموسيقى الريغي وساعد بشكل كبير على انتشارها.

(41)

الترتيب الزمني

يتمتع المخ بمرونة شديدة. يمكن للمخ أن يكوّن خلايا عصبية جديدة ويخلق روابط جديدة من خلال إعادة رسم خريطة للقشرة الدماغية في عملية تعرف بالبناء العصبي «Neurogenesis». لأدمغتنا قدرة مدهشة على التحكم في قوة الروابط بين الخلايا العصبية، وإعادة توصيلها ببعضها البعض باستمرار وخلق مسارات جديدة تمامًا. (يصنع المخ كومبيوترًا فريدًا لا يمكنه خلق عتاد جديد لذا إذا انهار نظام المخ، تشل حركته). هذه القابلية المذهلة للمخ على بناء طرق جديدة تعرف بالليونة العصبية. ومثل أزهار النرجس في الأيام الأولى للربيع، كانت خلاياي العصبية تعيد تكوين مستقبلات عصبية جديدة لتعوض الأخرى التالفة، بينما ينتهي شتاء المرض.

خلال إقامتي الرهيبة الثالثة في المستشفى حدثت لحظة الصحوة الحقيقية، بداية التحرر من المرض. بدأت أواظب على كتابة مذكراتي، وبدأت أقرأ من جديد، وعبرت لأول مرة عن رغبتي في فهم ما حدث لي.

ولأن المذكرات توفر دليلًا ملموسًا على طبيعة ذاتي في تلك المدة (يمكنني قراءة أفكار سوزانا المريضة على الورق)، يمكنني ان أتذكر بسهولة كيف كانت تبدو مناقضة تمامًا لسوزانا في افتتاحيات اليوميات المليئة بالشك والارتياب في كل شيء، التي كتبتها قبل دخول المستشفى والتي كانت أقرب

لخيالات ملفقة لذكرى معتمة. تبدو تلك اليوميات الآن غريبة جدًا لدرجة أنها قد تكون شخصية في فيلم رعب.

الإنسانة التي أقرأ عنها الآن في المذكرات التي كتبتها في مدة التعافي كانت تبدو كطفلة. كانت مبتذلة في أسلوبها على عكس شخصيتي الشبحية في مدة ما قبل دخولي للمستشفى التي كان بإمكانها حتى في أكثر حالاتها تشوشًا وغموضًا أن تكون واضحة ومباشرة بشكل مخيف.

ثمة تشابهات كثيرة بين هذه المذكرات والمذكرات التي احتفظت بها من أيام المدرسة الإعدادية. في كليهما غياب للرؤية وفضول بخصوص ذاتي. بدلاً من الأفكار العميقة والمنظمة، هنالك عشرات من الفقرات المخصصة لجسمي (زيادة وزني أثناء مدة التعافي وصغر ثديّ في المرحلة الإعدادية) وملاحظات عن أشياء تافهة وسخيفة (كراهيتي لطعام المستشفى في مقابل الشجار الدائم مع «الأعدقاء» في المدرسة). أشعر بالتعاطف نحو سوزانا الهشة غير الواثقة بنفسها تلك كما أفعل مع شخصيتي في مرحلة ما قبل المراهقة، لكنها ليست أنا بشكل كامل.

كتبت أولى يومياتي في المستشفى في 3 يونيو 2009 بينما كنت أتلقى الجرعة الثانية من الـIVIG. ساعدني أبي - الذي كان يبقى معي طوال المدة الصباحية كالعادة أثناء إقامتي الثالثة في المستشفى - على الكتابة، واقترح علي أن أحاول تعقب الزمن الضائع مني من خلال وضع ترتيب زمني للأحداث من ذاكرتي. بدأت قائمتي بـ: «شعور بالتنميل والنعاس»، وانتهت بـ «نوبة الصرع الثالثة في المستشفى». لا أملك أي ذكرى لما حدث لي بعد أن اشتريت الكابتشينو في منطقة استقبال المستشفى يوم 23 مارس. أثناء إعدادي للقائمة، استرجعت الماضي أيضًا، وحشرت الكلمات الآتية بعد طول تفكير: «الليلة التي قضيتها في بيت أبي بين نوبة الصرع الثانية ونوبة الصرع

الثالثة». كتبت العبارة بخط يكاد لا يُقرأ، ولسبب منطقي. كنت ما أزال غير واثقة وخجولة من سلوكي في تلك الليلة المسمومة (وما زلت حتى الآن) وانعكس ذلك حتى على خطي.

كان أسلوب كتابتي ما يزال غير مألوف لكنه يعتبر أفضل بكثير مقارنة بالملاحظات الطفولية التي كتبتها أثناء إقامتي الأولى في المستشفى. يمكنني الآن كتابة عبارات كاملة واستخدام علامات الترقيم. لكن أكثر شيء مميز لقائمتي هو «الغياب»، لا توجد أي ذكريات على الإطلاق لمدة إقامتي في المستشفى.

ألقى أبي نظرة على الصفحة باهتمام. كان هذا هو أول تأكيد على فقدان الذاكرة العميق الذي أعاني منه، لكنه أخفى صدمته وساعدني على إضافة بعض الأحداث من ذاكرته هو، فكانت نسخة أكثر وضوحًا ودقة للأحداث. مع ذلك كان هنالك إغفال واضح لأحداث كثيرة، من جانبي ومن جانب أبي. الفجوات صغيرة لكن يسهل تمييزها، لأن فقدان الذاكرة لا يصاحب إصابة الرأس فقط بل الصدمات العاطفية أيضًا. لا يستثنى أي أحد كان قريبًا مني من ذلك. الكل يحاول تناسي أحداث معينة لأنها مؤلمة للغاية. شاركني أبي في وضع هذا الترتيب الزمني من أجلي فقط لأنه يمقت الحديث عن تلك المدة. شعاره الجديد بات «للمضي للأمام، يجب أن نترك الماضي وراءنا». لكن جيزيل أخبرتني لاحقًا كم كان الموقف صعبًا عليه. كان محطمًا تمامًا. عندما يتصل به أفراد الأسرة ليعرفوا تطورات حالتي، كان يبعد السماعة عن أذنيه واثقًا أنه سيفقد رباطة جأشه التي اكتسبها عبر السنين، عندما يدرك أنه سمع صوتًا مألوفًا وأن عليه الحديث عن حالتي. يتذكر أخي الحديث مع أبينا عبر الهاتف أثناء وجوده في الكلية بينما كنت في قبضة مرض مجهول. عند نقطة معينة من المحادثة، بات الصوت الوحيد الذي يمكن

لأخي جيمس سماعه على الطرف الآخر هو صوت تنفس أبي العميق كي يغطي على صوت بكائه.

ثم هنالك المذكرات الخاصة التي قرر أبي، كبديل عن التحدث مباشرة معي عما حدث، أن يمنحني إياها من أجل بحثي. هذه المذكرات ساعدتني على أن أعيش ثانيةً مدة إقامتي في المستشفى من منظور أبي. قرأت كل سطر، ثم أعدت قراءة كل سطر. كانت هنالك لحظات من الضحك والاحتفال، ثم فقرات موجعة للقلب لدرجة أنني شعرت برغبة في الطيران إلى بروكلين لأعانقه. لكنني أعرف أن من الأفضل ألا أفعل ذلك. «للمضي للأمام، يجب أن نترك الماضي ورائنا». ورغم أنني لم أكن مستعدة لفعل ذلك لكن على الأقل من أجل أبي يمكنني أن أتبع شعاره عندما يتعلق الأمر به.

كان أبي، حارسي القوي ذا الأصول الإيرلندية، في قلب كل شيء. أبي القوي الشخصية لكن الرقيق لين القلب في المواقف العاطفية. وكان حبه لي، الذي شككت فيه أثناء الأوقات العصيبة، لا حدود له.

«كل ما أعرفه أنها ما تزال حية وأن روحها موجودة. كان أمامنا المزيد من الإقامات في المستشفى لتلقي العلاج وزيارات الأطباء للمتابعة، والكثير من الأدوية للتعامل معها، لكن صغيرتي كانت في طريق عودتها إلى طبيعتها».

هكذا انتهت مذكرات أبي.

رغم أنني لم أشكر أبدًا أبي بالشكل المناسب (أو أمي، أو ستيفن أو أصدقائي أو حتى الأطباء والممرضات) إلا أنني أتناول العشاء معه بانتظام، وهو تحسن شاسع عن لقائنا اليتيم الذي كان يتكرر مرة كل ستة شهور قبل مرضي.

الآن تلتقي أعيننا أحيانًا أثناء تناولنا الطعام، ونبدأ في الحديث بشفرة

سرية من نوع ما، يمكن وصفها بأنها اتصال من عالم آخر، متناسين عن غير قصد من حولنا على الطاولة. لم أدرك كم بدونا فظين في فعلنا هذا حتى حدثتني عنه جيزيل عندما أفضت إليّ: «لا أعتقد أنكما مدركان لذلك، لكن أحيانًا من الصعب على الناس حولكم أن يشعروا أنهم غير مهمشين».

لم نقصد أن نهمش الآخرين. وفقًا لعقيدة أبي رجل الجيش، فقد ذهبنا إلى حرب، وقاتلنا في خنادق المعركة، وضد كل التوقعات بالهزيمة، خرجنا منها أحياء دون أي أذى يذكر.

قليلةٌ هي التجارب التي يمكنها التقريب بين إنسانين أكثر من تجربة التحديق في وجه الموت.

***

على عكس الرابطة القوية التي تولدت بيني وبين أبي منذ مغادرتي المستشفى، كانت هنالك غيوم من الأدوية وأشياء أخرى كثيرة تعكر صفو العلاقة بيني وبين أمي. أعتقد أن السبب في تدهور علاقتي بأمي بالتحديد هو مدى قربي منها قبل مرضي. ربما لأن دور أبي كان هامشيًا في حياتي بينما أمي كانت قوة أساسية، كان من الأسهل على أبي أن يتفاعل مع أنا «الجديدة». ولكن كي تتأقلم أمي مع شخصيتي الجديدة، كانت تعيد كتابة روايتها عن مرضي، مصرة على أن حالتي «لم تكن حقًا بذلك السوء» وأنها «كانت تعرف دائمًا أنني سأتعافى». بالنسبة لها كنت أقوى من أن أبقى مريضة للأبد. لم تستطع أن تتقبل حقيقة أنني لم أتعافَ بشكل كامل حتى تلك الظهيرة في يوم في منتصف الصيف عندما خرجنا لتناول الطعام، أنا وهي فقط في مطعم وينبري في سوميت.

كانت أمسية رائعة ونسمة خفيفة من الهواء تداعب المظلات التي تظلل الطاولات في فناء المحلّ الخارجي لذا قررنا الجلوس في الخارج، وطلبنا وجبة خفيفة من السمك وكأسين من النبيذ الأبيض. بينما نحن نأكل، بدأت أسألها أسئلة عن سلوكي خلال الأيام التي قضيتها في سوميت قبل دخولي المستشفى، فما زلت لا أملك سوى ذكريات ضبابية عن تلك المدة، اكتشفت أن معظمها مجرد هلاوس ولم أكن قادرة على التمييز بين الحقيقة والوهم. كان الأمر برمته لغزًا بالنسبة لي، وكنت متحمسة لتجميع تفاصيل كل ما حدث سويًا.

قالت: «كنت فاقدة السيطرة على عقلك. هل تتذكرين عندما أجروا لك رسم المخ؟»

«لا، لا أتذكر».

لكن بعد عدة محاولات، تمكنت من تذكر شيء ما: الممرضة في عيادة د. بايلي وإضاءة الستروب. على عكس المشهد الذي شاهدته في فيديو المستشفى حيث لم يشفّر مخي غالبًا تلك اللحظات ويحوّلها إلى ذكرى من الأساس، كانت هذه الذكرى قد شُكّلت وخُزّنت. المشكلة كانت تكمن في استرجاعها.

عندما يعمل المخ على تذكر شيء ما، تنطلق الإشارة العصبية عبر الخلايا العصبية بنمط مشابه للذي انطلقت به أثناء استقبال الحدث الأصلي وإدراكه لأول مرة. هذه الشبكات العصبية متصلة، وفي كل مرة نعيد فيها زيارة الذكرى، تصبح تلك الشبكات العصبية أقوى وأكثر ارتباطًا لكنها تحتاج إلى الإشارات المناسبة للتذكر: كلمات، وروائح، وصور كي يمكنها استحضار الذكريات.

بينما أمي تراقبني وأنا أصارع للتذكر، احمر وجهها وارتعشت شفتها السفلي. دفنت وجهها بين يديها. كانت أول مرة أراها فيها تبكي منذ مدة طويلة جدًا.

«أنا أفضل الآن يا ماما. لا تبكي».

قالت: «أعرف. أعرف. كم أنا سخيفة!» ثم استطردت: «أوه، لقد كنتِ مجنونة تمامًا. لقد دخلتِ إلى مطعم وطلبتِ الطعام بلهجة آمرة. رغم أني لا أعتقد أن ذلك يعد اختلافًا كبيرًا عن شخصيتك الطبيعية».

ضحكنا. للحظة خاطفة، أمكنني تصور الطاولات في المطعم وصورة مشوشة لرجل يقف خلف منضدة الحساب وهو يناولني القهوة. هذه الصورة التي استعدتها كانت بمثابة تلميحًا ساخرًا لأصداء كل اللحظات الأخرى التي نسيتها ولن أستعيدها أبدًا.

كانت تلك اللحظة تتخطى حدود استعادة ذكرى. كانت نقطة التحول التي جعلت أمي تعترف أخيرًا كم كانت خائفة، وباحت لي من بين دموعها بأنها لم تكن دائمًا واثقة أن حالتي ستتحسن. ومن خلال هذا الموقف البسيط التلقائي، أخذت علاقتنا منحنى جديدًا. صارت مرة أخرى صديقتي المقربة ورفيقتي المخلصة وداعمتي الأولى. تطلب الأمر منها تقبّل فكرة اقترابي من الموت (وهذا شيء كان مستحيلًا قبل تلك اللحظة، فقد كانت آلية تماسكها ونجاتها من الانهيار تعتمد على إنكار ذلك) كي نتمكن أخيرًا من المضي معًا إلى الأمام.

(42)

دعابة لا نهائية

بعد أربعة شهور من خروجي الأول من المستشفى، انتهى عقد إيجاري للشقة في كيتشن هيلز. لم يعد تأميني للإعاقة، والذي خُفّضت قيمته إلى النصف بعد أن حولوه من تأمين قصير الأجل إلى طويل الأجل، كافيًا لتغطية تكاليف الإيجار. لذا قابلني أبي هناك في صباح يوم ما لأنهي صفحة حياتي القديمة، وأفسح الطريق لحياة جديدة غير واضحة المعالم.

كانت العمارة المبنية بالطوب الأحمر كما هي دائمًا، بجهاز الاستدعاء المعطل، ورسوم الغرافيتي المبعثرة على واجهتها، ولافتة «غير مسموح بالدخول دون استئذان» على بابها. تراكمت أكوام من الرسائل التي تنتظر أن تُفتح في صندوق البريد. مر بنا حارس العمارة، وهو رجل بدين في منتصف العمر له لكنة إسبانية غليظة وقال بسرعة: «كيف حالك؟» كما لو أنني لم أترك شقتي لعدة أشهر. ربما لم يلاحظ غيابي حقًا.

صعدت وأبي السلالم بجوار ورق الحائط الأصفر المائل للرمادي الممزق في أكثر من موضع. كان كل شيء مألوفًا للغاية لدرجة أنني توقعت أن أجد قطتي داستي ما تزال هناك في انتظاري رغم علمي أن صديقتي جينجر قد أخذتها لتعتني بها منذ شهور. حزمت وأبي أكوامًا من الشرائط والملابس الشتوية والكتب والأواني والمقالي وملاءات السرير. أثناء عملية التنظيف،

تعطل جهاز التكييف فلم نستطع تحمل حرارة مانهاتن الأشبه بفرن في يوليو. لذا غادرنا وعدنا في اليوم التالي في قلب الحرارة الخانقة كي ننهي ما بدأناه.

هنالك عبارة كتبتها في مذكراتي بخصوص تفريغ شقتي من محتوياتها. كانت عبارة صادمة لحد ما، مثل معظم العبارات الافتتاحية في يومياتي التي كتبتها مبكرًا في حياتي.

«لقد ساعدني والدي على حزم أمتعتي من شقتي. (وداعًا للحياة بمفردي)».

في هذه العبارة القصيرة عبرت عن شعور الإحباط الذي انتابني ليس فقط لأني اضطررت إلى نبذ حياتي المكتفية ذاتيًا، بل كان عليّ التخلي عن شقتي الحقيقية الأولى، رمز حياتي البالغة التي نُسيت في خضم المرض. العيش في بيت والديّ لشهور قليلة، وأنا أعرف أنني أملك مكانًا خاصًا بي لا يفصلني عنه سوى رحلة بالقطار، كان أمرًا يسهل استساغته. لكن الآن صار بيتي الوحيد هو بيت أمي. كان الأمر أشبه بعودة كاملة إلى الطفولة. حياة الحرية التي عشتها في مانهاتن قد انتهت، على الأقل في الوقت الراهن.

الواقع الصادم هو أنني لم أعد قادرة على العيش بمفردي. كانت حقيقة فهمتها لكن رفضت مواجهتها. بدلًا من ذلك ركزت على تنظيم مستقبلي. بدأت أكتب قوائم بأسماء أشخاص ساعدوني أثناء مرضي وأريد شكرهم، ومشاريع وخطط أردت البدء بتنفيذها، وعناوين مقالات أود يومًا كتابتها.

كل يوم كنت أضع خطة ليومي كانت تشمل أتفه الأمور مثل «المشي إلى المدينة» أو «قراءة الجرائد» لكي أستمتع في نهاية اليوم بإحساس الرضا حين أشطبها كعمل منجز. كانت تلك تفاصيل صغيرة لكن مهمة جدًا لأنها كانت تؤكد أن فصي الجبهي المدير التنفيذي لدماغي قد بدأ يُشفى.

بدلًا من حضور جلسات إعادة التأهيل الذهني التي نصحتني بها الطبيبة، قررت الدراسة من أجل اختبار الالتحاق بالجامعة. آمنت لمدة من الزمن أن الكلية قد تكون الخطوة التالية في قدري المعتم. اشتريت عدة كتب إرشادية لتساعدني على الاستعداد للامتحان. دونت كل كلمة أقرأها لا أعرف معناها على بطاقة تذكير، ثم أمر عليها بعيني وأعيد كتابة الكلمات التي لم أستطع تذكرها. استهلك ذلك صفحات وصفحات من مذكرتي لأني لم أعد قادرة على تخزين كلمات جديدة في ذاكرتي كما اعتدت أن أفعل من قبل.

بدأت أيضًا قراءة رواية ديفيد فوستر والاس[1] الدستوبية التي تتجاوز الألف صفحة «دعابة لا نهائية» لأني تذكرت أن أستاذًا ذائع الصيت قد علت وجهه الصدمة حين قلت له إنني لم أقرأها بعد. بدأت أقرأ الرواية، والقاموس في متناول يدي، وأتوقف من حين لآخر عند كلمة كي أبحث عن معناها. حفظت ملفًا يضم كل الكلمات التي احتجت إلى معرفة معناها في الكتاب. ما تزال الكلمات التي اخترتها غامضة بالنسبة إليّ حتى الآن، لكن كانت أيضًا كلمات موحية وكاشفة بشكل غريب.

«effete» (صفة): غير مثمرة؛ فقدت شخصيتها، وقوتها وحيويتها؛ تتسمم بالضعف أو التفكك.

«teratogenic»[2] (صفة): له علاقة بالتشوهات الخَلقية أو يُسببها.

«lazarette» (اسم): حجرة الحجر الصحي.

1- ديفيد فوستر والاس: روائي وكاتب قصة ومقالات. كان يتميز أسلوبه بالغرائبية. تعتبر أشهر أعماله عمله الضخم دعابة لا نهائية وإنه ماء. مات منتحرًا عام 2008.

2- نلاحظ التشابه بين الكلمة وبين كلمة تيراتوما (الورم المسخي) وكأن العقل الباطن لسوزانا جعلها تنتقي كلمات لها علاقة بمرضها. (المترجم).

رغم اهتمامي الشديد بالكلمات، ولكن عندما كان الناس يسألونني عن قصة الرواية، كان عليّ أن أعترف: «لا أملك أي فكرة».

***

صرت مهتمة جدًا بحالتي الجسدية. كتاباتي في مذكراتي التي تعود إلى هذه المدة تعكس هوسًا متزايدًا بمقدار الوزن الذي زدته. كانت بطني المتدلية للأمام وفخذاي المترهلتان وخداي المنتفخان تثير اشمئزازي. حاولت دون جدوى أن أتجنب النظر إلى صورتي على أي سطح عاكس. عادة ما كنت أجلس خارج ستاربكس وألقي نظرة على الأنماط المختلفة من النساء المارات في الطريق، وأفكّر: «أريد فخذيّها» أو «لا مانع لدي في أن أستبدل جسمي بجسمها» أو «أتمنى لو كان لي ذراعاها». وصفت نفسي في افتتاحية مذكراتي بـ: «الخنزيرة التي تُسمّن للشواء» ساخطةً من شكل جسمي، واصفةً وجهي المنتفخ «بالمقزز». كتبت يوم 16 يونيو: «جسمي يجعلني أشعر بالغثيان».

بلا شك زاد وزني كثيرًا بعد خروجي من المستشفى حيث كان وزني البالغ وقتها مائة وعشرة أرطال هزيلًا بشكل غير طبيعي (بالنسبة إلي). لم يمض سوى ثلاثة أشهر حتى زدت خمسين رطلاً. عشرين كنتيجة طبيعية للتعافي، وثلاثين نتيجة الأعراض الجانبية للستيرويدات والأدوية المضادة للذُهان، بالإضافة لنمط حياتي الخامل وانغماسي الدائم في ملذات الآيس كريم بنكهة الشوكولاتة والنعناع. حوّلت الستيرويدات وجهي إلى بدر مكتمل، وصار أقرب إلى وجه السنجاب فبت لا أكاد أتعرف على نفسي في المرآة. بدأت أخشى ألا أتمكن من فقدان الوزن ثانية، وأن أبقى سجينة هذا الجسم الغريب. كانت المشكلة سطحية جدًا - وإن كانت أكثر استفزازًا - مقارنة بمخاوفي الحقيقية من أن أُحبس داخل عقلي المريض. أدرك الآن أن

تركيزي على التغير في جسمي كان نابعًا من عدم رغبتي في مواجهة مشاكلي الذهنية التي كانت أكثر تعقيدًا وخطورة من مجرد أرقام على ميزان.

بينما كان ينتابني القلق من أن أصبح بدينة للأبد ومشوهة في عيون المقربين لي، كنت في الحقيقة قلقة بخصوص الشخصية التي سأكونها: هل سأكون بطيئة وكئيبة وعنيدة وغبية كما أشعر الآن، لبقية حياتي؟ هل سأستعيد يومًا اللمعان والتوهج الذي كان يميز شخصيتي؟

في ظهيرة نفس اليوم الذي كتبت فيه تلك الافتتاحية في مذكراتي، مشيت خمس عشرة دقيقة من البيت إلى وسط مدينة سوميت لأعزز من اعتمادي على ذاتي وأمارس بعض الرياضة. رغم أن ساقيّ كانتا تؤلماني عندما أمشي، إلا أنني صممت على القيام بالرحلة إلى المدينة بمفردي. أثناء سيري، حدق بستاني نحوي فوضعت يدي غريزيًا على البقعة الصلعاء كي أخفيها عن ناظريه قبل أن أدرك أني أرتدي عصابة رأس. إذًا ما الذي كان يحدق هذا الرجل نحوه؟ لاحقًا، خطر ببالي أنه كان يتأمل جسدي بشهوانية. بالتأكيد لم أكن أبدو في أفضل حالاتي، لكن في النهاية ما زلت امرأة. وللحظات عابرة عزز تفكيري هذا الشذرات المتبقية من ثقتي المهتزة بنفسي.

التحقت بفصل تمرين رياضة السبيننج [رياضة الدراجة الثابتة] كي أحل مشكلة «متلازمة الخنزيرة المشوية»، ووجدت نفسي على دراجة بجوار مدربة فريق الهوكي في مدرستي الثانوية التي ظلت تراقبني وهي تحاول أن تعدل من جلستي على الدراجة كلما ملت قليلًا. تجنبت نظراتها وملت بعنقي لليمين، فوقعت عيناي على فتاتين من المدرسة الثانوية تركبان دراجتين. تساءلت إن كانتا تضحكان من ورائي على بدانتي، أو إن كانتا تسخران من سكني في بيت والديّ في هذا السن. انتابني شعور غريب بالخزي لكن في ذلك الوقت لم أستطع أن أعرف السبب المحدد لهذا الشعور. الآن أعتقد أن هذا الخزي

نبع من محاولتي خلق توازن هش ومؤقت بين خوفي من الضياع وقبولي لهذا الضياع. نعم، استعدت قدرتي على القراءة والكتابة، وصنع قوائم بما عليّ فعله، لكني فقدت ثقتي وإحساسي بذاتي. من أنا؟ من الشخص الذي ينكمش خوفًا وخجلًا في مؤخرة فصل السبيننج، متجنبًا نظرات الآخرين؟ هذا الشك في حقيقة ذاتي وحيرتي بخصوص المكان الذي وصلت إليه بالتحديد في مسار مرضي وتعافي منه، كان مصدرًا أعمق للشعور بالخزي. جزء مني آمن بأنني لن أكون نفسي مجددًا أبدًا، سوزانا الواثقة والمفعمة بالحيوية.

***

«كيف حالك؟» استمر من حولي في سؤالي.

كيف حالي؟! لم أعد أعرف حتى من كانت «أنا» من قبل.

بعد أن أفرغت شقتي من كل محتوياتها، أحضرت البريد الذي لم أقرأه معي إلى البيت لكن لم أقرأ أي رسالة إلا بعد مرور بضعة أسابيع. وسط أكوام الفواتير والرسائل التقليدية، وجدت مظروفًا مرسلًا من العيادة التي أجريت فيها أول رنين مغناطيسي قبل دخولي إلى المستشفى في مارس. داخله كان خاتم الهيامتيت الذهبي الضائع منذ مدة طويلة، خاتم حظي.

أحيانًا، ترسل لنا الحياة إشارات عندما نحتاج إليها من خلال تفاصيل صغيرة. عندما تعتقد أنك فقدت كل شيء، فإن الأشياء التي تحتاج إليها بشدة تعود إليك فجأة ومن دون توقع.

(43)

NMDA

بينما كنت أستعيد المزيد والمزيد من قدراتي الذهنية وسماتي الشخصية القديمة، وأبدأ في إعادة دمج نفسي بشكل كامل مع العالم الخارجي، بدأت أعتاد على سؤال الناس المتكرر عن مرضي النادر والمدهش. لم أحاول أبدًا نطق اسمه، وكنت أكتفي بترديد التفسير الذي سمعت والديّ يكررانه كثيرًا.

«جسمي هاجم دماغي».

لكن عندما راسلني بول رئيسي المباشر في ذا بوست كي أشرح له طبيعة مرضي، قررت أن أبدأ بتلخيص ما حدث لي على الورق. بدت لي كمهمة صحفية. ولأول مرة شعرت بقدرتي على الوصول إلى إجابة.

كتب بول: «جميعنا نريد عودتك إلى العمل! يا إلهي! أبدو مثل جاكسون فايف. إذًا ما كان مرضك بالتحديد؟» هكذا اختتم رسالته عبر البريد الإلكتروني.

كان غريبًا ومريحًا في الوقت نفسه أن أسمع صوتًا من مدة ما قبل مرضي. تنقسم حياتي الآن إلى «قبل» و «بعد» بطريقة لم تشهدها أبدًا. كنت مصممة على منحه جوابًا شافيًا.

صحت كي تسمعني أمي: «ما اسم مرضي ثانية؟».

أجابت وهي تصرخ أيضًا: «التهاب المخ الذاتي المناعة NMDA».

كتبت NMDA في شريط البحث. ظهر لي «مخلفات صناعية». فقلت صارخة: «ما هو الاسم ثانية؟»

دخلت أمي إلى المطبخ وهي تقول: «التهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA».

كتبت في خانة البحث المصطلح الصحيح. ظهرت لي صفحات قليلة معظمها مقتطفات مقتبسة من مقالات نُشرت في دوريات طبية لكن لا صفحة ويكيبيديا للمرض. بعد أن تصفحت عدة مواقع، عثرت على مقال في عمود «التشخيص الطبي» في مجلة نيويورك تايمز عن المرض، يؤرخ لحالة امرأة عانت من نفس أعراضي لكن كانت مصابة بالورم المسخي «التيراتوما». بعد يوم من إزالة الورم، استيقظت المرأة من غيبوبة، وبدأت تتكلم وتضحك مع أفراد أسرتها. تفسير العلاقة بين الجهاز المناعي والدماغ كان مُحيرًا بالنسبة لي. هل المرض مرض فيروسي؟ (لا) هل يسبب المرض عاملٌ بيئي؟ (ربما، جزئيًا). هل هو مرض يمكن أن تورثه لأطفالك؟ (غالبًا، لا). توالت الأسئلة بشكل لا نهائي لكني أجبرت نفسي على التركيز. في النهاية أرسلت إلى بول ملخصًا في فقرة عن مرضي، وختمته قائلة: «عشت شهرين مجنونين، هذا أقل وصف يمكنني استخدامه. أعرف الآن جيدًا كيف يكون حال الإنسان عندما يجن».

رد بول قائلًا: «رسالتك أشبعت الكثير من فضولي»، ثم أضاف: «وهل تدركين أن حس دعابتك ومهارتك في الكتابة قد عاد؟ أعني ذلك حقًا. يمكنني أن أرى تحسن حالتك من خلال قراءة الإيميلات ورسائل الهاتف التي تعود إلى مدة مرضك، وأقارنها بالآن. الفرق كالفرق بين الليل والنهار».

أسعدتني قدرتي الجديدة على شرح حالتي المرضية، فبدأت أبحث عن مرضي بالتفصيل، وصرت مولعة بفهم كيف يمكن لأجسادنا أن تقترف

مثل تلك الخيانة التي لا تغتفر. شعرت بالسخط الشديد عندما اكتشفت أن ما لا نعرفه عن المرض أكثر بكثير.

***

لا أحد يعرف لماذا يصيب هذا المرض الأشخاص غير المصابين بالتيراتوما، ولا يوجد فهم واضح للعامل الذي يحفز المرض. لا نعرف ما مدى تأثير البيئة على المرض، وما مدى تأثير الجينات. تشير الدراسات إلى أن سبب الأمراض ذاتية المناعة بيئي في ثلثي الحالات، وجيني في الثلث المتبقي. إذًا هل رجل الأعمال الذي عطس في وجهي في عربة قطار المترو هو من تسبّب حقًا في انطلاق تلك السلسلة الرهيبة من ردود الفعل؟ أم أنه شيء آخر في البيئة المحيطة بي؟ كنت مواظبة على استخدام لاصقة منع الحمل في المدة التي سبقت ظهور الأعراض الأولى للمرض، هل يمكن أن تكون هذه اللاصقة هي من نشطت المرض؟ رغم أن د. دالماو ود. نجار استبعدا هذا الاحتمال، إلا أن طبيب النساء الخاص بي قرر أن يأخذ حذره ورفض أن يجعلني أستخدم اللاصقة ثانية. هل يمكن أن تكون قطتي العزيزة هي المحفزة؟ أنجيلا التي تبنت القطة مني قالت لي إن القطة داستي قد شُخّصت بالتهاب في الأمعاء، وأن سبب هذا الالتهاب هو غالبًا مرض ذاتي المناعة. هل هذه محض صدفة أم أن كلتانا نقلت للأخرى شيئًا تسبب في إثارة جهاز المناعة لدينا؟ أم أن هنالك شيئًا خبيثًا غامضًا كان يحوم حول شقتي الفوضوية في كيتشن هيلز؟ غالبًا لن أعرف السبب. لكن الأطباء يؤمنون أن السبب قد يكون مزيجًا من عامل خارجي مثل العطسة أو وسائل منع الحمل أو مادة سامة في مكان الإقامة، وميل جيني إلى إنتاج تلك الأجسام المضادة العدوانية. لسوء الحظ، ونظرًا لاستحالة معرفة السبب بالتحديد، فالوقاية

من المرض ليست هدفًا، وبدلًا من ذلك فإن التركيز يكون على التشخيص المبكر ثم العلاج السريع.

تحيط المزيد من الألغاز بالمرض. لا يعرف الخبراء لماذا يمتلك أشخاص معينون هذه الأجسام المضادة الغريبة دون غيرهم، أو لماذا قررت أن تهاجمني في ذلك الوقت المعين من حياتي. لا يمكنهم معرفة كيف تعبر الأجسام المضادة الحاجز الفاصل بين الدم والمخ BBB أم كيف تُصنّع تلك الأجسام داخل المخ. ولا يمكنهم فهم سبب تعافي بعض الحالات بشكل كامل، بينما تموت حالات أخرى، أو تستمر في المعاناة بعد تلقي جرعة العلاج الكاملة.

اكتشفت أن معظم الحالات تنجو. رغم أن هذا المرض تجربة أشبه بالجحيم، إلا أنه يتفرد عن غيره مقارنة بالتهابات المخ المميتة والأمراض المناعية المدمرة. من الصعب أن تجد مثالًا آخر حيث يدخل المريض في غيبوبة، ويدنو للغاية من الموت، يمكنه حتى أن يقضي شهورًا في العناية المركزة، لكن في النهاية يستيقظ وهو لم يصب سوى بأذى طفيف أو ربما دون أن يصاب بأي أذى على الإطلاق.

أحد الأشياء التي علمتني إياها هذه التجربة يومًا بعد يوم هي كم أنا إنسان محظوظة. التوقيت المناسب، المكان المناسب، مستشفى نيويورك الجامعي، د. نجار، د. دالماو. بدون هذه الأماكن وهؤلاء الناس ما كان سيصبح مصيري؟ ماذا لو أصابني المرض قبل ثلاث سنوات (وهو أمر كان واردًا)، قبل أن يتعرف د. دالماو على الجسم المضاد، ماذا كان سيحدث لي؟ (ماذا حدث لمن أصيب بالمرض قبل ثلاث سنوات؟!!) مجرد ثلاث سنوات هي الخط الفاصل بين حياة كاملة ونصف حياة في معهد طبي أو دار رعاية أو ربما أسوأ؛ نهاية مبكرة في تابوت بارد صلب.

(44)

عودة جزئية

خفّض د. نجار جرعة الستيرويدات، ووصف لي جرعة من علاج الـIVIG تُأخذ في البيت مرتين في الأسبوع بمجرد أن وافقت شركة التأمين أخيرًا على السماح بتلقي العلاج في البيت. كانت تصل ممرضة في منتصف النهار لتغرز إبرة في وريدي، وتوصلها بأكياس الأميونوجلوبيولين لمدة ثلاث إلى أربع ساعات. بين يوليو وديسمبر أخذت اثنتي عشرة جرعة وريدية.

واصلتُ مراسلة بول خلال شهر يوليو. كان دائمًا ما يكرر سؤاله كل بضعة أيام عن الموعد الذي أخطط فيه للعودة إلى العمل. في النهاية اتفقنا أن أفضل حل هو مروري بشكل عابر على مكاتب ذا بوست، وإلقاء التحية على الزملاء دون أي ضغوط أو شروط مسبقة. حددنا لذلك موعدًا في منتصف يوليو.

أتذكر النشاط الذي شعرت به بينما أجفف شعري وأضع المكياج وأزيل الشعر الزائد من حواجبي. كانت المرة الأولى التي أفعل ذلك منذ مرضي. ثم وقفت أمام الدولاب وبحثت في ثنايا ملابسي البائسة، ملابس قليلة فقط تلك التي ما تزال تناسب جسمي، فقد استقررت في مرحلة «الخنزير الذي يُسمّن للشواء». لذا اخترت فستانًا أسود فضفاضًا يخفي الزيادة في وزني. قادني أخي بالسيارة إلى المحطة حيث استقليت القطار لوحدي لأول مرة

منذ خروجي من المستشفى إلى المدينة. من محطة بان، مشيت إلى مبنى الجريدة في طقس منتصف الصيف الحارق. لكن عندما وصلت أمام مبنى الأخبار الشاهق، المكان الذي عملت فيه منذ كنت مراهقة، شعرت بدفقة الأدرينالين التي كانت تسري داخلي تغادر جسمي، وتتركني خائرة القوى. فكرت: من المبكر جدًا اتخاذ هذه الخطوة. أنا لست مستعدة.

لذا راسلت بول وأخبرته أن يقابلني وراء المبنى. لم أملك أي فكرة وقتها لكن بول كان متوترًا مثلي، وقلقًا كيف سأكون بعد مرضي وكيف يجب عليه التعامل مع سوزانا الجديدة هذه. كانت أنجيلا قد زارتني مؤخرًا في سوميت، وأخبرته أنني قد تحسنت كثيرًا لكن ما زال ثمة فرق شاسع بيني وبين الزميلة التي اعتادوا العمل معها.

عندما خطا بول خارج الباب الدوار للمبنى، وقعت عيناه علي، ولاحظ فورًا التغير الذي طرأ على جسمي. فكر: إنها تبدو كملاك صغير، كنسخة عمرها عشر سنوات منها.

قال وهو يحتضنني: «صدقًا، كيف حالك؟».

سمعت نفسي تجيب: «بخير». كنت متوترة جدًا لدرجة لم أستطع التركيز إلا على العرق الذي ينساب أسفل ظهري، تمامًا كما حدث عندما صادفتُ كريستي مع أمي، لكن هذه المرة لم يكن هنالك شخص آخر لينقذني ويُبقي الحوار دائرًا. كانت الصعوبة مضاعفة لدي في تركيز النظر على عينيه، ناهيك بإقناعه بأني سأكون جاهزة قريبًا للعودة إلى العمل. ألقى بعض النكات وتحدث عن العمل، لكن لم أستطع مسايرته في الكلام. لاحظت أنني أضحك في أوقات غير مناسبة، ثم لا أضحك حين يصل إلى الجزء المضحك فعليًا من النكتة. كنت متأكدة أنه يحاول بأقصى قوته أن يبدد فترات الصمت المُربكة من خلال الحفاظ على جو زائف من المرح، لكن كان يعاني مثلي.

حالتي كانت صادمة أكثر مما توقع.

قلت عرضًا على أمل أن أقدّم تفسيرًا لشخصيتي المتغيرة: «ما زلت أتناول الكثير من الأدوية. حين يأتي وقت عودتي إلى العمل سأكون قد توقفت عن تناول معظمها»

«عظيم. مكتبك جاهز لعودتك في أي وقت. هل تودين الصعود وإلقاء التحية على الجميع؟ أعرف أن زملاءك يفتقدونك».

قلت وأنا أوجه نظري للأرض: «لا، سأفعل ذلك في يوم آخر. لست مستعدة الآن».

تعانقنا ثانية. رأيت بول يختفي وراء الباب الدوار.

عندما صعد، توجه مباشرة إلى مكتب أنجيلا. قال: «هذه ليست سوزانا التي أعرفها». كان في موقف لا يُحسد عليه. كصديق كان قلقًا للغاية بخصوص شفائي ومستقبلي، لكن كرئيسي لم يستطع منع نفسه من التساؤل إذا كنت سأصبح قادرة يومًا على العودة إلى أداء مهامي التحريرية.

***

مع ذلك، بعد أسبوعين من لقائي المقتضب مع بول، اتصلت بي ماكينزي من أجل مقال لصفحة التسلية والمنوعات «Pulse» في الجريدة. عندما سمعت صوتها تذكرت آخر حوار بيننا، في تلك الليلة في سوميت عندما فشلت في كتابة مقال عن فرقة الرقص قبل مدة وجيزة من بداية نوبات الصرع. صاحب تلك الذكرى إحساس مقزز بالفشل. لكن سرعان ما تحول الاشمئزاز إلى سعادة حين أدركت أنها تتصل من أجل تكليفي بمهمة صحفية جديدة.

«أريدك أن تكتبي عن آداب استخدام فيسبوك[1]».

ربما لم أكن مستعدة لرؤية كل زملائي في العمل، لكني لم أفوت فرصة كتابة مقال. قضيت أسبوعًا أعمل بجنون على المقال، وعاملته بنفس أهمية فضيحة وترجيت. اتصلت بمصادرنا، وأصدقاء، ورجال صحافة لأحصل على وجهة نظرهم في الموضوع. لكن بمجرد أن وضعت كل ملاحظاتي معًا في ملف واحد، وجدت نفسي أحدق في مؤشر الكتابة الذي يظهر ويختفي، عاجزة عن تصور بداية للمقال. ذكرى المقال الذي فشلت في كتابته قبل بداية مرضي زادت من حدة سدّة الكاتب. هل سأتمكن من الكتابة مرة أخرى في حياتي؟

بعد حوالي ساعة من جلوسي أمام الشاشة البيضاء، بدأت الكلمات تأتيني، ببطء في البداية ثم بسرعة كنافورة. كانت كتابتي رديئة، وتحتاج إلى الكثير من التعديل لكني تمكنت من وضع أصابعي على لوحة المفاتيح ولا شيء في العالم يمنحني شعورًا أفضل من ذلك.

في 28 يونيو نُشِر مقالي في باب التسلية والمنوعات «Pulse» في ذا بوست بعنوان «دعوة للوقاحة». أتذكر قيامي برحلة خصيصًا للمدينة كي أشتري الجريدة في ذلك اليوم، وإشراقة وجهي فخرًا عندما فتحت الجريدة ورأيت مقالي داخلها. بالطبع نُشرت مئات المقالات لي من قبل، لكن هذه المقالة بالتحديد عنت لي أكثر من أي مقالة أخرى. أردت جعل الجميع يرون المقالة بدءًا من باريستات ستاربكس الذين قدموا لي القهوة طوال الصيف، مرورًا بالفتيات اللاتي يركبن الدراجات بجواري في تمرين السبيننج، وحتى السيدة التي سألت أمي في الحفل إن كنت سأستعيد توهجي يومًا. كان هذا المقال

1- في 2009 كان فيسبوك في بداية تحوّله من موقع محلي إلى الموقع العالمي الذي صار عليه الآن. (المترجم).

هو خلاصي. صيحتي في وجه العالم: لقد عدت! لم أكن متحمسة لمقال مثل ذلك المقال في مشواري المهني كله. قررت في تلك اللحظة: لن أتخرج من الجامعة بل سأعود إلى العمل.

***

بعد ما يزيد على الأسبوع، استجمعت شجاعتي وذهبت إلى ذا بوست كي أعرف بشكل عام ما حدث في مدة غيابي. كان بول وأنجيلا غير موجودين في الجريدة لذا نزلت ماكينزي لتدخلني إلى المبنى. كانت بطاقتي الصحفية قد اختفت في مكان ما خلال المدة المعتمة لإقامتي في المستشفى التي لا أتذكر منها شيئًا. لذا أدّت ماكينزي دور المرشد والحارس لي أثناء تلك الزيارة. رافقتني إلى حجرة الأخبار في الطابق العاشر، وهي تشعر أنها تصطحب طفلة في يومها الأول في الحضانة. أخذت نفسًا عميقًا، وعدلت من فستاني الفضفاض الأسود، نفس الفستان الذي كنت أرتديه في زيارتي السابقة التي أُجهضت قبل أن تكتمل، ثم خطوت إلى داخل الحجرة. لم يلاحظ أحد دخولي. كان تركيز الجميع منصبًا على مباراة اليانكيز وريد سوكس. قادتني ماكينزي متجاوزين مكتبي القديم في طريقنا إلى مكتب ستيف.

قالت ماكينزي لستيف: «انظر من أتى إلى هنا!»

رفع ستيف رأسه عن شاشة حاسوبه. بدا من الواضح أنه لم يتعرف علي في البداية، ثم سارع لقول «مرحبًا» دافئة لكن لا تخلو من ارتباك.

«إذًا متى تنوين العودة إلى العمل؟»

احمر وجهي. «قريبًا، قريبًا حقًا».

نقلت وزن جسمي بتوتر من قدم إلى أخرى، محاولةً أن أفكر في أي شيء

أقوله لكن خذلتني الكلمات. عندما مشيت مغادرة مكتبه، كان وجهي ما يزال مخضبًا بالأحمر من الحديث القصير المُرتبك. بدأ عدد من المحررين الذين كانوا يعملون معي في تحرير عدد الأحد من الجريدة في التجمع حولي. لم أتحدث مع أي منهم منذ أكثر من ستة شهور. ورغم أن عددهم لم يكن يزيد عن الستة، شعرت كأنهم حشد متجمهر. انتابني فجأة شعور برهاب الأماكن المغلقة، وتدفق عرقي. كان من الصعب التركيز على أي شيء لذا نظرت لأسفل نحو قدمي. عانقتني المحررة سجو، التي تعتبر رمز الأمومة في حجرة الأخبار، عناقًا قويًا، ثم أبعدت جسمها عني، وهي تقول بصوت مرتفع كي يسمعها الآخرون.

«لماذا أنت متوترة؟ نحن جميعًا نحبك».

كانت اللفتة طيبة لكن جعلتني أكثر إدراكًا لذاتي ولطبيعة الموقف. هل من الواضح لهذه الدرجة مدى عدم ارتياحي وتوتري؟ بدا أن لا حاجز يفصل بين ما أشعر به وما هو ظاهر للعيان. فجأة، انتابني شعور جارف أني عارية عاطفيًا أمام جميع زملائي وأصدقائي. شعرت كفأرة تجارب، كأن أحشائي تتمزق وتُعرى في انتظار أن تخضع للتشريح. خطر ببالي هذا السؤال: هل سأشعر مرة أخرى بالارتياح في حجرة الأخبار هذه التي شهدت ولادة مشواري المهني؟

(45)

الأسئلة الخمسة

في النهاية، عدت إلى الجريدة لكن لم يحدث هذا قبل سبتمبر، بعد شهر من عودتي الجزئية، وبعد حوالي سبعة أشهر من انهياري في العمل وبداية المرض. أتذكر موافقتي باستسلام على اقتراح إدارة الموارد البشرية في ذا بوست بأن أعود إلى العمل تدريجيًا، وبدوام جزئي لأيام قليلة في الأسبوع. لكن بدلًا من تنفيذ الاقتراح، قفزت مباشرة عائدة إلى مهام عملي كما لو أنني لم أنقطع عن العمل لشهور.

لسنوات، كنت أسعى وراء أهدافي كعداء في مارثون، أسرع لإنجاز مهامي الصحفية، وأهرول إلى مترو الأنفاق كي أصل إلى العمل في الموعد، عيناي مركزتان على الخطوة التالية في مشواري المهني. الآن أتيحت لي الفرصة للتوقف والتقاط الأنفاس وإعادة تقييم أهدافي، لكن كل ما أردته هو مواصلة المضي للأمام.

لحسن الحظ، سهّلت ذا بوست عليّ الوقوف على قدمي من جديد. كما وعدني بول، ظل مكتبي كما هو دون أن يُمس، كانت كل كتبي ومستنداتي -وحتى كوب ورقي قديم -هناك حيث تركتها.

كانت أول مقالتين كتبتهما بعد عودتي من نوعية المقالات المختصرة التافهة نسبيًا: الأولى عن أكثر ساقية حانة جاذبيةً في نيويورك، والأخرى

تمثل لمحة قصيرة عن حياة مدمن مخدرات كتب مذكراته حديثًا. كنت اندمج ببطء في مهام الكتابة والتحرير اليومية. لكن لم أهتم. كنت متحمسة لعمل أي شيء. كان هذا النهم الشديد مناقضًا تمامًا لأدائي الباهت قبل مغادرتي العمل منذ سبعة شهور، عندما لم أمتلك الحيوية حتى لإجراء حوار مع جون والاش. الآن أتعامل مع أي مقالة مهما بدت عديمة الأهمية بحماسة وشغف شديدين.

رغم أن زملائي كانوا يمشون حولي «على قشر البيض» كما يقول المثل، إلا أنني لم ألاحظ ذلك. كنت مركزة تمامًا على مستقبلي - على اسمي الذي يعلو كل مقالة أكتبها، وعلى مهمتي الصحفية التالية - لدرجة أنني لم أستطع أن أدرك تمامًا ما كان يجري من حولي.

ولأني لم أكن قادرة على الكتابة بنفس السرعة التي كنت أكتب بها قبل مرضي، كنت أسجل معظم الحوارات. عندما أستمع إلى الحوارات الآن، أسمع صوتًا غير مألوف يوجّه الأسئلة. كان هذا الصوت يتحدث ببطء وتثاقل، وأحيانًا يتلعثم في الكلام. بدوت وكأنني سكرانة.

كانت أنجيلا تؤدّي دور حارستي الشخصية، فلا تكف عن مساعدتي برحابة صدر في إعداد مقالاتي دون أن تجعل الأمر يبدو أنني أحتاج إلى المساعدة.

كان بول يستدعيني إلى مكتبه وهو يحرّر مقالتي، وكأنه يعلمني الأسئلة الخمسة[1] الشهيرة في الصحافة من جديد.

مضى أسبوع قبل أن أقرر أخيرًا فتح الرسائل البريدية والإلكترونية التي

1 - الأسئلة الخمسة التي يجب أن يسألها أي صحفي أثناء كتابة مقال صحفي خبري: من؟ ماذا؟ أين؟ متى؟ لماذا؟ وأحيانًا يضاف إليها كيف؟.

تراكمت طوال سبعة شهور. كرِهت التفكير في ردة فعل مصادري الصحفية عندما لم يتلقوا ردًا مني خلال مدة مرضي. هل ظنوا أنني قد غيّرت مهنتي أو انتقلت إلى وظيفة جديدة؟ هل اهتموا من الأساس؟ كانت تلك الأسئلة تطاردني بينما أتصفح الإصدارات الصحفية وأكوام الكتب المرسلة لي.

كنت مقتنعة أني عدت إلى حالتي الطبيعية بشكل كامل. في الحقيقة أخبرت د. أرسلان بذلك قبل نهاية الأسبوع الأول من عودتي إلى العمل. بحلول ذلك الوقت كنت أتناول جرعات ضئيلة من العلاج تكاد تكون تافهة. كالعادة، كنت ووالداي نجلس أمام مكتبه ليسألني سؤاله الدائم:

«كم نسبة شعورك بأنك عدتِ إلى طبيعتك؟»

هذه المرة لم أتردد، أجبت بيقين تام: «100٪». أومأ والداي برأسيهما هذه المرة موافقةً على إجابتي. أخيرًا اتفقت أمي مع تقييمي لحالتي.

قال د. أرسلان بابتسامة: «حسنًا، علي إذًا أن أقول لك إنك لم تعودي حالة مثيرة». وبهذه العبارة القصيرة أنهى مدة متابعته لحالتي. نصحني بمتابعة تناول الأدوية المضادة للتوتر والذُهان لأسبوع واحد أخير ثم أتوقف عن تناولها تمامًا، لأنني لم أعد في حاجة إليها كما شرح لي. بالنسبة إليّ عنى ذلك أنه قد أعلن تقديره العام لحالتي بأنني استعدت صحتي بشكل كامل. عانقني أبي وأمي. لاحقًا أقمنا احتفالًا هادئًا حيث تناولنا البيض واحتسينا القهوة في حافلة طعام قريبة. مع أننا كنا في حالة معنوية عالية بخصوص ما قاله د. أرسلان، في الواقع كان ما يزال أمامي طريق طويل قبل أن أعود إلى الشخص الذي كنته يومًا.

الآن يمكنني أن أقول بوضوح أنني كنت في خضم مرحلة مُبهمة جدًا من عملية التعافي، وهو أمر يدرسه د. دالماو وباحثون آخرون الآن. فسّر د. دالماو ذلك أثناء أحد حواراتنا الهاتفية:

«يعود المرضى إلى طبيعتهم وفقًا لتقييمات العائلة والأصدقاء والطبيب المعالج، لكنهم لا يعودون إلى طبيعتهم وفقًا لتقييمهم لأنفسهم. ويظل هذا الشعور عالقًا داخل المريض لمدة طويلة. التعافي يستغرق مدة قد تصل إلى سنتين أو ثلاثة، وربما حتى أطول».

ربما يتمكن المرضى من العودة إلى العمل، والاندماج في المجتمع، وربما حتى الحياة معتمدين على أنفسهم لكن يشعرون بصعوبة أكبر عندما يفعلون الأشياء التي كانوا يفعلونها بشكل طبيعي في الماضي. مما يخلف لديهم شعورًا أنهم بعيدون كل البعد عن الشخص الذي كانوه قبل المرض.

مباشرةً بعد عودتي إلى العمل سمح لي د. نجار أن أصبغ شعري، لأن الندبة التي كانت تمنع شعري من النمو مجددًا قد التئمت أخيرًا بقدر كافٍ يسمح لها بتحمل المواد الكيميائية للصبغات. ذهبت إلى صالون أروج في سوهو قرب مدخل نفق هولاند حيث صبغت المصفّفة شعري باللون الأشقر، وقصت شعر الغرة إلى خصلات ناعمة بطول العين، مائلة للجهة اليمنى، كي تغطي البقعة الصلعاء التي خلفتها الندبة. سألتني كيف أصبت بالندبة فحكيت لها جزءًا من حكايتي. تأثرت جدًا بقصتي لدرجة أنها قضت ساعة أخرى تلف شعري الخشن (غيرت الأدوية من ملمس شعري) حول رولات الشعر.

شعرت بسعادة بالغة، وأنا أهبط سلالم مترو الأنفاق في طريق عودتي إلى سوميت حتى سمعت صوتًا مألوفًا ينادي اسمي. التفت وأنا أتمنى أن أكون قد أخطأت السمع، لأجد حبيبي السابق ورائي. لم أتحدث معه منذ مدة طويلة قبل مرضي.

قال بخجل: «سمعت ما حدث لك. أنا آسف لعدم اتصالي لكن ظننت أنك لا تريدينني أن أتصل بكِ».

تجاهلت تعليقه هذا. تبادلنا قليلًا من عبارات المجاملة ثم ودّعنا بعضنا. لا بد أن هذه هي اللحظة المثالية لمصادفة حبيب سابق، مباشرة بعد خروجي من صالون التجميل.

هزّني ذلك اللقاء، وليس بالمعنى الجيد للكلمة. يمكنني أن أشعر بأسفه من أجلي، ولم يكن هنالك شيء أسوأ من رؤية الشفقة تشع من عيني حبيب سابق.

بينما كنت أعيد هذه المواجهة في ذهني مرارًا وتكرارًا أثناء انتظاري على رصيف المترو، لمحت انعكاس وجهي في القطار القادم، ولاحظت كم بدا شعري المتموج متجعدًا، وكم بدا وجهي منتفخًا وكم صار جسدي بدينًا.

هل سأشعر بالراحة من جديد داخل هذا الجسد؟ أم أن هذا الشك في النفس سيتبعني في كل مكان إلى الأبد؟ لم أعد أشبه من قريب أو بعيد المرأة الواثقة «ما قبل المرض» التي واعدها هذا الرجل في الماضي. كرهت نفسي بسبب التغيير المهول الذي طرأ علي.

(46)

لقاءات كبرى

بعد أقل من شهر من عودتي إلى عملي في ذا بوست، تلقت أمي بريدًا إلكترونيًا من مساعد د. نجار، يدعونا فيها إلى حضور محاضرته حول التهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA ضمن اللقاءات الكبرى في مستشفى جامعة نيويورك، الطقس المقدس في كليات الطب حيث يقدم الطبيب حالاته للطلبة وزملائه الأطباء.

في صباح ذلك اليوم من أواخر سبتمبر، كان القطار مزدحمًا تمامًا في طريقه من نيوجيرسي إلى وسط المدينة، ووصلنا متأخرين. ركضنا أنا وأمي وستيفن وآلن إلى قاعة المحاضرة حيث كان أبي وأنجيلا ولورين صديقتي والمحررة الإدارية لذا بوست ينتظروننا أمام المدخل.

قالت أنجيلا ونحن ندخل القاعة الكبيرة: «أعتقد أن المحاضرة قد بدأت بالفعل». كانت المقاعد المائة مشغولة بالمعاطف البيضاء والكل يشاهد بانتباه د. نجار وهو يتحدث فوق المنصة بسرعة عن «التهاب المخ الذاتي المناعة». لقد فوّتنا تقديمه للحالة «س. ك.»، وهي مريضة في الرابعة والعشرين من عمرها، لذا لم أدرك أنه يتحدث عني وهو يذكر قائمة بكل الاختبارات التي خضعت لها والتي عادت كلها سلبية: ثلاث اختبارات أشعّة رنين مغناطيسي، وتحاليل الدم والبول. أضاف أن السائل النخاعي للمريضة احتوى على عدد

أكبر من الطبيعي من خلايا الدم البيضاء ثم ناقش اتخاذه قرار إجراء خزعة المخ حين انعدمت الخيارات الأخرى.

سألت والديّ: «هل يتحدث عني؟».

أومأت أمي. «أعتقد ذلك».

انتقل د. نجار إلى صورة مُكبرة تحت المجهر لعينة من نسيج المخ التي أُخذت أثناء العملية. كانت مصبوغة بلون وردي حيث تتجمع نقط بنفسجية مائلة للزرقة حول وعاء دموي. النقط الداكنة كما شرح هي الخلايا الصمغية الدقيقة المسببة للالتهاب في الجهاز العصبي (microglia).

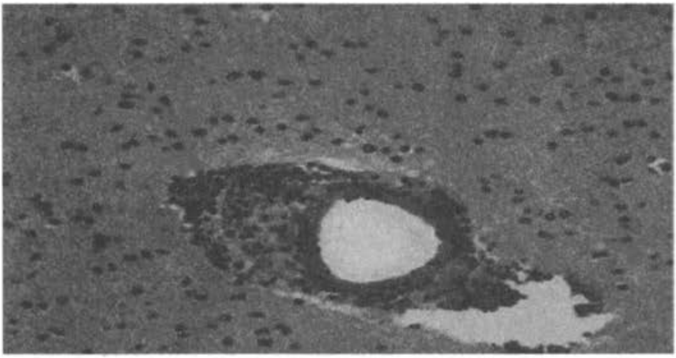

همست: «هل يتحدث عن دماغي؟».

رغم عدم فهمي لتلك الشرائح المجهرية، فإن كل ما عرفته في تلك اللحظة أن جزءًا حميميًا جدًا مني يُعرض أمام مئة إنسانٍ غريب. كم شخص في العالم يمكنه أن يقول إنه قد سمح للآخرين حرفيًا أن يُلقوا نظرة داخل رأسه؟! تحسست موضع الندبة التي خلفتها عملية خزعة المخ بينما تابع د. نجار الحديث عن نسيج مخي. انتقل إلى شريحة مجهرية أخرى، شريحة تشبه قلادة سلسلتها متصلة، ومُطعمة بأحجار كريمة من الليلك والعقيق على شكل حرف U.

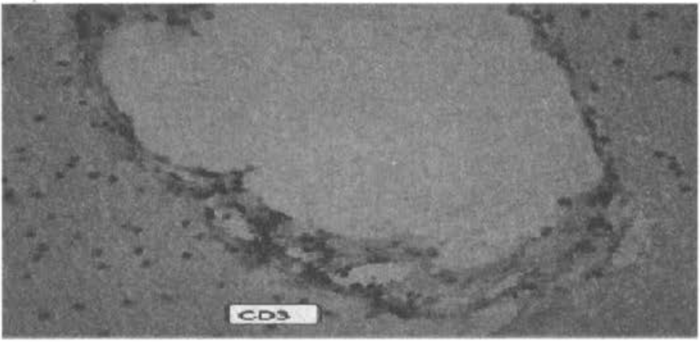

شرح د. نجار أن صورة خزعة المخ أظهرت وعاءًا دمويًا يتعرض للهجوم من الخلايا الليمفاوية. كما أشار إلى أن هنالك عددًا قليلاً - عشر أو أقل - من خزعات المخ التي تمكن الجراحون من أخذها من مرضى يعانون من التهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA، ولهذا تقدم هذه الشرائح نظرة معرفية ونادرة لدماغ مصابة بخلل نعرف القليل جدًا عنه. أنهى المحاضرة بعبارة ختامية:

«أنا فخور أن المريضة قد رجعت إلى حالتها الطبيعية، وأنها قد عادت بالفعل لعملها في صحيفة ذا بوست نيويورك».

وكزتني أنجيلا بكتفها، وابتسمت لورين بينما أشرق وجه ستيفن ووالديّ.

***

عندما عدنا إلى المكتب في الصحيفة في ذلك اليوم، ذكرت أنجيلا المحاضرة إلى محررينا ستيف وبول. انبهر ستيف بالقصة، واستدعاني إلى مكتبه.

قال ستيف: «أخبرتني أنجيلا أنها ذهبت معك إلى محاضرة حول مرضك. هل تودين كتابة مقالًا عن ذلك؟»

أومأت بشدة. كنت أتمنى أن يجد المحررون قصتي مثيرة بشكل كافٍ لكتابة مقال عنها، وكنت شغوفة لإطلاق العنان لغريزتي الصحفية، والانكباب للبحث والاستقصاء عن حالتي.

«عظيم. هل يمكنك تسليمها لنا بحلول يوم الجمعة؟»

كان اليوم هو الثلاثاء. بدا يوم الجمعة قريبًا جدًا لكن كنت مصممة أن أسلم المقال في الموعد. كان قرار مشاركتي العالم شهور الحيرة تلك التي عشتها أمرًا مثيرًا ومشوقًا لكن مرعبًا ومُربكًا. كان معظم زملائي ما يزالون جاهلين بما حدث أثناء شهور غيابي الطويلة. (بطريقة ما كنت أنا أيضًا جاهلة بذلك). كان يقلقني أيضًا أن تضيع كل الجهود التي بذلتها كي أُظهر نفسي بصفتي صحيفة محترفة في الأسابيع القليلة التي تلت عودتي للعمل. لكن كان تحديًا لا يُقاوم. الآن أملك الفرصة لكشف اللثام عن ذلك الزمن المفقود، وأثبت لنفسي أني قادرة على فهم ما حدث داخل جسمي.

مكتبة
t.me/t_pdf

(47)

طارد الأرواح الشريرة

ارتديت قبعة الصحفية من جديد، مشحونة بتلك المشاعر المتناقضة التي غزت عقلي. حاورت عائلتي وستيفن ود. دالماو ود. نجار كي أحصل على صورة لمرضي وآثاره على المدى البعيد.

الشيء الذي جذبني فورًا في الموضوع هو غالبًا اللغز الأكبر المتمثل في: كم عدد البشر عبر التاريخ الذين عانوا من مرضي والأمراض المشابهة له لكن لم يُشخّصوا وبالتالي لم يتلقوا العلاج؟ ومما زاد من أهمية السؤال معرفتي أنه رغم اكتشاف المرض عام 2007، فإن بعض الأطباء الذين حاورتهم يعتقدون أن المرض كان موجودًا دائمًا منذ قديم الأزل.

في أواخر الثمانينيات، لاحظ طبيب الأطفال الكندي الفرنسي المتخصص في الأمراض العصبية غيوم سيبيار نمطًا غريبًا ضمن ستة أطفال كان يعالجهم في المدة بين 1982م إلى 1990م. عانى جميعهم من تشنجات لا إرادية ونوبات هيجان مفرطة وضعف في الوظائف الإدراكية ونوبات صرع، بالإضافة إلى أن صورة الأشعة المقطعية كانت خالية من أي علة، وتحاليل دم سلبية. شُخّص الأطفال بـ «التهاب مخي مجهول السبب». (أو ما عرف بين العامة باسم متلازمة سيبيار)، وهو مرض يدوم لمدة عشرة شهور في المتوسط. أربعة من الستة أطفال الذين خضعوا للدراسة تعافوا تمامًا. صمد وصفه المبهم للمرض لعقدين آخرين.

في وقت سابق لذلك، عام 1981م كتب روبرت ديلون وزملاؤه ورقة بحثية تصف «متلازمة التوحد المكتسب الانعكاسي» عند الأطفال، وهو مرض يشبه في أعراضه التوحد. طفلان من الثلاثة الذين خضعوا للدراسة (طفلة في الخامسة وطفل في السابعة) تعافيا بشكل كامل. لكن استمرت فتاة في الحادية عشرة تعاني من خلل عنيف في الذاكرة والوظائف الإدراكية للدماغ، غير قادرة على تذكر ثلاث كلمات كانت تُلقى عليها بعد مرور دقائق معدودة فقط.

الآن أثبتت الدراسات أن حوالي أربعين في المئة من المرضى الذين يُشخّصون بالتهاب المخ ذاتي المناعة هم أطفال (والنسبة في تزايد مستمر)، لكن تختلف أعراض المرض في الصغار عنها في البالغين. يظهر الأطفال المصابون بالمرض سلوكياتٍ غريبةٍ، مثل ثورات الغضب والخرس والإثارة الجنسية المفرطة والعنف. تصف إحدى الأمهات كيف حاول طفلها خنق طفلًا رضيعًا من أقربائهم. أم أخرى تقول إنها سمعت أصوات صياح هستيري تصدر عن ابنتها الملائكية الطباع. طفلة أخرى خربشت عينيها لأنها لم تستطع أن تعبر عن ثورتها الداخلية بالكلمات.

كثيرًا ما يُشخّص المرض في الأطفال بشكل خاطئ على أنه حالة توحد، لكن على حسب المكان والزمان الذي يعيش فيه المريض، ربما يُوصف المرض على أنه شيء خارق وحتى شرير. فبالنسبة للعين غير الخبيرة، التهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA يبدو شيئًا خبيثًا. فالأولاد والبنات المصابون به يصبحون فجأة مثل كائنات شيطانية ممسوسة خارجة من أفظع كوابيسنا.

تخيل فتاة صغيرة عانت من تشنجات في كل عضلة من جسمها، تشنجات جعلتها تقفز في الهواء وتسقط من فوق فراشها، قبل أن تبدأ في الحديث

بصوت جهوري عميق وغريب ثم تأخذ في التلوي بجسدها ثم تنزل مترنحة على السلم، وهي تصدر صوتًا كفحيح ثعبان وتتقيأ دمًا! هذا المشهد بالتأكيد مأخوذ من النسخة غير المنتجة لفيلم «طارد الأرواح الشريرة»، ورغم أنه خيالي، إلا أنه يصور العديد من الأعراض التي يعاني منها الأطفال المصابون بالتهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA. الصورة ليست مبالغًا فيها كما قد نتصور. (ستيفن مثلًا لم يعد قادرًا على مشاهدة «طارد الأرواح الشريرة» لأنه يجلب إليه ذكريات نوبات الذعر التي كانت تنتابني في المستشفى، وذكرى نوبة صرعي الأولى ونحن نشاهد التلفاز مستلقيّن على الأريكة في شقتي).

في عام 2009م، أظهرت فتاة في الثالثة عشرة من تنيسي مجموعة من المشاعر والأعراض التي تختلف من ساعة لأخرى. أحيانًا تظهر لديها أعراض مريض شيزوفرنيا، وأحيانًا أخرى تتصرف كمريض توحد أو شلل دماغي. كانت تتصرف بعنف، وتعض لسانها وفمها. مرة أصرّت على الزحف على أرضية المستشفى. كانت تتحدث أيضًا بلكنة كاجون[1] الغريبة وفقًا لجريدة تايمز فري برس تشاتانوغا[2] التي أجرت تحقيقًا مفصلاً عن مرضها بالتهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA، ورحلتها في التعافي.

يُخبر العديد من الآباء الأطباء أن أطفالهم قد بدأوا الحديث بلغة غريبة مشوهة أو بلكنة غير مألوفة، تمامًا مثلما تحدثت شخصية ريغان في فيلم «طارد الأرواح الشريرة» بلغة لاتينية طليقة مع الكاهن الذي أتى لطرد

1 - مجموعة من الناس في جنوبي لويزيانا وتكساس في الولايات المتحدة الأمريكية ينحدرون من المستوطنين الفرنسيين الذين يدعون بالأكاديين.

2- اسم مدينة في ولاية تنيسي.

الروح الشريرة من جسدها. بشكل مشابه، يعاني الأطفال المصابون بهذا النوع من التهاب المخ بما يعرف باسم الصدى اللفظي أي تكرار الأصوات التي ينطقها الآخرون. قد يفسر ذلك قدرتهم المفاجئة على الحديث «بألسنة مختلفة». لكن في الحياة الواقعية، يتحدث المرضى بطريقة غريبة وغير منطقية، وليست بنفس طلاقة ريغان في الفيلم.

كم عدد الأطفال عبر التاريخ الذين «تعرضوا لجلسات طرد الأرواح» ثم تُركوا ليموتوا دون أي تحسن؟ كم عدد المرضى الذين يقبعون الآن في عنابر الأمراض العقلية ودور الرعاية دون أن يُشخّصوا بالشكل الصحيح ودون أن يتلقوا العلاج البسيط نسبيًا من الستيرويدات واستخراج البلازما وعلاج الـIVIG، وفي أسوأ الحالات جرعة مكثفة من العلاج المناعي أو الكيميائي؟ يُقدر د. نجار أن تسعين بالمئة من المصابين بهذا المرض أثناء الوقت الذي كنت أتلقى فيه العلاج في 2009 لم يُشخّصوا بشكل صحيح. ورغم أن هذه النسبة قد انخفضت غالبًا لأن المرض قد بات أكثر شهرة، ما زال هنالك أشخاص يعانون في مكان ما من شيء قابل للعلاج ولا يتلقون الرعاية الطبية السليمة. لا يمكنني أن أنسى أبدًا كم اقتربت من تلك الحافة الخطيرة.

عندما تواصلت مع د. ريتا باليس-جوردن زميلة د. دالماو من أجل بحثي، ذكرت مثلاً هنديًا قديمًا يستخدمه عادةً علماء الأعصاب الذين يدرسون المخ عن ستة رجال عميان يحاولون التعرف على فيل كوسيلة لفهم كم المعلومات الكثيرة التي نحن بحاجة إلى معرفتها عن هذا المرض.

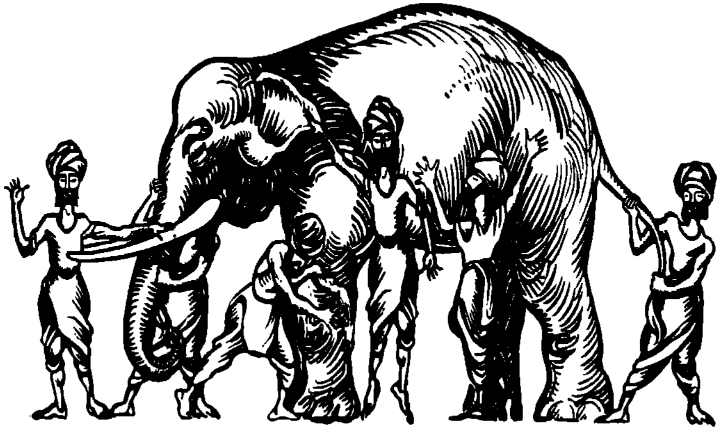

تحكي القصة عن ستة عميان لم يقابلوا فيلًا من قبل. كل رجل أمسك جزءًا مختلفًا من الفيل كي يتعرف على الشيء المجهول. الأول لمس الذيل فقال: حبل! الثاني أمسك بالساق فقال: عمود! الثالث تحسس الجذع فقال: شجرة، والرابع تحسس الأذن فقال: مروحة! الخامس وضع يده على البطن فقال: جدار. الرجل الأخير تحسس الناب فقال: أنبوب. (تُحكى القصة بحبكات مختلفة، وكل حبكة تنتهي بشكل مختلف. في تصور بوذي، يُقال للرجال في النهاية إنهم جميعًا محقون فيحتفلون فرحًا. وفي نسخة أخرى، يتشاجرون فيما بينهم لأنهم لا يستطيعون الاتفاق على إجابة واحدة).

تمتلك د. باليس-جوردن تفسيرًا باعثًا للأمل لهذه القصة. «نحن جميعًا نقترب من الفيل من الأمام ومن الخلف آملين أن نلمس في النهاية الوسط، آملين أن نرسم صورة مفصلة بشكل كاف للفيل».

حقلان علميان بالذات سيستفيدان كثيرًا من رسمة الفيل تلك: التوحد والشيزوفرينيا. تؤمن د. باليس-جوردن أن نسبةً صغيرة من الأشخاص الذين يُشخّصون بالتوحد أو الشيزوفرينيا هم في الحقيقة مصابون بمرض ذاتي المناعة. الكثير من الأطفال الذين يُشخصون في النهاية بالتهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA يُشخصون في البداية بشكل خاطئ بالتوحد. كم عدد الأطفال الذين شُخّصوا بالخطأ بالتوحد ولم تُكتشف إصابتهم بمرض ذاتي المناعة؟ كما شرحت لي د. باليس-جوردن أنه نظريًا من بين كل خمسة مليون مريض يُشخص بالتوحد، 4،999،000 مريض مصاب حقًا بالتوحد. لكن ماذا عن الشريحة الضئيلة المصابة حقًا بالتهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA أو أي مرض آخرمشابه، ويمكن أن يُعالج بشكل فعال إذا ما بحث الطبيب عن ورم ثانوي أو الأجسام المضادة في الدماغ؟

نفس الشيء ينطبق على الشيزوفرينيا، فالكثير من البالغين الذين شُخّصوا في النهاية بالتهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA، شُخصوا أولًا بالشيزوفرينيا (أو أي اضطراب عقلي آخر مثل اضطراب الفصام العاطفي في حالتي). إحصائيًا لا بد أن أشخاصًا جرى تشخيصهم بشكل خاطئ بالذُهان أو الشيزوفرينيا ولم يتلقوا أبدًا المساعدة المناسبة. حتى لو كانت النسبة هي 0.01 بالمئة من المرضى، فما زال العدد كبيرًا.

للأسف، من شبه المستحيل أن يُجرى الاختبار الصحيح لمعظم المرضى الذين يعانون من أعراض عقلية عنيفة بهدف التشخيص والعلاج من الأمراض الذاتية المناعة. فأشعة البوزيترون والأشعة المقطعية وأشعة الرنين المغناطيسي وعلاج الـIVIG واستخراج البلازما قد يكلف كل منها آلاف الدولارات.

سألتُ بروفيسور علم النفس د. فيليب هارفي أثناء حواري معه: «ما مدى إمكانية الفحص العشوائي للتأكد من وجود مرض ذاتي المناعة؟»، فأجاب: «بزل قطني للجميع؟ هذا مستحيل».

كلف علاجي مليون دولار. رقم يُصيب الرأس بالدوار. لحسن الحظ، كنت موظفة بدوام كامل في ذا بوست وتأميني الصحي قد غطى معظم التكاليف الباهظة. بالإضافة لذلك كان لدي عائلة تقف بجانبي. كانت عائلتي محظوظة لقدرتها على دفع أي تكاليف لا تتحملها شركة التأمين.

للأسف غالبًا لا تملك الحالات التي تعاني من أمراض عقلية مزمنة نفس الأمان المالي، فهم غير قادرين على الاحتفاظ بوظائفهم ويجب أن يتأقلموا مع تأمين الإعاقة المحدود. هذا سبب إضافي يدفع أطباء الأمراض النفسية وأطباء الأعصاب أن يبحثوا عن طرق تحطم الحواجز المقامة بين علم الأمراض النفسية وعلم الأعصاب، محاولين جادين الوصول إلى نظرة موحدة للأمراض العقلية باعتبارها أمراض عصبية كيميائية، وربما الحصول على منحة مالية أكبر من موازنة الصحة لدراسة هذا التداخل بين العلمين.

تقول د. باليس-جوردن: «هنالك اعتقاد أن الأمر محض صدفة، أي أن لا علاقة بين التهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA والشيزوفرينيا. لكن الطبيعة علمتنا أنها لا تعمل هكذا. النظرية الأفضل للشيزوفرينيا أن هنالك على الأقل بعض الحالات التي يمكن تفسيرها من خلال نفس الخلل، أو بخلل مشابه للخلل الذي يسبب المرض ذاتي المناعة».

***

يقود د. نجار الآن مسيرة البحث في العلاقة بين الأمراض العقلية والأمراض ذاتية المناعة. فمن خلال أحدث أبحاثه يفترض د. نجار أن بعض أشكال الشيزوفرينيا واضطراب ثنائي القطب واضطراب الوسواس القهري والاكتئاب قد تسببها التهابات معينة في المخ. د. نجار منخرط في عمل سيضع حجر الأساس الذي قد يؤدي أخيرًا إلى تحطيم الحاجز بين علم المناعة وعلم الأمراض العصبية وعلم الأمراض العقلية.

يدرس د. نجار حاليًا حالة حديثة عن امرأة في التاسعة عشرة من عمرها، شخّصها ستة أطباء أمراض عقلية بارزون بالشيزوفرينيا على مدار عامين. حين كانت في السابعة عشرة، بدأت أعراضها بهلاوس سمعية. قالت للدكتور نجار: «الناس يثبطون من عزيمتي ويعتقدون أنهم أفضل مني». ثم تبعتها هلاوس بصرية، في وقت متأخر من الليل ترى وجوهًا بشرية على الحوائط. لم يقتنع والداها بتشخيص الشيزوفرينيا وفي النهاية أحضروها إلى مستشفى جامعة نيويورك حيث قابلوا د. نجار. طلب أخذ خزعة من الفص الجبهي الأيمن - وهو شيء تعلّمه من خلال حالتي - والتي أظهرت وجود التهاب وأجسام مضادة تستهدف مستقبلات الغلوتامات في المخ. عولجت بالسترويدات واستخراج البلازما والـIVIG. قلّص ذلك من الهلاوس والبارانويا لكن لأن العلاج قد بدأ متأخرًا، ليس من المؤكد ما إذا كانت ستتمكن من العودة إلى حالتها الطبيعية السابقة للمرض.

أخبرني د. نجار: «لا يعني أن المرض يبدو كالشيزوفرينيا أنه حقًا شيزوفرينيا. علينا أن نبقي أقدامنا على الأرض. علينا أن نحتفظ بعيوننا مفتوحة دائمًا».

***

أثناء بحثي الخاص بالمقال، انتابني الفضول للحصول على وجهة نظر د. بايلي، طبيب الأعصاب الذي أكّد أن مشاكلي نابعة من انسحاب الكحول والتوتر العصبي، كي أعرف رأيه بخصوص تشخيصي النهائي. حين تمكنت من مهاتفته، اتضح أنه لم يسمع قط بالمرض رغم أن تشخيصي قد نوقش تقريبًا في كل الدوريات الطبية، ويشمل ذلك مجلة نيو إنغالاند الطبية والنيويورك تايمز. في ربيع عام 2009م كنت المريضة رقم 217 التي تُشخّص بمرض التهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA. بعد عام تضاعف الرقم. والآن وصل الرقم إلى الآلاف. ومع ذلك فإن د. بايلي الذي يُعدّ أحد أفضل أطباء الأعصاب في البلاد لم يسمع عنه قط!

عندما نعيش في عصر لم يتحسن فيه معدل التشخيصات الخاطئة منذ الثلاثينيات، فإن الدرس الذي يجب تعلمه من ذلك هو أهمية الحصول على رأي طبي ثانٍ. ربما يكون د. بايلي طبيبًا ممتازًا من عدة أوجه، لكنه مع ذلك يمثل نموذجًا مثاليًا لما هو خاطئ في ممارسة الطب. بالنسبة له كنت مجرد رقم. (ولو كان حقًا يفحص خمسة وثلاثين مريضًا كل يوم كما أخبرني، فهذا يعني أنني كنت مجرد قطرة من بحر). د. بايلي نتاج نظام معيب يجبر أطباء الأعصاب على قضاء خمس دقائق مع عدد محدد من المرضى كل يوم للحفاظ على الحد الأدنى من الخدمة الطبية. ود. بايلي ليس استثناءً للقاعدة، بل هو القاعدة. أنا الاستثناء. أنا المحظوظة. لم أتعثر في نظام مصمم كي يخطئ في تشخيص حالات مثل حالتي - حالات تتطلب وقتًا وصبرًا واهتمامًا شخصيًا بالمريض. بالتأكيد، حين تحدثت معه، كنت مصدومة أنه لم يسمع بمرضي. لكن لم يكن ذلك هو الجزء الصادم حقًا. أدرك الآن أن قدرتي على كتابة هذا الكتاب هو الجزء الصادم في الموضوع.

***

حتى بعد كل هذا الوقت، كان الأمر الأكثر رعبًا بخصوص البحث وكتابة المقال عن مرضي هو شيء لم أكن مستعدة له: تسليم شرائط فيديو رسم المخ لمحرر الصور الذي أراد أن يستخدم بعضًا من صوري في المستشفى في المقال. لم أكن قد شاهدتها بعد وفي تلك المرحلة لم أكن أنوي مشاهدتها. لكن عندما واجه المحرر مشكلة في تشغيل القرص المضغوط، طلب مساعدتي. تمكنت من تشغيله وفي أثناء ذلك وقع بصري على لمحة خاطفة لنفسي وأنا مرتدية رداء المستشفى. كنت هزيلة للغاية ومخبولة وغاضبة، بينما أحاول بعدائية أن أمد يدي نحو الكاميرا.

ارتجفت وأسرعت بإبعاد عيني عن الصورة، محاولة أن أركز على تنفسي وأنا أجاهد لوضع ابتسامة على وجهي. اجتاحتني نزعة ملحة لانتزاع الفيديوهات منه وإحراقها، أو على الأقل إخفائها بعيدًا عن أعين الجميع. حتى بعد كل ما فعلته وعرفته، ربما لم أكن مستعدة بعد لذلك. مع هذا شعرت أني مجبرة على متابعة المشاهدة.

كنت قد حافظت على مسافة كافية بيني وبين مدة جنوني لدرجة تسمح لي باعتبارها شيئًا نظريًا، لكن مشاهدة نفسي على الشاشة بهذا القرب، أزال هذه المسافة التي فرضتها على نفسي كصحفية. الفتاة في الفيديو تذكير بمدى هشاشة قدرتنا على الحفاظ على سلامتنا العقلية والصحية، وكم نحن خاضعين تمامًا لسيطرة أجسامنا الغادرة غدر بروتس، والتي ستنقلب ضدنا يومًا ما للأبد. أنا سجينة لجسدي مثل البشر جميعًا. ومع هذا الإدراك اجتاحني إحساسٌ مؤلمٌ بالضعف والهشاشة والعجز.

***

في تلك الليلة عدت إلى البيت، ومررت بليلة من الأحلام المتقطعة التي تداخلت مشاهدها واختلطت ببعضها البعض. في أحدها، كنت مع أمي وآلن في سوميت.

قالت أمي وهي تضحك بشدة: «أتذكرين حين كنت في المستشفى... كنت مجنونة للغاية لدرجة...» لم تتمكن من السيطرة على ضحكها لدرجة أنها لم تستطع إنهاء الجملة.

سألتها: «ماذا حدث؟» وأنا ألتقط دفتر ملاحظاتي وجهاز التسجيل. كانت مستمرة في الضحك، تبتلع الهواء بحالة هستيرية لا تمكّنها من الكلام، وهكذا انتهى الحلم وهي ما تزال تضحك.

وفي حلم آخر، يتداخل مع الحلم الأول، كنت في جناح الصرع، عارية تمامًا وأبحث عن دورة مياه لأختبئ فيها. سمعت أصوات مجموعة من الممرضات تتحرك في الجوار فحاولت الاختباء لكن بينما أنعطف عند الزاوية، رأيت أدلين الممرضة الفلبينية. فجأة صرت أرتدي ثيابي كاملة. قالت لي:

«سوزانا. لقد سمعت أنك لا تعتنين بنفسك. يا له من أمر مُخجل».

رغم ترددي في محاولة استنباط معانٍ فرويدية من تلك الأحلام، إلا أنه من الواضح أنها تمثل القلق الذي شعرت به حيال سلوكي في المستشفى والانطباع الذي تركته عند الآخرين خلال مدة التعافي.

لم تكن تلك هي الحالة النفسية التي أردت أن أكون عليها عند عملي على أول مهمة كبرى بعد عودتي إلى ذا بوست. لم أرد أن أكون مُنهكة القوى ومُنزعجة. أخلّت تلك الشرائط بتوازني الداخلي دون شك. ولكن بغض النظر عن استعدادي، نُشرت في يوم السبت الرابع من أكتوبر أهم قصة في

مسيرتي الصحفية في ذا بوست تحت عنوان «شهر ضائع من الجنون». كتبت في افتتاحيته:

كنت امرأة سعيدة في الرابعة والعشرين من عمري ثم فجأة أصبت بجنون الارتياب ونوبات الصرع، هل كنت في طريقي إلى الجنون؟

(48)

ذنب الناجي

البحث عن حالتك والتفكير بشكل مجرد في الآخرين الذين يعانون من نفس الحالة شيء، ومعرفة الأشخاص المهددين بالضياع في النظام الصحي المختل عن كثب شيء آخر مختلف كليًا.

وحيث إني كنت أول حالة تُشخّص بالتهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA في مستشفى جامعة نيويورك، شعرتُ كما لو أنني ضمن مجموعة مهمشة من الجرحى الناجين دون أي رفقاء تشارك معهم قصص الحرب. رغم أن التهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA مرضٌ نادرٌ، وواحد من أكثر من مئة مرض ذاتي المناعة مختلف يصيب نحو خمسين مليون شخص في الولايات المتحدة فقط - رقم مزلزل تضاعف أكثر من ثلاث مرات في العقود الثلاثة الأخيرة- كنت مخطئة.

الغالبية العظمى من الأمراض ذاتية المناعة - حوالي خمسة وسبعين بالمئة - تصيب الإناث، أكثر من كل أنواع السرطان مجتمعة. الأمراض ذاتية المناعة هي السبب الأول لإعاقة الإناث في كافة المراحل العمرية. هنالك عدة نظريات حول سبب إصابة الإناث بنسبة أكبر بكثير من الذكور بالأمراض ذاتية المناعة، تتراوح بين أسباب جينية وبيئية وهرمونية (تكون معظم الإناث في سن الإنجاب في وقت التشخيص). وحيث إن الأجهزة

المناعية لدى المرأة أكثر تعقيدًا (يحتاج جهاز المناعة لدى المرأة إلى التعرف على الجنين - الذي يُعدّ كائن نصف غريب - وحمايته أثناء مدة الحمل)، وحيث إن كل شيء أكثر تعقيدًا في المرأة، فإن الخلل في وظائف الجسم يكون أكثر عنفًا. في الوقت الحالي لا توجد إجابة قاطعة ويظل الأمر لغزًا آخر في سلسلة من علامات الاستفهام.

تعرّف د. دالماو ومختبره على أمراض ذاتية المناعة تحدث في المخ، تهاجم مستقبلات عصبية أخرى غير الـNMDA. لم تعد الأجسام المضادة لمستقبلات NMDA - رغم ندرتها - شيئًا فريدًا. الآن صارت الأمراض ذاتية المناعة التي تنتج أجسامًا مضادة تهاجم الجسم مجموعة متكاملة من المتلازمات المرضية. تعرّف مختبر د. دالماو على ستة أنواع أخرى من الأجسام المضادة التي تهاجم أنواع مختلفة من المستقبلات العصبية في المخ، فأضيفت إلى الأجسام المضادة المهاجمة لمستقبلات NMDA، وهو شيء أذهلني. هذا الرقم يتزايد. يتوقع د. دالماو أنه عند نهاية البحث قد يصل العدد إلى عشرين أو أكثر. هذه الاكتشافات ستمنح أخيرًا أسماء لأمراض يُشار إليها بشكل مبهم بعبارة «التهاب في المخ مجهول السبب» أو «ذُهان غير محدد» أو أمراض لا تحمل أي اسم على الإطلاق.

***

لذا لم يكن مستغربًا بعد نشر مقالتي في ذا بوست، أن يمتلأ بريدي الإلكتروني بمئات الرسائل من أمهات وأباء شُخّص أطفالهم مؤخرًا بكل أنواع الأمراض ذاتية المناعة، ونساء في نفس سني يعانين من ويلات مرضي، وأشخاص يشكون أن أحباءهم يعانون منه ويريدون معلومات عن أفضل طريقة لعلاجه.

وكأي صدمة عظيمة في حياتك، يؤثر فيك هذا المرض بشدة ويعريك ويترك ندبة كبيرة مفتوحة بداخلك، وبعد النجاة من كل هذا، تشعر أنك مستعدٌ أخيرًا للعطاء ومستعدٌ لمساعدة أي شخص آخر يمر بأزمات مشابهة. لكن هذا الانفتاح الشديد مثل جرح مُتقيح، قد يتركك أحيانًا هشًا بلا حماية.

كانت الكثير من القصص التي سمعتها في ذلك الوقت مشابهة لقصتي، إن لم تكن أكثر عذابًا. كلمات الناس الذين تحدثت معهم كانت تؤرقني ليلًا.

لماذا أنا؟ لماذا قررت أجسامي المضادة أن تهاجمني؟ لماذا لم أستطع التعافي قط؟

أعيش في تلك الدوامة المتكررة، ليس بدافع الشفقة على النفس لكن بسبب هذا السؤال الحقيقي الذي لا أجد له إجابة: لماذا قرر جسمي أن ينقلب عليّ؟! ثم لماذا يحدث ذلك لأي إنسان؟ هنالك الآن الآلاف من حالات التهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA، والكثير منها لم تنتهِ نهاية سعيدة.

امرأة عجوز ماتت لأنها شُخصت خطأ بعدوى في القناة البولية. امرأة أخرى حين بدأت أعراضها تتحسن، فقدت طفلها فانتكست. عشرات من الفتيات اللاتي أُستؤصلت مبايضهنّ عندما لم يتمكن الأطباء من العثور على تيراتوما، ولم تنجح مثبطات المناعة التي نجحت في حالتي، في مساعدتهنّ.

كل من تحدثت معهنّ تقريبًا عانين من أوهام وهلاوس. معلمة موسيقى تقسم أنها رأت وسمعت فرقة موسيقية تعزف سيمفونية كاملة خارج نافذة بيتها. امرأة استنجدت بقس كي يخضعها لجلسة طرد الأرواح الشريرة لأنها كانت متأكدة أن شيطان قد مسّها. امرأة أخرى في مثل سني دخلت في

حالة اكتئاب وكراهية للذات أثناء مدة التعافي لدرجة أنها نزعت شعرها، وجرحت ذراعيها محاولة الانتحار. وجنون الارتياب، لا سيما فيما يتعلق بالرجال في حياتهن، كان عاملًا مشتركًا. امرأة في منتصف العمر آمنت أن زوجها أنجب طفلًا من جارتها. مراهقة صغيرة كانت متأكدة أن والدها يخون والدتها. فتاة في الثانية عشرة تحدثتُ معها، حاولت أن ترمي نفسها من سيارة وهي تتحرك (كما حاولت أنا). امرأة أخرى صارت مهووسة بالعنب (مثل هوسي بالتفاح).

فقدت كل الحالات التي تحدثت معها ذاتها، ولم تنجح كل حالة في إيجاد نفسها من جديد. لن تستعيد بعض الحالات ذكائها أو مرحها أو نشاطها المميز قبل المرض.

تلقيت مكالمات من أشخاص شُخصوا بالشيزوفرينيا، يبحثون بيأس عن إجابة أخرى لمرضهم. منحتهم قصتي أملًا لكن بعض هؤلاء الأشخاص أصابوني بالذعر بسبب مكالماتهم المستمرة والمضطربة ذهنيًا.

قالت امرأة عبر الهاتف: «تعرفين أنهم يتنصتون علينا».

«معذرة؟»

«يتجسسون على رقمي. لذا لا أستطع قول الكثير».

امرأة أخرى قالت: «أسمع أصواتًا. هنالك أشخاص يطاردونني. مثلما حدث معكِ».

اتصلت بي امرأة عدة مرات بدا عليها الجنون، وهي تضغط الحروف بشكل يصعب معه فهم ما تقوله، كي ترتب موعدًا معي كي أشخّص أنا حالتها.

قلت للمتصلات: «لست طبيبة لكن عليكِ أن تتواصلي مع هؤلاء

الأشخاص». ثم كنت أزودهم بقائمة بالأطباء الذين أسهموا في علاجي.

لكن الحقيقة أن الفرق الوحيد بين أولئك الذين يعانون من الشيزوفرينيا وبيني هو أنني قد شُفيت. أعرف تمامًا شعور أن تُسجن في قفص روحك المحطمة.

تُعدّ عقدة «ذنب الناجي» نوعًا من أنواع اضطراب ما بعد الصدمة «PTSD»، وهو حالة شائعة. أظهرت دراسة أن عشرين إلى ثلاثين بالمئة من الناجين يعانون منه. ووُثّقت الحالة في مرضى السرطان والإيدز والجنود العائدين من الحرب. يمكنني بصدق فهم ذلك الشعور. رغم أن مشكلتي هي عكس اضطراب ما بعد الصدمة من عدة أوجه. فبينما يحاول معظم من يعانون من اضطراب ما بعد الصدمة الهروب باستماتة من ذكريات الصدمة الأصلية، لا أملك أنا ذكريات كي أهرب منها. لكن مع ذلك يبقى الشعور بالذنب حاضرًا، خاصةً حين أتحدث مع العائلات التي لا تستطيع منع نفسها من الشعور بالغلّ نحوي.

كان هنالك ذلك الشخص المتزوج مؤخرًا الذي اتصل بي ليحدثني عن زوجته. أرسل لي رسالة على فيسبوك فأعطيته رقمي.

سألني بعدوانية: «لماذا أنت واثقة أنك لن تنتكسي وتصابين بالمرض مجددًا؟».

«لا أعرف. لا أملك إجابة».

«لماذا أنت واثقة؟»

«لست واثقة. هذا فقط ما يخبرني به الأطباء».

«وكيف تحسنت حالتكِ أنت بينما زوجتي التي شُخصت بالمرض قبلك لا تزال مريضة؟»

«لا أعرف».

بعد أسبوعين اتصل بي من جديد. «إنها ميتة. لقد ماتت الأسبوع الماضي وظننت أنك ستودين معرفة ذلك».

لم يكن هنالك تشخيص عبقري إعجازي ينقذ زوجته، ولا يوجد تشخيص إعجازي لكل إنسان. إنها الصدفة. حظ القرعة مهما بدا ذلك غير عادل وقاسٍ ومرعب. حتى لو عُولج المرض بالشكل السليم، فما يزال هنالك احتمال بنسبة خمسة وعشرين بالمئة أن تصاب حالة بإعاقة دائمة أو تموت.

مع ذلك كانت هنالك مواقف كثيرة جدًا مررت بها في علاقتي المعقدة مع هذا المرض حولته من مرض رهيب إلى نعمة من نوع ما. لم يكن مرضي شيئًا أتمنى حدوثه لأي إنسان حتى ألد أعدائي لكن لا يمنع ذلك أنه كان نعمة من بعض النواحي.

توطدت علاقتي بسيدة تدعى نسرين شاهين، أصيبت ابنتها في سن ما قبل المراهقة[1] بالمرض تقريبًا في نفس الوقت الذي أصبت به. تعمل السيدة نسرين دون كلل كي تنشر الوعي بالمرض فتخصص ساعات لا حصر لها لإدارة صفحة على فيسبوك عن التهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA. ثمة مواقع كثيرة مكرسة لنشر الوعي وبناء جسور التواصل بين المرضى والعائلات كي لا يواجهوا هذه المحنة بمفردهم.

***

1- سن ما قبل المراهقة: من 9 لـ 12 سنة.

أكثر لحظة صادقة في حياتي - وكوني قادرة على قول ذلك بيقين تام هو مثال آخرعلى مدى تغيير المرض لنظرتي للأمور بشكل إيجابي - كانت حين اتصل بي رجل يدعى بيل جافجين في ربيع 2010م.

سألني بتلهف: «هل أتحدث مع سوزانا كهالان؟».

أجبت بذهول: «نعم». لا ينطق الناس عادةً اسمي وكأنه اسم شخص مهم.

بدأ يتحدث عن قصة ابنته المراهقة إميلي. في يوم ما أثناء السنة الثانية من دراستها في جامعة بنسلفانيا، بدأت إميلي تتحدث بسرعة وغرابة ثم أصابها جنون الارتياب. تخيلت أن الشاحنات تتبعها، وأن السائقين يتبادلون المعلومات عن أماكن وجودها في أجهزة لاسلكية. في اليوم التالي حين كانوا يتوجهون لمشاهدة عرض مسرحي في برادواي في نيويورك، صارت إميلي مرتابة بخصوص السيارات حولهم وأصرت أن سيارتهم مُتعقبة. كان أمرًا مقلقًا للغاية لبيل وزوجته جريس. لذا لف بسيارته فورًا وتوجه مباشرة للطوارئ. في المستشفى زادت حدة جنون الارتياب لأن طبيب الطوارئ ذكرها بمعلم التاريخ في المدرسة الثانوية مما جعلها تقتنع أنه محتال، ممثل يلعب دور طبيب - تمامًا كما حدث في حالتي مع أبي وممرضة رسم المخ. حُجِزت في قسم الأمراض العقلية ووضِعت تحت المراقبة دون السماح لعائلتها برؤيتها لاثنتين وسبعين ساعة. أعطيت خليطًا من مثبتات المزاج ومضادات الذُهان، وبقيت في العنبر أسبوعين آخرين قبل أن تُشخّص بمرض «ذُهان غير محدد السبب» وتُسرّح من المستشفى. هذا هو المصطلح الطبي الذي يعني «لا نملك أي فكرة». ورغم أنها كانت تحت تأثير المهدئات بدرجة كبيرة، أصرت على العودة إلى الجامعة. لكن سرعان ما تلقى والداها مكالمة من عميد الكلية يعبر عن قلقه الشديد من سلوك إميلي الشاذ. عادت

إلى البيت حيث قضت الأسابيع التالية بين البيت وعيادة طبيب الأمراض النفسية حتى أُدخلت إلى مستشفى الأمراض العقلية في بنسلفانيا. قارن بيل التجربة بفيلم «أحدهم طار فوق عش الوقواق». رغم أن الطبيب النفسي لم يملك تشخيصًا قاطعًا بعد إلا أنه يميل إلى الشيزوفرينيا، حتى بعد أن ذكر أطباء أعصاب آخرون احتمال إصابتها بالتصلب المتعدد. نصحت موظفة الخدمة الاجتماعية الوالدين بأن يتقدما ببياناتها من أجل الحصول على إعالة الإعاقة لأن ابنتهما «لن تستطيع العمل أبدًا بعد الآن». رفض بيل الإيمان بذلك، ورمى استمارات التأمين الاجتماعي في سلة المهملات بعد أن غادرت الموظفة.

في نفس ذلك الوقت رأتني ماري أخت بيل في البرنامج الصباحي «Today» (دعاني أحد منتجي البرنامج للظهور فيه بعد أن قرأ مقالتي في ذا بوست). أرسلت ماري فيديو الحلقة إلى بيل الذي قام بدوره بعرض الفيديو والمقال على طبيب الأمراض العقلية المكلّف بحالة إميلي.

قال الطبيب محاولًا أن يوضح الفروقات بين حالتي وحالة إميلي: «لكن إميلي لا تعاني من نوبات صرع». بدا عليه الشعور بالإهانة أن بيل يظن أنه أهمل شيئًا أو أنه يشكك في قدراته. «عليك أن تتقبل حقيقة أن ابنتك تعاني من مرض عقلي».

بعد واحد وعشرين يومًا في المستشفى، خرجت إميلي، وانتظمت على أدوية للشيزوفرينيا، وفي النهاية عادت إلى الجامعة مرة ثانية حيث أنهت الفصل الدراسي بدرجات ممتازة. مع ذلك ما زال الوالدان يشعران بأن ابنتهما ليست على ما يرام مائة بالمئة. بدت ظاهريًا أنها قد تخطت الأزمة مهما كانت طبيعتها، حتى عادت إلى البيت في عطلة الربيع، فقد ساءت حالتها الجسدية والإدراكية فجأة بشكل متسارع وخطير. لاحظ بيل أنها لم تعد قادرة على

حل أبسط المسائل الرياضية. شاهدت جريس ابنتها تحاول أن تأكل الآيس كريم ويدها لا تكاد تقدر على الإمساك بالملعقة. ثم فجأة انتقلت من الكلام بسرعة كبيرة إلى عدم التكلم على الإطلاق. أسرعا بابنتهما لأقرب مستشفى حيث أخبرهما الأطباء أن صورة الرنين المغناطيسي الذي أجرته إميلي منذ سنة تظهر التهابًا في المخ، وهذا أمر لم يذكره أحد للوالدين من قبل!!

بينما يستعد الأطباء لإعطاء إميلي جرعة مكثفة من علاج الـIVIG كي يعالجوا الالتهاب تكونت جلطة في مخها، مما جعلها تدخل في نوبة صرع استمرت لمدة ساعة ونصف. وبينما إميلي تتشنج بعنف في الحجرة المجاورة دفع بيل مقالتي إلى يد طبيب أعصاب.

أمر بيل الطبيب: «فلتقرأ هذا المقال الآن!».

امتثل الطبيب للأب، وقرأ المقال أمامه ثم وضعه في جيب معطفه، ووافق على أن يخضع دمها للتحليل لاكتشاف ما إذا كانت تعاني من هذا المرض النادر.

بمجرد أن استقرت حالتها، نُقلت إميلي بطائرة طبية إلى جامعة بنسلفانيا حيث تولى زملاء د. دالماو تشخيصها وبدء علاجها من التهاب المخ الذاتي المناعة المضاد لمستقبلات NMDA. من خلال نظام علاجي مكثف من الستيرويدات والعلاج الكيمياوي، عادت إميلي معافة إلى جامعتها. الآن هي سليمة مائة بالمئة، وفي عام 2012م أنهت آخر فصل دراسي لها في الكلية.

أتى صوت الأب عبر الهاتف: «لا أريد أن أكون دراميًا، لكن من المستحيل ألا أكون دراميًا في هذا الموضوع. لا أمزح إذا قلت إنه لو لم نعطِ مقالك للطبيب، لكانت إميلي ميتة الآن».

أرسل لي أيضًا مقطعًا لها وهي تتزلج على الجليد مع رسالة: «ظننت أنك ستحبين رؤية إميلي تتزلج. تلك هي أول مرة أراها تتزلج منذ عامين. في عطلة الأسبوع الماضي في يوم عيد الأم بينما نفكر فيما مررنا به، تذكرت أنني كنت أجر كرسيها المتحرك في عيد الأم الماضي حيث اصطحبتها لشراء بطاقة معايدة لأمها من متجر الهدايا في المستشفى. كانت وقتها غير قادرة على الكلام أو المشي. الآن بعد عام هي قادرة على التزلج على الجليد كما ستشاهدين في الفيديو. سنستمر في حمد الرب على نعمه الكثيرة».

ضغطت كي أفتح الفيديو. شاهدت إميلي. كانت ترتدي قميصًا أسود وتنورة بنفسجية فوق بنطال أسود ضيق، وتضع شرائط بنفسجية في شعرها. كانت بارعة في التزلج لدرجة أنها بدت وكأنها تطفو فوق سطح الجليد كلاعبة باليه بينما تقوم بالدوران دون توقف في مركز الدائرة.

(49)

نجاح فتى البلدة

مقالتي في ذا بوست «شهر من الجنون» لم تغير حياتي أنا فقط بل غيرت حياة د. نجار أيضًا. بعد نشرها، دعاني د. نجار إلى منزله في شورت هيلز في نيوجيرسي، على مبعدة خمس دقائق بالسيارة من بيت أمي في سوميت.

فتح لي الباب، وقدمني لأطفاله الثلاثة، كلهم في سن المراهقة، ولزوجته مروة، امرأة ودودة لها بشرة ناصعة وشعر فاتح، وأصغر من زوجها بسنين عديدة. التقيا في مستشفى بيكمان لعلاج كبار السن (الآن صار جزءًا من مستشفى نيويورك الجامعي) عام 1989م. كان يدرس الباثولوجيا العصبية بينما كانت تعمل في المختبر. في ظهيرة يوم ما، ألقى سهيل الخجول دعابة بالعربية، فتفاجأ بضحكتها. لم تكن تحمل ملامحًا شرق أوسطية، لكن حين قدّم نفسه لها، اكتشف أنها قادمة من سوريا أيضًا.

قدمت لي مروة الشاي بينما نجلس في حجرة المعيشة بجوار بيانو ضخم. في منتصف حديثنا، ذكر د. نجار والده سالم نجار، وبدا فخورًا بمشاركة قصته الرائعة.

نشأ سالم في دار أيتام. كانت والدته (جدة د. نجار) تعمل لساعات طويلة في مستشفى قريب حيث تخيط معاطف بيضاء للأطباء (يا لها من صدفة)، فاضطرت أن تتخلى عن ابنها سالم وهو طفل، وتضعه في دار الأيتام بعد

وفاة والده المفاجئ. لم تكن قادرة وحدها على رعايته بما تكسبه من دخل ضئيل.

سالم الذي كافح من أجل تعليم أولاده لم يتخرج أبدًا من المدرسة الثانوية. لكن من خلال تصميمه ونزعته نحو الكمال، دخل في مجال المقاولات والبناء ووصل إلى قمة النجاح في هذه الصناعة عندما بنت شركته المطار الرئيسي في المدينة «مطار دمشق الدولي». لكن لا يُقارن أي من هذا بنجاحات ابنه في الخارج.

قال د. نجار: «لقد اطّلع أبي على مقالكِ. تُرجم إلى العربية في عدة جرائد وليس جريدة واحدة فقط. فاضت دموع الفخر في عيني أبي».

قلت: «مستحيل!».

«نعم، حتى إنه بروز المقال».

بعد نشر مقالتي، تواصل سفير سوريا في أمريكا مع د. نجار ليهنأه على إنجازه ثم أرسل مقالتي إلى الوكالة العربية السورية للأنباء (سانا). وبين ليلة وضحاها، غطّت كل وكالة أنباء قصة الفتى السوري الذي أصبح طبيبًا معجزة في أمريكا.

قال د. نجار: «تذكروا، هذا هو الأحمق. أحمق الفصل الذي لم يكن يستطيع أداء واجباته المدرسية».

ابتسمت مروة وقالت: «نجاح فتى البلدة. لقد نجحت في إثبات ذاتك يا حبي، ويا له من نجاح!»

لاحقًا في ذلك العام، اختير د. نجار ضمن قائمة مجلة نيويورك لأفضل أطباء الأعصاب في البلاد.

(50)

نشوة

مكتبة
t.me/t_pdf

بعد نشر مقالتي في ذا بوست، اتفق معظم معارفي على أن «سوزانا قد عادت حقًا». عدت إلى عملي في ذا بوست بدوام كامل. أوقف د. نجار و د. أرسلان العلاج أخيرًا. دخلت حتى في دوامة البرامج التلفزيونية في أوائل عام 2010م حين حللت ضيفة على برنامج «Today» الصباحي كي أناقش مرضي.

وحيث إن أمي وآلن قررا بيع المنزل في سوميت، انتقلت وستيفن للعيش سويًا أبكر بكثير مما كنا نعتزم. تجنبنا المسألة لشهور بينما أتصفح الإعلانات بحثًا عن شقة يمكنها أن تلائم دخلي الصغير. بعد عدة أسابيع من البحث، صار من الواضح أنني لن أتمكن من تحمل نفقات عيشي لوحدي. كنت مرعوبة من ذكر خيار العيش معًا خوفًا من أن أجبره على الانتقال بعلاقتنا لهذه الخطوة التالية الكبيرة بسرعة. شعرت أنه ليس عدلًا أن أدفعه لفعل ذلك. أعلم أنه لن يستطيع الرفض حتى لو أراد، لكن حين لّمحتُ له بالفكرة بشكل عابر، قال دون تردد: «هذا تصوري أيضًا لما يجب أن نفعله». مع ذلك كان يمكنني أن أشعر بتوتره من تأدية دور الراعي المسؤول. رغم التعافي والتحسن المستمر الذي أحرزه، أي شيء سيحدث لي تحت السقف الذي سنتشاركه معًا، سيكون هو المسؤول عنه. رغم هذا أكد لي أنَّ في ضوء عجزي المالي والعاطفي والجسدي للعيش بمفردي، ولأنه لا يريدنا أن نبتعد

عن بعضنا، فإنه لا بد من اتخاذ هذه الخطوة.

يمكنك أن تضيف هذه الخطوة الناضجة بالانتقال للعيش سويًا مع عشيقي إلى قائمة أسباب «عودتي إلى طبيعتي». لكن في الحقيقة استغرق الأمر عدة شهور أخرى كي أشعر بالارتياح والتأقلم مع ذاتي من جديد، وحتى أستطيع أخيرًا ألا أجفل وأرتبك إذا صادفت عشيقًا سابقًا، أو أنكمش منعزلة في آخر قاعة تمرين رياضة السبيننج.

حدثت لحظة الإدراك تلك بعد أكثر من عام من تشخيصي، أثناء زيارتي لأقارب للعائلة في سنتا فاي بولاية نيومكسيكو لحضور حفل زفاف ابنة عمي بليث. في حفل الزفاف ذاك على عكس الزفاف الذي حضرته في مدة مبكرة من التعافي، لم تكن هنالك فجوة بين حقيقة ذاتي الموجود داخلي وبين الشخص الذي يراه الناس من حولي. شعرت بالسيطرة على نفسي وبراحة تامة. لم أجد صعوبة في العثور على الكلمات الصحيحة، ولم يكن عليّ دفع نفسي للدخول في محاورات قصيرة، واستعدت روح دعابتي القديمة.

ولأن أصدقائي كادوا أن يرثوا خسارتي، شعروا بارتياح نسبي في الحديث عن علاقتهم معي وعن انطباعاتهم عني. بسبب هذا، شعرت كأنني توم سوير[1] وهو يحضر جنازته. كانت نوعًا غريبًا من الهبة. ظلت كلمتان تتكرران طوال الحفل: سهلة المراس، ومتحدثة بارعة. استخدم كل شخص تقريبًا مرادفات مختلفة من هاذين الوصفين عني. أدركت في ذلك اليوم فقط كيف أن تلك الصفتين تعبران عني حقًا، واستوعبت مدى صدمة المحيطين بي حين لم أعد فجأة أمتلك أي من هاتين الصفتين أثناء مرضي.

1- شخصية خيالية من ابتكار الكاتب الأمريكي مارك توين. تتضمن الرواية مشهدًا لتوم وهو يتخيل حضوره جنازته لكي يتصور مدى الحزن الذي سينتاب عائلته وأصدقائه على فقدانه. ويعتبر من أهم مشاهد الرواية تأثيرًا.

أعرف أن سوزانا الجديدة هذه تشبه كثيرًا سوزانا القديمة. لكن هنالك اختلاف بينهما. الأمر أشبه بالخطو خطوة لليسار على نفس الخط أكثر منه تحول جذري في شخصيتي. صرت من جديد أتحدث بسرعة وطلاقة، وتمكنت من أداء مهام عملي بسلاسة، وبدأت أشعر بانسجام مع ذاتي، وصرت أتعرف على نفسي في الصور التي تُلتقط لي. لكن حين أنظر إلى صوري بعد المرض وقبله، هنالك شيء تغير دون شك. شيء فقدته، أو ربما اكتسبته. لا يمكنني تمييز ذلك بدقة.

لكن التعرف على ذاتي في الصور لا يعني بالطبع عودتي الكاملة إلى سابق عهدي. أنا مختلفة عما كنته من قبل. عندما أحاول أن أحدّد كل التفاصيل الدقيقة لاختلافي، تتسلل يدي غريزيًا لهذا البروز الصغير الأصلع والمنتفخ الذي لن ينمو فيه الشعر من جديد أبدًا – ندبة عملية خزعة المخ. إنها تذكرتي الدائمة أنه مهما شعرت بأنني «طبيعية»، فلن أكون الشخص نفسه الذي كنته من قبل أبدًا.

مع ذلك هنالك أشياء قليلة أكثر رعبًا بكثير تقلقني بخصوص سوزانا الجديدة هذه. أتحدث أثناء نومي كل ليلة، وهو أمر لم أفعله من قبل. في ليلة، أيقظت ستيفن بصراخي: «هنالك وعاء من الحليب. وعاء ضخم من الحليب». قد يبدو الأمر مُضحكًا لكن حين نأخذ في الاعتبار مدة مرضي، يبدو الأمر مشؤومًا قليلًا.

لدي الآن مخاوف لم تكن لدى سوزانا خالية البال قبل المرض.

منذ شهور قليلة اتصل بي أب قلق ليطلعني على تطورات حالة ابنته التي تعرضت للانتكاسة. أخبرني أيضًا بقصة امرأة أخرى تعافت بشكل كامل، وظلت هكذا لعدة سنوات لكن مؤخرًا عاودها المرض فجأة أثناء رحلة خارج البلاد.

تعاني عشرون بالمئة من الحالات من الانتكاسة. وعلى عكس السرطان، لا يمتلك التهاب المخ ذاتي المناعة مدة سكون «remission» محددة.[1] بعد التعافي الكامل من التهاب المخ ذاتي المناعة، يمكن أن تتعرض الحالة للانتكاسة في اليوم التالي مباشرة أو بعد خمس سنوات. الحالات التي لم تكن مصابة بالتيراتوما مثلي، تعتبر أكثر عرضةً للانتكاسة دون أي سبب محدد. لكن على الأقل الحالات المنتكسة تمتلك نفس القابلية للشفاء من المرض إذا ما قُورنت بالإصابة الأولى. لم ترح تلك المعلومات ذهني إلا قليلًا.

مؤخرًا، وبينما كنت أشاهد وستيفن التلفاز في شقتنا في جيرسي سيتي، لمحت بطرف عيني شيئًا يتحرك على الأرضية.

سألتُ ستيفن: «هل رأيت ذلك؟».

«رأيت ماذا؟»

«لا شيء».

هل سأصاب بالجنون من جديد؟ هل هذا ما سيحدث؟ ثم رأيت الشيء ثانية. هذه المرة أمسك ستيفن حذائه، وسحق صرصارًا بطول إنشين.

أعيش مع هذا الخوف. لا يسيطر علي أو يثبّط من عزيمتي، لكني أعيش معه. لم يستخدم أصدقاؤي وأقاربي تعبير «مرتابة» لوصفي لكن من حين لآخر حين تبدو لي الألوان في مترو الأنفاق أكثر لمعانًا من الطبيعي، أجد نفسي أتساءل هل هي الإضاءة أم أن عقلي سيصاب بالجنون مرة أخرى؟ ناهيك بالتغيرات الأصغر التي لا يمكن لمسها أو التعرف عليها بسهولة.

1- تمر الخلايا السرطانية بمدة خمود، يبطأ فيها نموها أو يتوقف تمامًا. وقد تستمر هذه المدة لسنوات عديدة. ومدة الخمود مهمة في تحديد تطور السرطان ومدى شراسته وتفسر أيضًا المدة الطويلة أحيانًا بين الإصابة بالسرطان وبداية ظهور الأعراض.

سألت ستيفن إن كان يعتقد أنني مختلفة الآن. هل يعتقد أنني أعاني من أي خلل ذهني لا أدركه أنا؟ بعد لحظة، هز رأسه وقال: «لا، لا أعتقد ذلك». ولكن كان يبدو عليه عدم اليقين.

تغيّر الأشخاص المقربون مني أيضًا من دون شك. ستيفن الذي كان يومًا هادئ البال دائمًا، بات قلوقًا خاصة حين يتعلق الأمر بي.

«هل أخذتِ الهاتف معك؟ متى ستعودين؟ اتصلي بي حين تغادرين كي أعرف أنك في طريق العودة».

كان يكرر هذه التعليمات كثيرًا، ويتصل بي ويراسلني دون توقف إذا مرت دقائق قليلة دون أن أجيب على هاتفي. كان ستيفن يعدّني لمدة طويلة بعد مغادرتي المستشفى كقطعة صيني ثمينة وهشة يمكن أن تنكسر بسهولة، واستمر في التصرف كأنه حارسي من تشققات العالم الحقيقي وتصدعاته. رغم امتناني الأبدي لتصرفه النابع من حبه لي، بات الأمر زائدًا عن الحد حين لم يستطع أن يتخلى عن تأدية هذا الدور. كيف يمكن لأي إنسان لومه بعد ما مررنا به؟ لكن أنا لمته. تقبلُ هذا النوع من الرعاية المفرطة كأني طفلة شيء لا يتلاءم تمامًا مع شخصيتي، فأنا شخصية تعتمد على نفسها للغاية ولا أتخلى عن استقلالي. لهذا كنت أتحدى تصرفاته بعناد. كنت أسهر في الخارج دون أن أهاتفه، وأتحقق من وقت لآخر من مكالماته التي لا تتوقف. فقط عندما بدأت أتصرف بصفتي امرأة بالغة، بدأ ستيفن يعاملني على أنني بالغة. شيئًا فشيئًا صرنا متساويين من جديد، وتدريجيًا تطورت علاقتنا إلى علاقة صحية، مختلفة تمامًا عن دور الراعي والمريضة التي تكونت تحت أضواء حجرة المستشفى المزعجة. لكن بكل تأكيد لا يزال يقلق عليّ وأشك أن ذلك سيتغير أبدًا.

تعود أفكاره كثيرًا لتلك الليلة في شقتي في كيتشن هيلز حين جحظت عيناي، وتصلب جسدي، وتغيرت حياتنا للأبد.

مع ذلك هنالك بعض الأشياء التي لم تتغير. والداي اللذان تمكنا من تنحية خلافاتهما العميقة جانبًا أثناء إقامتي في المستشفى، لم يتمكنا من الإبقاء على علاقة متحضرة بينهما بعد عودتي إلى سجيتي. بدون مواعيد الطبيب التي كانت تجبرهما على التواصل، عادا شيئًا فشيئًا إلى عادتهما الروتينية في تجنب بعضهما البعض، وهو أمر لم تستطع تجربة اقتراب ابنتهما من الموت من إصلاحها.

الناس لا تتغير، هكذا يقولون.

أتذكر حين كنت على وشك دخول الصف السادس، استدعتنا أخصائية المدرسة إلى مكتبها كي تتحدث معنا عن الانتقال من المرحلة الابتدائية إلى الإعدادية. طلبت مني أن أختار شعورًا من قائمة تضم خمسين خيارًا لأصف يومي الدراسي الأول. اخترت «نشوة» مع رسمة وجه يضحك ملء شدقيه. تفاجأت الأخصائية من اختياري. من الواضح أنه ليس اختيارًا شائعًا. كنت في حالة من النشوة منذ ذلك الوقت حتى مرضي لكن هل سأختار النشوة الآن أم أنني فقدت ذلك البريق؟

هل هنالك جزء صغير مني لم ينجُ من «الحريق» وضاع للأبد؟

(51)

خطر الهروب

ممرضة رسم المخ المحتالة، وكاميرات المصورين التي تحيط بأبي في نشرة الأخبار، والشتائم التي رماني بها زوج أمي. تلك الذكريات الغريبة ظلت في رأسي، بينما ذكريات أخرى حقيقية وموثقة (بتسجيلات فيديو أو شهادة عائلتي) انسلت من بين ثنايا عقلي كالماء. لو كان كل ما يمكنني تذكره هو هلوسات فكيف يمكنني الوثوق بعقلي؟

حتى يومنا هذا، أصارع كي أميز الحقيقة من الخيال. في مرة سألت أمي إن كان آلن قد نعتني بالعاهرة في السيارة ذلك اليوم.

سألتني أمي وقد جرحها سؤالي: «هل تمزحين؟ تعرفين أنه لن يفعل ذلك أبدًا».

كانت محقة. منطقيًا، فهمت أنه لم يقل شيئًا كهذا قط لي. مع ذلك لماذا استمررت في تصديق ذكرياتي غريبة الأطوار رغم الأدلة الدامغة؟ ولماذا ظلت تلك الذكريات بالتحديد في رأسي؟ لم أعان من مرض عقلي فكيف تشكلت تلك الهلاوس؟

رغم أن جنون الارتياب والهلاوس والاعتقاد الواهم بالحقيقة علامات مميزة لمرضى الشيزوفرينيا، لا يجب أن تعاني من مرض عقلي كي تظهر تلك الأعراض.

في عام 2010م ساعدت دراسة أجريت في جامعة كامبرج على توضيح عملية التفكير في مرضى الشيزوفرينيا عن طريق حقن طلبة أصحاء متطوعين بدواء الكيتامين - وهو مخدر يعمل عن طريق إيقاف عمل مستقبلات NMDA في المخ، نفس المستقبلات التي يؤثر عليها مرضي - وأجروا تجربة تعرف باسم «وهم اليد المطاطية» عليهم. طُلب من خمسة عشر طالبًا أن يضعوا أيديهم على طاولة بجوار يد مطاطية مزيفة مرتين، الأولى بعد حقنهم بالكيتامين والثانية بعد حقنهم بدواء وهم تحت تأثير علاج وهمي (بلاسيبو)، على ألا تكون اليد الحقيقية في مجال رؤية المتطوع. ثم تبدأ فرشتا رسم بتمسيد إصبع السبابة في كلا اليدين. رغم أن المتطوعين الذين يُحقنون بالدواء الوهمي قد يخدعهم الوهم أيضًا إلا أن المتطوعين الذين يحقنون بالكيتامين يؤمنون بشكل أسرع وأقوى بأن اليد المطاطية هي يدهم فعلًا. تُظهر التجربة أن الكيتامين لسبب ما يساعد في هدم إحساس المتطوع بالواقع، جاعلًا الأشياء التي قد تبدو مستحيلة للعقل المنطقي ممكنة فتبدو مثلًا القدرة على تخيل الأشخاص يشيخون في عقلك أمر ممكن. (حدث هذا معي في المستشفى).

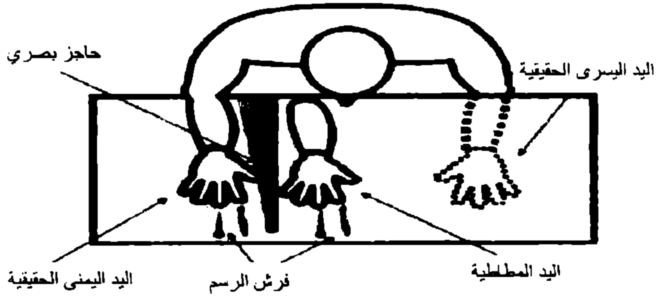

مرت عقود من البحث والتجارب المشابهة لتجربة وهم اليد المطاطية من أجل محاولة فهم الهلاوس، لكن ما تزال الهلاوس موضوعًا يجذب الباحثين، ولا يوجد حتى الآن إجماع على الآليات البسيطة لحدوثها، وسبب حدوثها من الأساس. كل ما نعرفه أنها تحدث حين يترجم المخ إحساسًا خارجيًا - صورة أو صوتًا أو لمسة - رغم عدم وجود مصدر خارجي مقابل لهذا الإحساس. أي أن العقل يفشل في التمييز بين ما هو خارجي وما هو نابع من الداخل، وهو ما يعرف علميًا بنظرية «مراقبة الذات».[1]

ولأن العقل بالتحديد هو من يخلق هذه الهلاوس، فإنها تبدو له مقنعة تمامًا، ويسهل عليه تذكرها بوضوح، كما شرح لي أستاذ علم النفس البروفيسور فيليب هارفي. يسمى ذلك بتأثير التوالد أو «Generation Effect». يقول د. هارفي: «لأن الهلاوس وليدة العقل نفسه فإن من السهل تذكرها».

رغم أن مرضى الشيزوفرينيا يعانون من خلل في الإدراك والذاكرة إلا أنهم يستطيعون التذكر جيدًا كالبشر الأصحاء لو أجبروا على خلق الذكرى بأنفسهم. فمثلاً يتذكر مرضى الشيزوفرينيا جيدًا قائمة الكلمات إذا طُلب منهم اختلاق قصة باستخدام تلك الكلمات على خلاف محاولة التذكر المباشرة ودون مساعدة من أحد. أضف لذلك حقيقة أن الرحلة التي يمر بها المخ أثناء الهلاوس تكون جياشة بالعواطف ولهذا يصنّفها الحُصين واللوزة الدماغية (اللذان أثر عليهما مرضي) على أنها ذكرى مهمة.

اللوزة الدماغية تركيب يشبه اللوزة، يقع فوق الحُصين،على جانبي الرأس فوق الأذنين في الفص الصدغي. تلعب اللوزة الدماغية دورًا كبيرًا

1- نظرية وضعها مارك سنايدر عام 1974 وهي تختبر قدرة الفرد على ملاحظة السلوك الذي يقوم به أثناء تفاعله مع ذاته ومع البيئة. ووفقًا لهذه النظرية يوجد نمطان من الأشخاص: شخص مندفع غير صبور وردود أفعاله سريعة وعدائية، وشخص هادئ وله سلوك وردود أفعال مسالمة.

فيما يتعلق بالمشاعر والذاكرة، فهي تساعد المخ على اختيار أي الذكريات يجب الاحتفاظ بها وأيها يجب إهمالها اعتمادًا على أي من تلك الذكريات قد تسببت في صدمتنا أو إثارتنا.

مثلًا يمكنني تذكر بوضوح تام المرة التي استيقظت فيها في جناح المتابعة الفائقة لحالات الصرع في المستشفى مقيدة إلى السرير، بينما تراقبني السيدة الأرجوانية، المشهد الذي افتتحت به الكتاب. أتذكر تمامًا نظري إلى يدي اليمنى، ورؤية السوار البرتقالي المكتوب عليه «خطر الهروب». تذكر أفراد عائلتي وأصدقائي الشيء نفسه لذا كنت واثقة من حدوثه في الواقع. ذكرى سوار «خطر الهروب» كانت حقيقة بالنسبة إليّ، لكن في النهاية اكتشفت أنه مشهد مُتخيل. عندما تحدثت مع الممرضات والأطباء في الجناح، أخبروني أن تلك الأساور غير موجودة. اقترحت ممرضةٌ: «ربما كان سوار «خطر السقوط» الذي يُوضع حول يد حالات الصرع. لكنه أصفر اللون». أثبت شريط الفيديو صحة ما قالته. فلا أساس لوجود سوار «خطر الهروب» البرتقالي.

يمنح الحُصين الذكرى محتواها وسياقها (حجرة المستشفى والمرأة الأرجوانية على سبيل المثال) ثم تمنح اللوزة الدماغية الذكرى المشاعر (خوف، إثارة، ألم). حين تدمغ اللوزة الدماغية ذكرى ما بأنها ذات قيمة عالية فغالبًا ستحفظ من خلال عملية تسمى تشفير الذكرى «encoding»، وفي النهاية تتحول إلى ذكرى دائمة من خلال عملية تسمى التثبيت «Consolidation». وهكذا يساعد الحُصين واللوزة الدماغية على تشفير وتثبيت الذكرى ثم تحويلها إلى ذكرى دائمة يمكن استعادتها لاحقًا. عندما يعطب أي من أجزاء هذا النظام الدقيق، قد لا تتكون الذكرى. لهذا كله لن أنس غالبًا حين تمكنت من تخيل طبيب الأمراض العقلية وهو يشيخ أمام

عينيّ، هذا كله يظهر مدى هشاشة الذاكرة وقابليتها للخطأ. سيظل إدراكي لهذه الحقيقة يطاردني.

شرحت لي بروفيسورة علم النفس إليزابيث لوفتس: «عندما يفكر الإنسان في حدث من الماضي، قد يضيف تفاصيل جديدة أثناء عملية التذكر، وبالتالي يصنع ذكرى جديدة ومختلفة». قضت د. لوفتس حياتها تعمل على إثبات أن الذاكرة غير دقيقة في أغلب الأحيان.

في عام 1978م، أُجريت دراسة ضُمّنت الآن في كل مناهج علم النفس، حيث جعلت د. لوفتس المشاركين في الدراسة يشاهدون صورًا لسيارة حمراء أثناء اصطدامها بأحد المارة. تظهر الصور مرور السيارة بلافتة توقف قبل التصادم. عندما وجهت د. لوفتس أسئلتها للمشاركين، أضافت أسئلة مضللة[1] مثل: «ما لون علامة التوقف؟». أظهرت الدراسة أن إجابات المشاركين الذين طُرحت عليهم الأسئلة المضللة كانت إجابات خاطئة، مقارنةً بالمشاركين الذين لم توجه لهم تلك الأسئلة. شككت هذه النتيجة في مصداقية شهادة شهود العيان في الجرائم.

في عام 2000م، أثبت فريق من علماء الأعصاب في نيويورك هذا الافتراض من خلال إجراء اختبارات على فئران المعامل، ليروا ما إذا كانت الذكريات تتغير بشكل دائم في كل مرة نتذكرها. كشف الفريق اللثام عن خطوة جديدة في عملية التذكر تسمى إعادة التثبيت «reconsolidation». حين يتذكر الإنسان ذكرى ما، فإنها تخضع بالضرورة لعملية تجديد، مما يسمح بإدخال تفاصيل جديدة (أحيانًا تكون غير صحيحة). هذه العملية مفيدة في الظروف الطبيعية لأننا في حاجة إلى تحديث ذكريات الماضي وفقًا لمتغيرات

1- أسئلة تحاول توجيه الشخص نحو إجابة معينة. وينتشر المصطلح في المحكمة حين يحاول المحامي طرح أسئلة مضللة لدفع الشاهد إلى إجابة محددة.

الحاضر، لكن أحيانًا تخلق أخطاء مخادعة.

يصف بروفيسور علم النفس د. هنري رويدجر ما حدث معي بخصوص سوار «خطر الهروب» بأنه نوع من «العدوى المجتمعية». عندما يتذكر شخص حدثًا من الماضي بشكل خاطئ، ويشارك تلك الذكرى مع آخرين، فإنها قد تنتشر مثل عدوى في الهواء كما حدث تمامًا في فيلم «وباء» أو «Outbreak».[1]

هل أنا من خلقت تلك الذكرى الخاطئة؟ هل أنا من نشرتها، وعديت الآخرين بها؟ أتذكر بوضوح تام رؤيتي لكلمات «خطر الهروب» على معصمي.

لكن هل أنا فعلًا متأكدة؟

1- فيلم من إنتاج 1994 يتحدث عن انتشار وباء فيروسي في زائير بأفريقيا.

(52)

مدام X

شرحت لي د. كريس موريسن، أخصائية علم النفس العصبي، التي فحصتني في المستشفى حين ذهبت لإجراء حوار معها في ديسمبر 2010م: «المخ يختلق قصصًا من وحي الخيال ويصدقها. من الممكن حين تعيدين تصور الأشياء عدة مرات أن تبدأي في إضافة أبعاد شخصية لها، وتؤمني أنك كنت هناك حقًا. لأنك تحاولين أن توفقي بين أجزاء مبعثرة، ومشاهدات أشياء لا يمكنك تذكرها حقًا، مثل سوار خطر الهروب».

بشكل مشابه، تتحفز آلية استعادة ذكرى ما في المخ عندما نرى شيئًا مألوفًا، فتنقلنا روائح أو صورٌ في الحال إلى زمن ولى، وتطلق العنان لذكريات منسية.

بعد عام من مغادرتي المستشفى، اصطحبتني صديقتي كولين إلى بار قريب اسمه بار إيان. استفزني الاسم. هل كنت هنا من قبل؟ لا أتذكر. دخلنا إلى الحانة الإيرلندية الفخمة، وتوجهنا إلى البار. لا، لم أكن هنا من

قبل. لكن حين خطوت إلى داخل حجرة الطعام في مركز الحانة وشاهدت النجفة الضخمة المتدلية على ارتفاع منخفض، عرفت أنني كنت هنا من قبل، مباشرة قبل مرضي. مع ستيفن وأخته وزوجها، وقبل حفل راين أدمز الموسيقي. لم أتذكر أنني كنت هنا وحسب، بل تذكرت طلبي يومها: سمكة وبطاطس مقلية. أتذكر دهن الخنزير اللامع وأكوام البطاطس المقلية المشبعة بالزيوت بشكل مفرط. أتذكر مقاومتي التقيؤ على الطاولة. أتذكر محاولتي الانخراط في الحوار لكن لم أستطع إبعاد عينيّ عن لمعان السمك والبطاطس. لم أصدق كيف عادت الذكرى إلي باندفاع ووضوح شديدين. ماذا نسيت أيضًا، وأي ذكرى منسية أخرى ستعود إلي وتفقدني اتزاني، وتذكرني بمدى هشاشة إدراكي لحقيقة ما مررت به أثناء مرضي؟

كل يوم تقريبًا يطفو شيء إلى السطح. قد يكون شيئًا تافهًا مثل الجوارب الطحلبية اللون في المستشفى، أو كلمة بسيطة مثل المرة التي وقعت عيني فيها في الصيدلية على علبة دواء الكولاس الملين فتذكرت تناولي له في المستشفى، وهرولة الممرضة أدلين كي تعطيني إياه. أثناء تلك اللحظات، لا أستطيع منع نفسي من التفكير أن سوزانا الأخرى تناديني كما لو كانت تقول: «قد أكون قد رحلت لكن لن تنسيني أبدًا». تمامًا مثل الفتاة التي في شريط الفيديو التي تتوسل «رجاء».

مع كل ذكرى أستعيدها، أدرك أنه ما زال هنالك مئات بل آلالاف من الذكريات التي لن أتمكن أبدًا من استحضارها. مهما تحدثت مع الأطباء، مهما أجريت من حوارات، مهما بحثت في المذكرات، هنالك أحداث كثيرة، أجزاء من حياتي قد تلاشت للأبد.

في صباح أحد الأيام، بعد مرور سنة على انتقالي للعيش مع ستيفن، أتيحت لي الفرصة أخيرًا كي أفض الصناديق التي أحضرتها من الشقة

القديمة. فتحت صندوقًا صغيرًا يحوي مجفف شعر وعددًا من الدفاتر وحقيبة ورقية بنية صغيرة. داخل الحقيبة الورقية وجدت بطاقة بريدية لامرأة سوداء الشعر. كانت لوحة معروفة وأعلم أنني قد رأيتها من قبل، لكن لم تمنحني الصورة أي دلالة. كانت المرأة تقف بشموخ مما أبرز بشكل مبالغ فيه أنفها المائل وجبهتها العريضة. برزت بشرتها الشاحبة بشدة في ظل لون فستانها الأسود الذي يكشف عن ذراعيها. ولا يمسك الفستان في مكانه سوى شريطين مرصعين بالجواهر. دعمت وقفتها غير الطبيعية من خلال إمالة ثقل جسمها على أطراف أصابع يدها اليمنى، التي تسندها على طاولة خشبية ورائها، يدها الأخرى تمسك بحاشية فستانها مثل الملكات. هي وقفة مغرية ومصطنعة. بالنسبة إليّ بدت متغطرسة ومريضة في آن واحد كأنها متعجرفة لدرجة لا يسمح كبرياؤها لها بالاعتراف أنها مريضة بمرض مميت.

كان هنالك شيء جذاب بغرابة بخصوص تلك المرأة، شيء يختلف تمامًا عن شعور النفور والانجذاب الذي شعرت به تجاه الصورة السريالية المخيفة لوجه الإنسان في عيادة د. بايلي، لوحة كاروتا. التطلع إلى صورة تلك المرأة جعل شعورًا قديمًا يجتاحني، شعورًا قويًا يمكنني تتبعه إلى طفولتي. بعد لحظة اكتشفت مصدره. كان ينتابني نفس الشعور عندما كنت أعبث خلسة بدولاب أبي وأنا طفلة. حدقت في الصورة لعدة دقائق أخرى كي أحاول فهم الرابط بينها وبين تلك الذكرى المنسية.

في النهاية استسلمت وقلبت البطاقة. كانت لوحة جون سنغر سارغنت[1] الشهيرة: مدام X التي رسمها عام 1884م. وجدت في الحقيبة أيضًا إيصال شرائي للبطاقة. اشتريت البطاقة البريدية أثناء زيارتي لمتحف المتروبوليتان

1- جون سنغر سارغنت (1856 - 1923): أحد أهم الرسامين الأمريكيين. هاجر لأوروبا وهنالك أبدع جل أعماله. أشهرها مدام X والراقصة الإسبانية.

للفنون في 17 فبراير 2009م، قبل مدة وجيزة من أول انهيار لي في العمل. لم يكن في ذاكرتي شذرة، كسرة، أو حتى ذرة من ذكرى لزيارتي للمتحف في ذلك التاريخ. لا أستطيع حقًا تذكر ذهابي إلى المتروبوليتان في ذلك اليوم. لا يمكنني تذكر وقوفي أمام اللوحة أو الشيء الذي سحرني من الأساس بخصوص تلك المرأة القوية والهشة في نفس الوقت... أو ربما في مستوى عقلي ما لا أدركه، يمكنني التذكر. أحب أن أؤمن بمقولة فريدريك نيتشه: «لم يُثبت علميًا وجود النسيان بعد. نعرف فقط أن بعض الأشياء لا تخطر في أذهاننا حين نريدها أن تفعل».

ربما لم تتلاشَ الذكرى لكنها في مكان ما في تلافيف المخ، تنتظر الوقت المناسب لاستدعائها. حتى الآن لم تأتِ تلك اللحظة، مما يجعلني أتساءل: ما الأشياء الأخرى التي فقدتها أثناء مسيرتي مع المرض؟ وهل فقدتها حقًا أم أنها مخبأة في مكان ما من عقلي؟

خلق شعور دفين ما رابطة قوية بيني وبين تلك اللوحة. منذ ذلك الوقت علقت نسخة منها على الحائط فوق رأسي في الحجرة التي أكتب فيها، وكثيرًا ما أجد نفسي أحدق فيها بينما أنا غارقة في التفكير.

ربما، رغم «عدم حضوري ذهنيًا» في تجربة رؤية اللوحة لأول مرة، فإن أجزاء مني كانت حاضرة أثناء تلك الزيارة (وهذا هو سبب ارتباطي العاطفي بها)، وربما كانت تلك الأجزاء حاضرة طوال شهر الضياع من دون أن أدرك ذلك. أراحتني تلك الفكرة.

(53)

السيدة الأرجوانية

بعد حوالي سنتين من خروجي، زرت جناح الصرع في المركز الطبي لجامعة نيويورك. مشيت في الضاحية الأولى باتجاه الشعار الزهري لجامعة نيويورك المعلق على مبنى المستشفى الرمادي. دفعت الباب الدوار المصمم ليتحرك ببطء لتسهيل دخول المرضى على الكراسي المتحركة. يفضي الباب إلى بهو المستشفى حديث التجديد. يسير الأطباء بخطى سريعة متجاوزين المرضى ومندوبي شركات الأدوية السُمج. يتوارى الزوار البائسون الذين يحملون حقائب بلاستيكية عليها ملصق «متعلقات المريض» في الخلفية. تنتشر موزعات آلية لمعقم اليد بيوريل عند المداخل.

مشيت متجاوزة منطقة الاستقبال حيث أصابتني نوبة الصرع، رغم أن كل ما يمكنني تذكره من ذلك اليوم هو الكابتشينو الساخن الذي ابتعته قبل دقائق قليلة من نوبة الصرع واحتجازي في المستشفى. استقللت المصعد الذي حملني إلى الطابق الثاني عشر. بدأت أفكر في والديّ وستيفن، الذين كانوا يقومون بنفس الرحلة التي أقوم بها الآن عدة مرات كل يوم لمدة شهر. كانت حقيقة مذهلة بالنسبة إليّ. بدا كل شيء غير مألوف بغرابة شديدة. لم تتعرف عليّ أي من الممرضات. سرت بطول الممر وتجاوزت حجرة التمريض. لم ينظر نحوي أي أحد. تمدد رجل على أرضية الردهة بينما يُصدر صوت غرغرة. اندفعت الممرضات من حجرة التمريض. مررن بي

في طريقهن نحوه. تتبعتهن. ضرب الرجل العجوز الهواء بيديه وهو يصدر صوت حشرجة من حلقه. ثبت فريق التمريض حركته بينما رفعه حارس الأمن فوق سرير متحرك. كان رداء الرجل مفتوحًا كاشفًا عن جسده من أسفل سرته. أشحت بوجهي بعيدًا عن المنظر. مرت ممرضة ترتدي رداء تمريض أخضر.

سألتها: «هل هذه هي وحدة الصرع؟».

«لا. لقد أتيت إلى الجناح الآخر. هذا هو الجناح الشرقي. وحدة الصرع في نفس الطابق لكن في الجناح الغربي».

حسنًا، على الأقل لم تكن ذاكرتي تتلاعب بي هذه المرة. عدت إلى الردهة واستقللت مصعدًا مختلفًا لأعلى، لكن مرة أخرى لم تقع عيناي على أي شيء مألوف بصورة محبطة. ثم اجتاحتني الرائحة: مزيج من القطن المنقوع في كحول التطهير ورائحة مسك حلوة. هذا هو المكان؛ لا بد أن يكون. ثم لمحتها. السيدة الأرجوانية. حدقت نحوي. لكن هذه المرة دون نظرة الذعر أو الشفقة أو الخوف. في عينيها، كنتُ إنسانة سليمة وطبيعية، مجرد شخص تجاهد كي تتذكره.

ابتسمتُ. «هل تتذكرينني؟»

اعترفت: «لست متأكدة». كان صوتها يحمل نفس اللكنة الجاميكية. «ما اسمك؟»

«سوزانا كهالان».

اتسعت عيناها. «أوه، أجل، أتذكرك. أتذكرك حقًا». ابتسمت. «أنا متأكدة أنها أنت، لكنك تبدين مختلفة جدًا. تبدين أفضل».

وقبل أن أدرك ما يجري تعانقنا. لرائحة جسمها نفس رائحة معقم

بيوريل. مرّ بعقلي فيض من الصور: أبي يطعمني الشوفان وأمي تعتصر يديها وتنظر بتوتر خارج النافذة، ستيفن يصل حاملًا حقيبته الجلدية. اجتاحتني رغبة في البكاء لكن بدلًا من ذلك، ابتسمتُ.

طبعت السيدة الأرجوانية قبلة رقيقة على خدي.

مكتبة
t.me/t_pdf

عن المؤلفة

بدأت سوزانا كهالان العمل في الصحافة الاستقصائية في جريدة ذا بوست نيويورك عندما أخذت منحة في سنتها الأخيرة في المدرسة الثانوية. تعمل هناك الآن منذ أكثر من خمسة عشر عامًا. نُشرت مقالاتها في نيويورك تايمز وبيزنس ويكلي التشيكية حيث درست السنة قبل الأخيرة في الكلية في التشيك. فازت بجائزة سلوريان للامتياز الصحفي عن كتابة مقال «شهر ضائع من الجنون» الذي كان الأساس الذي بنت عليه هذا الكتاب. تعيش سوزانا في جيرسي سيتي في ولاية نيوجيرسي.

مكتبة
t.me/t_pdf

تنويه

الرسوم الواردة في الكتاب بريشة الفنان مورجان شويتزر

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة | سُر مَن قرأ

دماغ يشتعل

قصة صادمة لا تنسى . لا يمكن وصف نجاة سوزانا من مرضها الجنوني إلا بالمعجزة.

New York Journal Of Books

" دماغ مشتعل" رحلة هبوط امرأة إلى بئر الجنون و نجاتها منه . تؤرخ كهالان لشهر مُرعب في حياتها و ماذا يمكن أن يحدث عندما تفقد هويتك و ذاتك فجأة .

The Guardian

يتجاوز " دماغ مشتعل " حدود الغموض الطبي ليصبح رحلة بحث لا تنسى عن الذاكرة و الهوية و الإيمان و الحب و الصداقة . قراءة رائعة و عميقة عن النجاة و محاولة العثور على الذات في متاهة المرض و الجنون مما يؤهله لأن يكون كتاباً كلاسيكياً

People

يعبر بصدق و روعة عن ألم فقدان الهوية بسبب مرض غامض و القتال من أجل استردادها

Financial Times

عمل مذهل ... مخيف في الكثير من تفاصيله .

Observer

telegram @t_pdf

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

ISBN 978-1-947836-32-7

9 781947 836327

أثر